كتاب

الفوائد

تأليف

الإمام ابن قيّم الجوزيّة

طبعة محققة
ومذيّلة بالحواشي

Bibliotheca Alexandrina
0130198

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

كتاب
الفوائد

كتاب

الفوائد

تأليف

الامام ابن قيّم الجوزيّة

طبعة محقّقة
ومذيّلة بالحواشي

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر

دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر

المقدمة

أحمده تعالى وأشكره ، وأصلي وأسلم على خاتم النبيين سيدنا محمد بن عبد الله ـ النبي الأمي ـ وعلى آله وصحبه وسلم .

وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد :

قال تعالى :

﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ .

« سورة النور الآية ٣٥ »

بين أيدينا الآن كتاب « الفوائد » للامام ابن القيم الجوزية ـ رحمه الله وطيب ثراه ـ اقدمه للقراء الكرام ـ العلماء منهم والطلاب لما وجدت فيه من عميم الفائدة ، وعظيم النفع . هذا وقد قمت بخدمته وبيان غوامضه وتعريف أعلامه مما يسهل للقارىء الكريم الاستفادة منه بيسر وسهولة. راجياً من الله حسن الثواب . والله من وراء القصد .

نبذة عن حياة المؤلف

هو الامام محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي ـ أبو عبد الله ـ شمس الدين . من أركان الاصلاح الاسلامي ومن الذين وقفوا في وجه البدع ، وحاربوا الملحدين والزنادقة ، ولد بدمشق سنة (٦٩١ هـ ـ ١٢٩٢م) ونشأ محباً للعلم وكان مولعاً بجمع الكتب ، والاطلاع على كل جديد منها في عصره . تتلمذ على عدد كبير من علماء عصره ، إلا أنه لازم « ابن تيمية » وأخذ عنه الكثير ، وأولع في كتاباته ، وانكب على دراستها ، وقام بنشرها بين الناس . وكان لا يخرج عن أقوال شيخه ، وكان ينتصر له دائماً ، حتى أنه سجن معه في قلعة دمشق ، وأهين وعذب بسببه ، وطيف به على جمل مضروباً بالعصىٰ ، واطلق بعد موت ابن تيمية . تصانيفه كثيرة نذكر منها :

١ ــ الفوائد : وهو موضوع كتابنا هذا .
٢ ــ الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان .
٣ ــ طريق الهجرتين وباب السعادتين .
٤ ــ الـروح .
٥ ــ حادي الارواح .
٦ ــ تحفة المودود في أحكام المولود .
٧ ــ زاد المعاد .
٨ ــ الوابل الصيب من الكلم الطيب .

٩ ـ روضة المحبين .
١٠ ـ عدة الصابرين .
١١ ـ هداية الحيارى .
١٢ ـ التفسير القيم (استخرجه محمد أويس الندوي من مؤلفاته).
١٣ ـ التبيان في أقسام القرآن .
١٤ ـ الجواب الكافي أو الداء والدواء .
١٥ ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل .
١٦ ـ أحكام أهل الذمة .
١٧ ـ شرح الشروط العمرية .
١٨ ـ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة .
١٩ ـ أخبار النساء .
٢٠ ـ مدارج السالكين « في ثلاث مجلدات » .
٢١ ـ تفسير المعوذتين .

وغيرها كثير .

توفي رحمه الله في دمشق سنة (٧٥١ هـ ـ ١٣٥٠م)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الامام محيي السنة قامع البدعة أبو عبدالله الشهير بابن قيم الجوزية رحمه الله ورضي عنه .

قاعدة جليلة

شروط الانتفاع بالقرآن الكريم

إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه ، وألق سمعك وأحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه ، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ، قال تعالى﴿ إنَّ في ذلكَ لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾(١) وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفا على مؤثر مقتض . ومحل قابل . وشرط لحصول الأثر . وانتفاء المانع الذي يمنع منه ، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد ، فقوله ﴿ إن في ذلك لذكرى ﴾ اشارة الى ما تقدم من أول السورة الى ههنا وهذا هو المؤثر . وقوله ﴿ لمن كان له قلب ﴾ فهذا هو المحل القابل ، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله كما قال تعالى ﴿ إن هو إلاَّ ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حياً ﴾(٢) أي حي القلب . وقوله ﴿ أو ألقى السمع ﴾ أي وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له . وهذا شرط التأثر بالكلام .

---

(١) سورة قٓ الآية ٣٧.

(٢) سورة يٓس الآية ٦٩ ـ ٧٠.

وقوله ﴿ وهو شهيد ﴾ أي شاهد القلب حاضر غير غائب .

قال ابن قتيبة[1] : استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ، ليس بغافل ولا ساه ، وهو اشارة الى المانع من حصول التأثير ، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله ، فإذا حصل المؤثر وهو القرآن ، والمحل القابل وهو القلب الحي ، ووجد الشرط وهو الاصغاء ، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه الى شيء آخر ، حصل الاثر وهو الانتفاع والتذكر .

(فإن قيل) إذا كان التأثير انما يتم بمجموع هده فما وجه دخول أداة (أو) في قوله ﴿ أو ألقى السمع ﴾ والموضع موضع واو الجمع لا موضع (أو) التي هي لأحد الشيئين . قيل هذا سؤال جيد والجواب عنه أن يقال : خرج الكلام بأو باعتبار حال المخاطب المدعو ، فإن من الناس من يكون حيَّ القلب واعيَه تامَّ الفطرة ، فإذا فكر بقلبه وجال بفكره دله قلبه وعقله على صحة القرآن وأنه الحق ، وشهد قلبه بما أخبر به القرآن، فكان ورود القرآن على قلبه نوراً على نور الفطرة . وهذا وصف الذين قيل فيهم ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ﴾[2] وقال في حقهم ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء ﴾[3] فهذا نور الفطرة على نور الوحي . وهذا حال صاحب القلب الحي الواعي .

---

(١) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ـ ابو محمد ـ من أئمة الأدب، ومن المصنفين المكثرين، ولد في بغداد، سنة (٢١٣ هـ ـ ٨٢٨ م) ثم سكن الكوفة، وولي قضاء الدينور مدة، ونسب اليها. توفي في بغداد سنة (٢٧٦ هـ ـ ٨٨٩ م) من كتبه: «ادب الكاتب» و«المعارف» و«المعاني» ثلاث مجلدات و«تأويل مختلف القرآن» و«عيون الاخبار» و«مشكل القرآن» و«تفسير غريب القرآن» و«الرد على الشعوبية». وغيرها.

(٢) سورة سبأ الآية ٦ .

(٣) سورة النور الآية ٣٥ .

قال ابن القيم : وقد ذكرنا ما تضمنت هذه الآية من الأسرار والعبر في كتاب « اجتماع الجيوش الاسلامية على غزو المعطلة والجهمية » فصاحب القلب يجمع بين قلبه وبين معاني القرآن فيجدها كأنها قد كتبت فيه فهو يقرأها عن ظهر قلب .

ومن الناس من لا يكون تامَّ الاستعداد واعيَ القلب كامل الحياة فيحتاج الى شاهد يميز له بين الحق والباطل . ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وزكاء فطرته مبلغَ صاحب القلب الحي الواعي ، فطريق حصول هدايته أن يفرغ سمعه للكلام وقلبه لتأمله والتفكر فيه وتعقل معانيه ، فيعلم حينئذ أنه الحق .

فالأول حال من رأى بعينيه ما دُعِيَ اليه وأخبر به . والثاني حال من علم صدقَ المخبر وتيقنه وقال : «يكفيني خبره» فهو في مقام الايمان ، والأول في مقام الاحسان . هذا قد وصل الى علم اليقين وترقى قلبه منه الى منزلة عين اليقين . وذاك معه التصديق الجازم الذي خرج به من الكفر ودخل به في الاسلام . فعين اليقين نوعان : نوع في الدنيا ونوع في الآخرة ، فالحاصل في الدنيا نسبته إلى القلب كنسبة الشاهد إلى العين . وما أخبرت به الرسل من الغيب يُعاين في الآخرة بالأبصار ، وفي الدنيا بالبصائر[1] ، فهو عين يقين في المرتبتين .

أصول الايمان مجموعة في سورة قٓ

وقد جمعت هذه السورة من أصول الايمان ما يكفي ويشفي ، ويغني عن كلام أهل الكلام ، ومعقول أهل المعقول ، فإنها تضمنت تقرير المبدأ والمعاد والتوحيد والنبوة والايمان بالملائكة وانقسام الناس الى هالك شقي وفائز سعيد وأوصاف هؤلاء وهؤلاء . وتضمنت اثبات صفات الكمال لله وتنزيهه عما يضاد كمالَـهُ من النقائص والعيوب وذكر فيها القيامتين : الصغرى والكبرى ، والعالمين : الأكبر وهو عالم الآخرة ، والأصغر وهو عالم الدنيا وذكر فيها خلق الانسان ووفاته

(١) البصائر : من البصيرة وهي التعقل والفطنة.

واعادته وحاله عند وفاته ويوم معاده ، واحاطته سبحانه به من كل وجه حتى علمه بوساوس نفسه واقامة الحفظة عليه يحصون عليه كل لفظة يتكلم بها . وأنه يوافيه يوم القيامة ومعه سائق يسوقه اليه وشاهد يشهد عليه ، فإذا أحضره السائق قال ﴿ **هذا ما لدي عتيد** ﴾[1] أي هذا الذي أمرت بإحضاره قد أحضرته . فيقال عند احضاره ﴿ **ألقيا في جهنم كل كفار عنيد** ﴾[2] كما يحضر الجاني الى حضرة السلطان ، فيقول : هذا فلان قد أحضرته فيقول : اذهبوا به الى السجن وعاقبوه بما يستحقه .

وتأمل كيف دلت السورة صريحا على أن الله سبحانه يعيد هذا الجسد بعينه الذي أطاع وعصى فينعمه ويعذبه كما ينعم الروح التي آمنت بعينها ويعذب التي كفرت بعينها ، لا أنه سبحانه يخلق روحا أخرى غير هذه فينعمها ويعذبها ، كما قاله من لم يعرف المعاد الذي أخبرت به الرسل حيث زعم أن الله سبحانه يخلق بدنا غير هذا البدن من كل وجه ، عليه يقع النعيم والعذاب ، والروح عنده عرض من أعراض البدن فيخلق روحاً غير هذه الروح وبدناً غير هذا البدن وهذا غير ما اتفقت عليه الرسل ، ودل عليه القرآن والسنة وسائر كتب الله تعالى ، وهذا في الحقيقة انكار للمعاد ، وموافقة لقول من أنكره من المكذبين فإنهم لم ينكروا قدرة الله على خلق أجسام أخر غير هذه الاجسام يعذبها وينعمها ، كيف وهم يشهدون النوع الانساني يخلق شيئا بعد شيء ، فكل وقت يخلق سبحانه أجساماً وأرواحاً غير الأجسام التي فنيت ، فكيف يتعجبون من شيء يشاهدونه عياناً ، وإنما تعجبوا من عودهم بأعيانهم بعد أن مزقهم البلى وصاروا عظاما ورفاتا ، فتعجبوا أن يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء ،ولهذا قالوا : ﴿ **أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون** ﴾[3] وقالوا : ﴿ **ذلك رجع بعيد** ﴾[4] ولو كان الجزاء إنما هو لأجسام غير هذه لم يكن ذلك بعثاً ولا رجعاً ، بل يكون ابتداء ، ولم يكن لقوله

---

(١) سورة ق الآية ٢٣ .

(٢) سورة ق الآية ٢٤ .

(٣) سورة الصافات الآية ١٦ .

(٤) سورة ق الآية ٣ .

﴿ **قد علمنا ما تنقص الأرض منهم** ﴾[1] كبير معنى فإنه سبحانه جعل هذا جواباً لسؤال مقدر ، وهو أنه يميز تلك الأجزاء التي اختلطت بالأرض واستحالت الى العناصر بحيث لا تتميز ، فأخبر سبحانه أنه قد علم ما تنقصه الأرض من لحومهم وعظامهم وأشعارهم ، وأنه كما هو عالم بتلك الأجزاء فهو قادر على تحصيلها وجمعها بعد تفرقها وتأليفها خلقاً جديداً . وهو سبحانه يقرر المعاد بذكر كمال علمه وكمال قدرته وكمال حكمته ، فإن شبه المنكرين له كلها تعود الى ثلاثة أنواع :

(أحدها) اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز ولا يحصل معها تميز شخص عن شخص .

(الثاني) : أن القدرة لا تتعلق بذلك .

(الثالث) أن ذلك أمر لا فائدة فيه ، أو انما الحكمة اقتضت دوام هذا النوع الانساني شيئاً بعد شيء . هكذا أبداً كلما مات جيل خلفه جيل آخر ، فأما أن يميت النوع الانساني كله ثم يحييه بعد ذلك فلا حكمة في ذلك .

فجاءت براهين المعاد في القرآن مبنية على ثلاثة أصول :

براهين المعاد في القرآن الكريم

(أحدها) تقرير كمال علم الرب سبحانه كما قال في جواب من قال: ﴿ **من يحيي العظام وهي رميم؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم** ﴾[2] وقال: ﴿ **وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل إن ربك هو الخلاق العليم** ﴾[3] وقال: ﴿ **قد علمنا ما تنقص الأرض منهم** ﴾[4] .

(الثاني) تقرير كمال قدرته كقوله: ﴿ **أوليس الذي خلق السموات والأرض**

---

(١) سورة ق الآية ٤ .

(٢) سورة يس الآية ٧٨ ـ ٧٩.

(٣) سورة الحجر الآية ٨٥ ـ ٨٦.

(٤) سورة قَ الآية ٤ .

بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾[1] وقوله: ﴿ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾[2] وقوله ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ﴾[3] ويجمع سبحانه بين الأمرين كما في قوله ﴿ أوَ ليسَ الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم؟ بلى وهو الخلاق العَليمُ ﴾[4] .

(الثالث) كمال حكمته كقوله ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ﴾[5] وقوله : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ﴾[6] وقوله : ﴿ أيحسب الانسان أن يترك سدى ﴾[7] وقوله : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق ﴾[8] وقوله : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ﴾[9] .

ولهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع ، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه ، وأنه منزه عما يقوله منكروه كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائص .

ثم أخبر سبحانه أن المنكرين لذلك لما كذبوا بالحق اختلط عليهم أمرهم ﴿ فهم في أمر مريج ﴾[10] مختلط لا يحصلون منه على شيء . ثم دعاهم الى النظر في العالم العلوي وبنائه وارتفاعه واستوائه وحسنه والتئامه . ثم الى العالم السفلي وهو الأرض وكيف بسطها وهيأها بالبسط لما يراد منها وثبتها بالجبال ، وأودع فيها المنافع . وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف النبات على اختلاف أشكاله وألوانه ومقاديره ومنافعه وصفاته ، وأن ذلك تبصرة إذا تأملها العبد المنيب وتبصر

---

(١) سورة يس الآية ٨١ .
(٢) سورة القيامة الآية ٤ .
(٣) سورة الحج الآية ٦ .
(٤) سورة يٓسٓ الآية ٨١ .
(٥) سورة الدخان الآية ٣٨ .
(٦) سورة ص الآية ٢٧ .
(٧) سورة القيامة الآية ٣٦ .
(٨) سورة المؤمنون الآية (١١٥ - ١١٦) .
(٩) سورة الجاثية الآية ٢١ .
(١٠) سورة ق الآية ٥ .

بها تذكر ما دلت عليه مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد فالناظر فيها يتبصر أولا ثم يتذكر ثانيا وأن هذا لا يحصلُ الا لعبد منيب الى الله بقلبه وجوارحه .

ثم دعـاهم الى التفكر في مـادة أرزاقهم وأقواتهم ومـلابسهم ومراكبهم وجناتهم ، وهو الماء الذي أنزله من السماء وبارك فيه ، حتى أنبت به جنات مختلفة الثمار والفواكه ما بين أبيض وأسود وأحمر وأصفر وحلو وحامض . [illegible] اختلاف منافعها وتنوع أجناسها ، وأنبت به الحبوب كلها على تنـوعها [illegible] منافعها وصفاتها وأشكالها ومقاديرها . ثم أفرد النخـل لما فيـه من موضـع العبرة والدلالة التي لا تخفى على المتأمـل ﴿ فأحيـا به الأرض بعـد موتهـا ﴾[1] ثم قال ﴿ كـذلك الخـروج ﴾[2] أي مثـل هـذا الاخـراج من الأرض الفـواكـه والثمـار والأقوات والحبوب : خروجكم من الأرض بعد ما غيبتم فيها .

وقد ذكرنا هذا القياس وأمثاله من المقاييس الواقعة في القرآن في كتابنا المعالم وبينا بعض ما فيها من الأسرار والعبر . ثم انتقل سبحانه الى تقرير النبوة بأحسن تقرير وأوجز لفظ وأبعده عن كل شبهة وشك ، فأخبر أنه أرسل الى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون رسلا فكذبوهم ، فأهلكهم بأنواع الهلاك ، وصدق فيهم وعيده الذي أوعدتهم به رسله إن لم يؤمنوا . وهذا تقرير لنبوتهم ولنبوة من أخبر بذلك عنهم من غير أن يتعلم ذلك من معلم ولا قرأه في كتاب ، بل أخبر به إخباراً مفصلاً مطابقاً لما عند أهل الكتاب .

ولا يرد على هذا إلَّا سؤال البهت[3] والمكابرة على جحد الضروريات بأنه لم يكن شيء من ذلك ، أو أن حوادث الدهر ونكباته أصابتهم كما أصابت غيرهم . وصاحب هذا السؤال يعلم من نفسه أنه باهت مباهت[4] جاحد لما شهد به العيان

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٤ . وسورة النحل الآية ٦٥ ، وسورة الجاثية الآية ٥ .

(٢) سورة ق الآية ١١ .

(٣) البهت اشد الكذب، والبهيتة : الباطل الذي يُتحير من بطلانه .

(٤) أي كاذب .

وتناقلته القرون قرناً بعد قرن ، فإنكاره بمنزلة انكار وجود المشهورين من الملوك والعلماء والبلاد النائية .

ثم عاد سبحانه الى تقرير المعاد بقوله ﴿ أفعيينا بالخلق الأول ﴾[1] يقال لكل من عجز عن شيء : عيي به . وعيي فلان بهذا الأمر . قال الشاعر :

عـيـوا بـأمـرهـم كـما عييت ببيضتهـا الحمامـة

ومنه قوله تعالى ﴿ ولم يعى بخلقهن ﴾[2] قال ابن عباس[3] : يريد أفعجزنا . وكذلك قال مقاتل[4] .

قلت : هذا تفسير بلازم اللفظة ، وحقيقتها أعم من ذلك فإن العرب تقول : أعياني أن أعرف كذا وعييت به ، إذا لم تهتد لوجهه ولم تقدر على معرفته وتحصيله فتقول (أعياني دواؤك) إذا لم تهتد له ولم تقف عليه . ولازم هذا المعنى العجز عنه . والبيت الذي استشهدوا به شاهد لهذا المعنى ، فإن الحمامة لم تعجز عن بيضتها ، ولكن أعياها إذا أرادت أن تبيض أين ترمى بالبيضة فهي تدور وتجول حتى ترمي بها ، فإذا باضت أعياها أين تحفظها وتودعها حتى لا تنال ، فهي تنقلها من مكان إلى مكان ، وتحار أين تجعل مقرها ، كما هو حال من عي بأمره

---

(١) سورة ق الآية ١٥ .

(٢) سورة الاحقاف الآية ٣٣ .

(٣) ابن عباس هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي ـ أبو العباس ـ حبر الأمة ، الصحابي الجليل . ولد بمكة سنة (٣ ق. هـ ـ ٦١٩ م) ونشأ في بدء عصر النبوة ، لازم رسول الله ﷺ ، وروى عنه الأحاديث الصحيحة ، وشهد مع علي ـ كرّم الله وجهه ـ الجمل وصفين ، كفّ بصره في آخر عمره ، فسكن الطائف ، وتوفي فيها سنة (٦٨هـ ـ ٦٨٧ م) له في الصحيحين وغيرهما «١٦٦٠» حديثاً . قال عمرو بن دينار ما رأيت مجلساً كان أجمع لكل خير من مجلس ابن عباس . ينسب إليه كتاب : «تفسير القرآن» .
انظر الاصابة ت : ٤٧٧٢ وصفوة الصفوة [١ : ٣١٤] .

(٤) هو مقاتل بن سليمان البلخي ـ أبو الحسن ـ من أعلام المفسرين (كان متروك الحديث) من كتبه «نوادر التفسير» و «الرد على القدرية» و «متشابه القرآن» . توفي سنة (١٥٠ هـ ـ ٧٦٧ م) .

فلم يدر من أين يقصد له ومن أين يأتيه ، وليس المراد بالاعياء في هذه الآية التعب كما يظنه من لم يعرف تفسير القرآن ، بل هذا المعنى هو الذي نفاه سبحانه عن نفسه في آخر السورة بقوله ﴿ **وما مسنا من لغوب** ﴾(١) ثم أخبر سبحانه أنهم ﴿ **في لبس من خلق جديد** ﴾(٢) أي أنهم التبس عليهم اعادة الخلق خلقاً جديداً ، ثم نبههم على ما هو من أعظم آيات قدرته وشواهد ربوبيته وأدلة المعاد ، وهو خلق الانسان فإنه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد .

وأي دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الآدمية بأعضائها وقواها وصفاتها وما فيها من اللحم والعظم والعروق والأعصاب والرباطات والمنافذ والآلات والعلوم والارادات والصناعات ، كل ذلك من نطفة ماء ، فلو أنصف العبد لاكتفى بفكرة نفسه واستدل بوجوده على جميع ما أخبرت به الرسل عن الله وأسمائه وصفاته .

ثم أخبر سبحانه عن احاطة علمه به حتى علم وساوس نفسه ، ثم أخبر عن قربه اليه بالعلم والإحاطة وأن ذلك أدنى اليه من العرق الذي هو داخل بدنه فهو أقرب اليه بالقدرة عليه والعلم به من ذلك العرق .

وقال شيخنا : المراد بقوله ﴿ **نحن** ﴾ أي ملائكتنا كما قال ﴿ **فإذا قرأناه فاتبع قرآنه** ﴾(٣) أي إذا قرأه عليك رسولنا جبريل ، قال ويدل عليه قوله ﴿ **إذ يتلقى المتلقيان** ﴾(٤) فقيد القرب المذكور بتلقي الملكين فلا حجة في الآية لحلولي ولا معطل .

ثم أخبر سبحانه أنه على يمينه وشماله ملكين يكتبان أعماله وأقواله ، ونبه بإحصاء الأقوال وكتابتها على كتابة الأعمال التي هي أقل وقوعا وأعظم أثرا من الأقوال وهي غايات الأقوال ونهايتها .

---

(١) سورة ق الآية ٣٨.
واللغوب : الاعياء والتعب.
(٢) سورة ق الآية ١٥ .
(٣) سورة القيامة الآية ١٨ .
(٤) سورة ق الآية ١٧ .

القيامة الصغرى والقيامة الكبرى :

ثم أخبر عن القيامة الصغرى وهي سكرة الموت وأنها تجيء بالحق وهو لقاؤه سبحانه والقدوم عليه وعرض الروح عليه ، والثواب والعقاب الذي تعجل لها قبل القيامة الكبرى . ثم ذكر القيامة الكبرى بقوله ﴿ **ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد** ﴾(١) ثم أخبر أن أحوال الخلق في هذا اليوم ، وإن كل أحد يأتي الله سبحانه ذلك اليوم ومعه سائق يسوقه وشهيد يشهد عليه . وهذا غير شهادة جوارحه وغير شهادة الأرض التي كان عليها له وعليه وغير شهادة رسوله والمؤمنين ، فإن الله سبحانه يستشهد على العباد الحفظة والأنبياء والأمكنة التي عملوا عليها الخير والشر ، والجلود التي عصوه بها ولا يحكم بينهم بمجرد علمه وهو أعدل العادلين وأحكم الحاكمين ، ولهذا أخبر نبيه أنه يحكم بين الناس بما سمعه من اقرارهم وشهادة البينة لا بمجرد علمه ، فكيف يسوغ لحاكم أن يحكم بمجرد علمه من غير بينة ولا إقرار .

ثم أخبر سبحانه أن الإنسان في غفلة من هذا الشأن الذي هو حقيق بأن لا يغفل عنه وأن لا يزال على ذكره وباله ، وقال ﴿ **في غفلة من هذا** ﴾(٢) ولم يقل عنه كما قال ﴿ **وإنهم لفي شك منه مريب** ﴾(٣) ولم يقل في شك فيه . وجاء هذا في المصدر وإن لم يجيء في الفعل ، فلا يقال غفلت منه ولا شككت منه كأن غفلته وشكه ابتداء منه فهو مبدأ غفلته وشكه . وهذا أبلغ من أن يقال في غفلة عنه ، وشك فيه ، فإنه جعل ما ينبغي أن يكون مبدأ التذكرة واليقين ومنشأهما مبدأ للغفلة والشك .

ثم أخبر أن غطاء الغفلة والذهول يكشف عنه ذلك اليوم كما يكشف غطاء النوم عن القلب فيستيقظ وعن العين فتنفتح ، فنسبة كشف هذا الغطاء عن العبد عند المعاينة كنسبة كشف غطاء النوم عنه عند الانتباه .

---

(١) سورة ق الآية ٢٠ .
(٢) سورة ق الآية ٢٢ .
(٣) سورة هود الآية ١١٠ .

ثم أخبر سبحانه أن قرينه وهو الذي قرن به في الدنيا من الملائكة يكتب عمله وقوله ، يقول لما يحضره : هذا الذي كنت وكلتني به في الدنيا قد أحضرته وأتيتك به . هذا قول مجاهد[1] وقال ابن قتيبة : المعنى هذا ما كتبته عليه وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندي . والتحقيق أن الآية تتضمن الأمرين . أي هذا الشخص الذي وكلت به وهذا عمله الذي أحصيته عليه فحينئذ يقال ﴿ **ألقيا في جهنم** ﴾[2] وهذا إما أن يكون خطاباً للسائق والشهيد ، أو خطاباً للملك الموكل بعذابه وإن كان واحداً . وهو مذهب معروف من مذاهب العرب في خطابها ، أو تكون الألف منقلبة عن نون التأكيد الخفيفة ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ثم ذكر صفات هذا الملقى فذكر له ست صفات :

(أحدها) أنه كفار لنعم الله وحقوقه ، كفار بدينه وتوحيده وأسمائه وصفاته . كفار برسله ولاملائكته . كفار بكتبه ولقائه .

(الثانية) أنه معاند للحق يدفعه جحداً وعناداً .

(الثالثة) أنه مناع للخير ، وهذا يَعُمُّ منعه للخير الذي هو إحسان إلى نفسه من الطاعات والقرب إلى الله ، والخير الذي هو إحسان إلى الناس ، فليس فيه خير لنفسه ولا لبني جنسه كما هو حال أكثر الخلق .

(الرابعة) أنه مع منعه للخير معتد على الناس ظلوم غشوم معتد عليهم بيده ولسانه .

(الخامسة) أنه مريب أي صاحب ريبة .

(السادسة) أنه مع ذلك مشركٌ بالله قد اتخذ مع الله إلهاً آخر يعبده ويحبه ويغضب له ، ويرضى له ويحلف باسمه ، وينذر له ويوالي فيه ويعادي فيه .

---

(١) هو مجاهد بن جبر ـ ابو الحجاج ـ المكي ، تابعي مفسر. قال الذهبي : شيخ القراء والمفسرين. أخذ التفسير عن ابن عباس، قرأه عليه ثلاث مرات. توفي سنة (١٠٤ هـ ـ ٧٢٢ م).

(٢) سورة ق الآية ٢٤ .

فيختصم هو وقرينه من الشياطين ويحيل الأمر عليه ، وأنه هو الذي أطغاه وأضله ، فيقول قرينه لم يكن لي قوة أن أضله وأطغيه ، ولكن كان في ضلال بعيد اختاره لنفسه ، وآثره على الحق ، كما قال ابليس لأهل النار ﴿ **وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي** ﴾(١) وعلى هذا فالقرين هنا هو شيطانه يختصمان عند الله .

وقالت طائفة : بل قرينه ههنا هو الملك فيدعي عليه أنه زاد عليه فيما كتبه عليه وطغى ، وأنه لم يفعل ذلك كله ، وأنه أعجله بالكتابة عن التوبة ولم يمهله حتى يتوب ، فيقول الملك ما زدت في الكتابة على ما عمل ولا أعجلته عن التوبة ﴿ **ولكن كان في ضلال بعيد** ﴾(٢) فيقول الرب تعالى ﴿ **لا تختصموا لدي** ﴾(٣) وقد أخبر سبحانه عن اختصام الكفار والشياطين بين يديه في سورة الصافات والاعراف وأخبر عن اختصام الناس بين يديه في سورة الزمر . وأخبر عن اختصام أهل النار فيها في سورة الشعراء وسورة صٓ .

ثم أخبر سبحانه أنه لا يبدل القول لديه ، فقيل المراد بذلك قوله ﴿ **لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾(٤) ووعده لأهل الايمان بالجنة ، وأن هذا لا يبدل ولا يخلف . قال ابن عباس : يريد ما لوعدي خلف لأهل طاعتي ولا أهل معصيتي . قال مجاهد قد قضيت ما أنا قاض ، وهذا أصح القولين في الآية .

وفيها قول آخر أن المعنى ما يغير القول عندي بالكذب والتلبيس كما يغير عند الملوك والحكام ، فيكون المراد بالقول قول المختصمين ، وهو اختيار الفراء(٥)

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٢ .

(٢) سورة ق الآية ٢٧ .

(٣) سورة ق الآية ٢٨ .

(٤) سورة هود الآية ١١٩ .

(٥) الفراء : هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي ـ أبو زكريا ـ المعروف بالفراء . امام الكوفيين ، واعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب . وكان يقال الفراء أمير المؤمنين في النحو . ومن كلام =

وابن قتيبة[1] . قال الفراء : المعنى ما يكذب عندي لعلمي بـالغيب . وقال ابن قتيبة : أي ما يحرف القول عندي ولا يزاد فيه ولا ينقص منه، قال: لأنه قال القول عندي ولم يقل قولي . وهذا كما يقال لا يكذب عندي ، فعلى القول الأول يكون قوله ﴿ **وما أنا بظلام للعبيد** ﴾[2] من تمام قوله ﴿ **ما يبـدل القول لـدي** ﴾[3] في المعنى أي ما قلته ووعدت به لا بد من فعله . ومع هذا فهو عدل لا ظلم فيه ولا جـور . وعلى الثـاني يكون قـد وصف نفسه بـأمرين : أحـدهما أن كمـال علمه واطلاعه يمنع من تبديل القول بين يديه وترويج الباطل عليه ، وكمال عدله وغناه يمنع من ظلمه لعبيده .

ثم أخبر عن سعة جهنم وأنها كلما ألقي فيها تقول ﴿ **هل من مزيـد** ﴾[4] وأخطأ من قال إن ذلك للنفي أي ليس من مزيد . والحديث الصحيح يرد هـذا التأويل .

صفات أهل الجنة :

ثم أخبـر عن تقريب الجنـة من المتقين وأن أهلهـا هم الذين اتصفـوا بهذه الصفات الأربع :

(إحداها) أن يكون أواباً أي رجاعاً إلى الله من معصيتـه إلى طاعتـه ومن الغفلة عنه إلى ذكره قال عبيد بن عمير : الأواب الذي يتذكر ذنوبه ثم يستغفر منها

= ثعلب: لولا الفراء ما كانت اللغة. من أشهر كتبه: «معاني القرآن» و«اللغات» و«مشكـل اللغة» توفي سنة (٢٠٧ هـ ـ ٨٢٢ م).

(١) ابن قتيبة: هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ـ أبـو محمد ـ من أئمـة الأدب، ومن المصنفين المكثرين. ولي قضاء الدينور مدة فنسب اليها. من كتبه: «تأويل مختلف الحديث» و«أدب الكاتب» و«المعارف» و«الامامة والسياسة» توفي سنة ٢٧٦ هـ ـ ٨٨٩ م.

(٢) سورة ق الآية ٢٩ .

(٣) سورة ق الآية ٢٩ .

(٤) سورة ق الآية ٣٠ .

وقال مجاهد : هو الذي إذا ذكر ذنبه في الخلاء استغفر منه . وقال سعيد بن المسيب[1] : هو هو الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب .

(الثانية) أن يكون حفيظاً . قال ابن عباس : لما ائتمنه الله عليه وافترضه . وقال قتادة[2] : حافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته .

ولما كانت النفس لها قوتان ، قوة الطلب وقوة الامساك ، كان الأواب مستعملاً لقوة الطلب في رجوعه إلى الله ومرضاته وطاعته ، والحفيظ مستعملاً لقوة الحفظ في الامساك عن معاصيه ونواهيه ، فالحفيظ الممسك نفسه عما حرم عليه والأواب المقبل على الله بطاعته .

(الثالثة) قوله ﴿ **من خشى الرحمن بالغيب** ﴾[3] يتضمن الاقرار بوجوده وربوبيته وقدرته . وعلمه واطلاعه على تفاصيل أحوال العبد ، ويتضمن الاقرار بكتبه ورسله وأمره ونهيه ، ويتضمن الاقرار بوعده ووعيده ولقائه ، فلا تصح خشية الرحمن بالغيب الا بعد هذا كله .

(الرابعة) قوله ﴿ **وجاء بقلب منيب** ﴾[4] قال ابن عباس : راجع عن معاصي الله مقبل على طاعة الله . وحقيقة الإنابة عكوف القلب على طاعة الله ومحبته والاقبال عليه .

ثم ذكر سبحانه جزاء من قامت به هذه الأوصاف بقوله ﴿ **ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود، لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد** ﴾[5] .

---

(١) هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي ـ أبو محمد ـ سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة . جمع بين الحديث والفقه والورع والزهد . كان احفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب واقضيته حتى سمي راوية عمر . توفي بالمدينة سنة (٩٤ هـ ـ ٧١٣ م) .

(٢) هو قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز ـ أبو الخطاب ـ السدوسي البصري ؛ مفسر، حافظ، ضرير، اكمه . قال الامام أحمد بن حنبل : قتادة احفظ أهل البصرة، وكان مع علمه بالحديث، رأساً في العربية، ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب . توفي سنة (١١٨ هـ ـ ٧٣٦ م) .

(٣) سورة ق الآية ٣٣ .

(٤) سورة ق الآية ٣٣ .

(٥) سورة ق الآية (٣٤ ـ ٣٥) .

ثم خوفهم بأن يصيبهم من الهلاك ما أصاب من قبلهم ، وأنهم كانوا أشد منهم بطشاً ولم يدفع عنهم الهلاك بطشهم ، وأنهم عند الهلاك تقلبوا وطافوا في البلاد ، وهل يجدون محيصا ومنجى من عذاب الله؟ قال قتادة : حاص أعداء الله فوجدوا أمر الله لهم مدركاً . وقال الزجاج[1] : طوّفوا وفتشوا فلم يروا محيصا من الموت .

وحقيقة ذلك أنهم طلبوا المهرب من الموت فلم يجدوه .

ثم أخبر سبحانه أن في هذا الذي ذكر ﴿ **ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾[2] ثم أخبر أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ولم يمسه من تعب ولا اعياء تكذيباً لأعدائه من اليهود حيث قالوا انه استراح في اليوم السابع ، ثم أمر نبيه بالتأسي به سبحانه في الصبر على ما يقول أعداؤه فيه كما أنه سبحانه صبر على قول اليهود انه استراح ولا أحد أصبر على أذى يسمعه منه ، ثم أمره بما يستعين به على الصبر وهو التسبيح بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وبالليل وأدبار السجود ، فقيل هو الوتر وقيل الركعتان بعد المغرب ، والأول قول ابن عباس ، والثاني قول عمر وعلي وأبو هريرة والحسن بن علي واحدى الروايتين عن ابن عباس ، وعن ابن عباس رواية ثالثة أنه التسبيح باللسان أدبارَ الصلوات المكتوبات .

ثم ختم السورة بذكر المعاد ونداء المنادى برجوع الأرواح إلى أجسادها للحشر ، وأخبر أن هذا النداء من مكان قريب يسمعه كل أحد ﴿ **يوم يسمعون الصيحة بالحق** ﴾[3] بالبعث ولقاء الله ، يوم تشقق الأرض عنهم كما تشقق عن النبات فيخرجون سراعاً من غير مهلة ولا بطء ، ذلك حشر يسير عليه سبحانه .

---

(١) الزجاج هو ابراهيم بن السري بن سهل ـ أبو اسحاق الزجاج ـ عالم بالنحو واللغة . ولد ومات في بغداد . كان في فتوته يخرط الزجاج ومال الى النحو فعلمه المبرد . وكانت للزجاج مناقشات مع ثعلب وغيره . من كتبه «معاني القرآن» و «الاشتقاق» و «الأمالي» وغيرها توفي سنة (٣١١ هـ ـ ٩٢٣ م) .

(٢) سورة ق الآية ٣٧ .

(٣) سورة ق الآية ٤٢ .

ثم أخبر سبحانه أنه عالم بما يقول أعداؤه ، وذلك يتضمن مجازاته لهم بقولهم إذ لم يخف عليه ، وهو سبحانه يذكر علمه وقدرته لتحقيق الجزاء ثم أخبره أنه ليس بمسلط عليهم ولا قهار ، ولم يبعث ليجبرهم على الاسلام ويكرههم عليه ، وأمره أن يذكر بكلامه من يخاف وعيده ، فهو الذي ينتفع بالتذكير ، وأما من لا يؤمن بلقائه ولا يخاف وعيده ولا يرجو ثوابه فلا ينتفع بالتذكير .

(فائدة)

منزلة أهل بدر

قول النبي ﷺ لعمر: «وما يدريك أن الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[1] أشكل على كثير من الناس معناه فإن ظاهره إباحة كل الأعمال لهم وتخييرهم فيما شاءوا منها، وذلك ممتنع . فقالت طائفة منهم ابن الجوزي[2]: ليس المراد من قوله «اعملوا» الاستقبال وإنما هو للماضي ، وتقديره أي عمل كان لكم فقدْ غفرته .قال : ويدل على ذلك شيئان :

---

(١) في الصحيحين أن حاطب بن أبي بلتعة كتب إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فلما علم النبي بذلك ارسل خلف حاملة الكتاب - ومن بين من أرسلهم علي بن أبي طالب والزبير بن العوام - حتى استردوه منها. فقال رسول الله ﷺ: يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله اني كنت امرءاً ملصقاً من قريش، ولم أكن من أنفسها. وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي. وما فعلت ذلك كفراً ولا رضا بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: لقد صدقكم. فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: أنه شهد بدراً. وما يدريك لعل الله أن يكون قد أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». قال الحافظ في الفتح: واتفقوا أن البشارة المذكورة فيها يتعلق بأحكام الآخرة لا بأحكام الدنيا من إقامة الحدود وغيرها. والله أعلم.

(٢) ابن الجوزي هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي - أبو الفرج - علامة عصره في التاريخ، والحديث، ولد في بغداد سنة (٥٠٨ هـ - ١١١٤ م) له نحو ثلاث مئة مصنف منها: «تلقيح فهوم أهل الآثار، في مختصر السير والأخبار» و«الأذكياء وأخبارهم» و«مناقب عمر بن عبد العزيز» و«المدهش» في المواعظ وغرائب الاخبار و«تلبيس إبليس» وغيرها توفي سنة (٥٩٧ هـ - ١٢٠١ م).

(أحدهما): أنه لو كان للمستقبل كان جوابه قوله: فسأغفر لكم.

(والثاني) أنه كان يكون إطلاقاً في الذنوب ولا وجه لذلـك.

وحقيقة هذا الجواب إني قد غفرت لكم بهذه الغزوة ما سلف من ذنوبكم، لكنه ضعيف من وجهين:

(أحدهما) أن لفظ «اعملوا» يأباه فإنه للاستقبال دون الماضي. وقوله «قـد غفرت لكم» لا يوجب أن يكون اعملوا مثله، فإن قوله «قد غفرت» تحقيق لوقوع المغفـرة في المستقبل، كقـوله ﴿أتى أمـر الله﴾[1] ـ ﴿وجاء ربـك﴾[2] ونـظائـره.

(الثاني)أن نفس الحديث يرده،فإن سببه قصة حاطب وتجسسه على النبيﷺ وذلك ذنب واقع بعد غزوة بدر[3] لا قبلها وهو سبب الحديث فهو مراد منه قطعاً،فالذي نظن في ذلك ـ والله أعلم ـ أن هذا خطاب لقوم قد علم الله سبحانه أنهم لا يفارقون دينهم بل يموتون على الإسلام وإنهم قد يقارفون بعض ما يقارفه غيرهم من الذنوب[4]، ولكن لا يتركهم سبحانه مصرين عليها، بل يوفقهم لتوبة نصوح واستغفار وحسنات تمحو أثـر ذلك. ويكـون تخصيصهم بهذا دون غيرهم لأنه قد تحقق ذلك فيهم وأنهم مغفور لهم. ولا يمنع ذلك كـون المغفرة حصلت بأسباب تقوم بهم كما لا يقتضي ذلك أن يعـطلوا الفرائض وثـوقاً بالمغفرة، فلو كانت قد حصلت بدون الاستمرار على القيام بالأوامر لما احتاجوا بعد ذلك إلى صلاة ولا صيام ولا حج ولا زكاة ولا جهاد. وهـذا محال. ومن أوجب الواجبات التوبة بعد ذلك. فضمان المغفرة لا يوجب تعطيل أسباب المغفرة. ونظير هذا قوله في الحديث الآخر «أذنب عبد ذنباً فقال: أي رب أذنبت ذنباً فأغفره لي. فغفر له، ثم مكث ما شاء الله ان يمكث ثم أذنب ذنباً آخر، فقال: أي رب أصبت ذنباً فاغفره لي. فغفر له. ثم مكث ما شـاء الله أن يمكث ثم أذنب ذنباً فقال: رب أصبت ذنباً فاغفره لي فقال الله: «علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به،

---

(١) سورة النحل الآية ١. (٢) سورة الفجر الآية ٢٢.

(٣) حصلت هذه القصة بعد غزوة بدر بست سنوات.

(٤) يقارفون ما يقارفه غيرهم من الذنوب: أي يرتكبون ما يرتكبه غيرهم من الذنوب.

فقد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء»[1] فليس في هذا إطلاق وإذن منه سبحانه له في المحرمات والجرائم وإنما يدل على أنه يغفر له ما دام كذلك إذا أذنب تاب.

واختصاص هذا العبد بهذا لأنه قد علم أنه لا يصر على ذنب وأنه كلما أذنب تاب. حكم يعم كل من كانت حاله حاله، لكن ذلك العبد مقطوع له بذلك كما قطع به لأهل بدر، وكذلك كل من بشره رسول الله ﷺ بالجنة أو أخبره بأنه مغفور له، لم يفهم منه هو ولا غيره من الصحابة إطلاق الذنوب والمعاصي له، ومسامحته بترك الواجبات، بل كان هؤلاء أشد اجتهاداً وحذراً وخوفاً بعد البشارة منهم قبلها كالعشرة المشهود لهم بالجنة. وقد كان الصديق شديد الحذر والمخافة. وكذلك عمر فإنهم علموا أن البشارة المطلقة مقيدة بشروطها، والاستمرار عليها إلى الموت ومقيدة بانتفاء موانعها، ولم يفهم أحد منهم من ذلك الاطلاق: الاذن فيما شاءوا من الأعمال.

(فائدة جليلة)
نظرات في تفسير الآية
﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً﴾

قوله تعالى: ﴿**هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور**﴾[2]. أخبر سبحانه أنه جعل الأرض ذلولا منقادة للوطء عليها وحفرها وشقها والبناء عليها، ولم يجعلها مستصعبة ممتنعة على من أراد ذلك منها، وأخبر سبحانه أنه جعلها مهاداً وفراشاً وبساطاً وقراراً وكفاتاً[3]، وأخبر أنه دحاها وطحاها وأخرج منها ماءها ومرعاها، وثبتها بالجبال ونهج فيها الفجاج والطرق، وأجرى فيها الأنهار والعيون. وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، ومن بركتها أن الحيوانات كلها وأرزاقها وأقواتها تخرج منها، ومن بركتها أنك تودع فيها الحب

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) سورة الملك الآية ١٥ .

(٣) الكفات: الموضع الذي يكفت فيه الشيء أو يضم (القاموس وشرحه مادة كفت)

فتخرجه لك أضعاف أضعاف ما كان، ومن بركتها أنها تحمل الأذى على ظهرها وتخرج لك من بطنها أحسن الأشياء وأنفعها فتواري منه كل قبيح وتخرج له كل مليح، ومن بركتها أنها تستر قبائح العبد وفضلات بدنه وتواريها وتضمه وتؤويه، وتخرج له طعامه وشرابه فهي أحمل شيء للأذى وأعوده بالنفع. فلا كان من التراب خير منه وأبعد من الأذى وأقرب إلى الخير.

والمقصود أنه سبحانه جعل لنا الأرض كالجمل المذلول الذلول الذي كيفما يقاد ينقاد. وحسن التعبير بمناكبها عن طرقها وفجاجها لما تقدم من وصفها بكونها ذلولاً. فالماشي عليها يطأ على مناكبها وهو أعلى شيء فيها. ولهذا فسرت المناكب بالجبال كمناكب الإنسان وهي أعاليه. قالوا: وذلك تنبيه على أن المشي في سهولها أيسر وقالت طائفة: بل المناكب الجوانب والنواحي، ومنه مناكب الإنسان لجوانبه والذي يظهر أن المراد بالمناكب الأعالي. وهذا الوجه الذي يمشي عليه الحيوان هو العالي من الأرض دون الوجه المقابل له، فإن سطح الكرة أعلاها، والمشي إنما يقع في سطحها، وحسن التعبير عنه بالمناكب لما تقدم من وصفها بأنها ذلول ثم أمرهم أن يأكلوا من رزقه الذي أودعه فيها فذللها لهم ووطأها وفتق فيها السبل والطرق التي يمشون فيها وأودعها رزقهم، فذكر تهيئة المسكن للانتفاع والتقلب فيه بالذهاب والمجيء والأكل مما أودع فيه للساكن. ثم نبه بقوله ﴿وإليه النشور﴾ على أنا في هذا المسكن غير مستوطنين ولا مقيمين، بل دخلناه عابري سبيل، فلا يحسن أن نتخذه وطناً ومستقراً. وإنما دخلناه لنتزود منه إلى دار القرار، فهو منزل عبور لا مستقر حبور، ومعبر وممر لا وطن ومستقر.

فتضمنت الآية الدلالة على ربوبيته ووحدانيته وقدرته وحكمته ولطفه والتذكير بنعمه وإحسانه، والتحذير من الركون إلى الدنيا واتخاذها وطناً ومستقراً، بل نسرع فيها السير إلى داره وجنته، فللّه ما في ضمن هذه الآية من معرفته وتوحيده والتذكير بنعمه، والحث على السير إليه، والاستعداد للقائه والقدوم عليه، والإعلام بأنه سبحانه يطوي هذه الدار كأن لم تكن، وأنه يحيي أهلها بعد ما أماتهم وإليه النشور.

(فائدة)

في ظلال سورة الفاتحة

للانسان قوتان: قوة علمية نظرية، وقوة عملية إرادية، وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوتيه العلمية والإرادية، واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه ومعرفة أسمائه وصفاته ومعرفة الطريق التي توصل إليه. ومعرفة آفاتها ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها، فبهذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية، وأعلم الناس أعرفهم بها وأفقههم فيها.

واستكمال القوة العملية الارادية لا تحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد والقيام بها اخلاصاً وصدقاً ونصحاً وإحساناً ومتابعة وشهوداً لمنته عليه. وتقصيره هو في أداء حقه، فهو مستحيي من مواجهته بتلك الخدمة لعلمه أنها دون ما يستحقه عليه ودون دون ذلك، وأنه لا سبيل له إلى استكمال هاتين القوتين إلا بمعونته فهو مضطر إلى أن يهديه الصراط المستقيم الذي هدى إليه أولياءه وخاصته، وأن يجنبه الخروج عن ذلك الصراط إما بفساد في قوته العلمية فيقع في الضلال، وإما في قوته العملية فيوجب له الغضب.

فكمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمجموع هذه الأمور. وقد تضمنتها سورة الفاتحة وانتظمتها أكمل انتظام فإن قوله ﴿**الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين**﴾ يتضمن الأصل الأول وهو معرفة الرب تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله. والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنى وهي اسم الله والرب والرحمن. فاسم الله متضمن لصفات الألوهية. واسم الرب متضمن لصفات الربوبية. واسم الرحمن متضمن لصفات الاحسان والجود والبر. ومعاني أسمائه تدور على هذا.

وقوله ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ يتضمن معرفة الطريق الموصلة إليه وانها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه واستعانته على عبادته.

وقوله ﴿**إهدنا الصراط المستقيم**﴾ يتضمن بيان أن العبد لا سبيل له إلى

سعادته إلا باستقامته على الصراط المستقيم. وأنه لا سبيل له إلى الاستقامة إلا بهداية ربه له كما لا سبيل له إلى عبادته إلا بمعونته فلا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط إلا بهدايته.

وقوله ﴿**غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾ يتضمن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم. وأن الانحراف إلى أحد الطرفين انحراف إلى الضلال الذي هو فساد العلم والاعتقاد والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب الذي سببه فساد القصد والعمل. فأول السورة رحمة وأوسطها هداية وآخرها نعمة. وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية. وحظه منها على قدر حظه من الرحمة. فعاد الأمر كله إلى نعمته ورحمته. والنعمة والرحمة من لوازم ربوبيته، فلا يكون إلا رحيماً منعماً وذلك من موجبات إلهيته فهو الإله الحق وإن جحده الجاحدون وعدل به المشركون.

فمن تحقق بمعاني الفاتحة علماً ومعرفة وعملاً وحالاً فقد فاز من كماله بأوفر نصيب وصارت عبوديته عبودية الخاصة الذين ارتفعت درجتهم عن عوام المتعبدين والله المستعان.

(فائدة)

طريقان لمعرفته تعالى

الرب تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين:

(**أحدهما**): النظر في مفعولاته.

(**والثاني**): التفكر في آياته وتدبرها، فتلك آياته المشهودة. وهذه آياته المسموعة المعقولة، فالنوع الأول كقوله ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس**﴾[1] إلى آخرها وقوله: ﴿**ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي**

(١) سورة البقرة الآية ١٦٤.

الألباب﴾[١] وهو كثير في القرآن. والثاني كقوله: **﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾**[٢] وقوله: **﴿أفلم يدبروا القول﴾**[٣] وقوله: **﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته﴾**[٤] وهو كثير أيضاً.

فأما المفعولات فإنها دالة على الأفعال، والأفعال دالة على الصفات، فإن المفعول يدل على فاعل فعله، وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه لاستحالة صدور الفعل الاختياري من معدوم أو موجود لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولا إرادة. ثم ما في المفعولات من التخصيصات المتنوعة دال على إرادة الفاعل وأن فعله ليس بالطبع بحيث يكون واحداً غير متكرر. وما فيها من المصالح والحكم والغايات المحمودة دال على حكمته تعالى. وما فيها من النفع والاحسان والخير دال على رحمته، وما فيها من البطش والانتقام والعقوبة دال على غضبه، وما فيها من الإكرام والتقريب والعناية دال على محبته. وما فيها من الاهانة والابعاد والخذلان دال على بغضه ومقته، وما فيها من ابتداء الشيء في غاية النقص والضعف ثم سوقه إلى تمامه ونهايته دال على وقوع المعاد. وما فيها من أحوال النبات والحيوان وتصرف المياه دليل على إمكان المعاد، وما فيها من ظهور آثار الرحمة والنعمة على خلقه دليل على صحة النبوات وما فيها من الكمالات التي لو عدمتها كانت ناقصة دليل على أن معطي تلك الكمالات أحق بها، فمفعولاته من أدل شيء على صفاته. وصدق ما أخبرت به رسله عنه.

فالمصنوعات شاهدة تصدق الآيات المسموعات منبهة على الاستدلال بالآيات المصنوعات. قال تعالى: **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾**[٥] أي أن القرآن حق. فأخبر أنه لا بد من أن يريهم من آياته المشهودة ما يبين لهم أن آياته المتلوة حق. ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٠.
(٢) سورة النساء الآية ٨٢.
(٣) سورة المؤمنون الآية ٦٨.
(٤) سورة ص الآية ٢٩.
(٥) سورة فصلت الآية ٥٣.

بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله فآياته شاهدة بصدقه وهو شاهد بصدق رسوله بآياته فهو الشاهد والمشهود له، وهو الدليل والمدلول عليه. فهو الدليل بنفسه على نفسه كما قال بعض العارفين: كيف أطلب الدليل على ما هو دليل لي على كل شيء، فأي دليل طلبته عليه فوجوده أظهر منه. لهذا قال الرسل لقومهم ﴿أفي الله شك﴾[1] فهو أعرف من كل معروف وأبين من كل دليل. فالأشياء عرفت به في الحقيقة وإن كان عرف بها في النظر والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه.

(فائدة)

في المسند وصحيح أبي حاتم من حديث عبد الله بن مسعود قال: «قال رسول الله ﷺ ما أصاب عبداً هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي. ونور صدري. وجلاء حزني. وذهاب همي وغمي، إلَّا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحاً. قالوا: يا رسول الله أفلا نتعلمهن؟ قال: بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن».

فتضمن هذا الحديث العظيم اموراً من المعرفة والتوحيد والعبودية: منها أن الداعي به صدّر سؤاله بقوله أني عبدك ابن عبدك ابن أمتك. وهذا يتناول من فوقه من آبائه وأمهاته إلى أبويه آدم وحواء. وفي ذلك تملق له واستخذاء بين يديه واعترافه بأنه مملوكه وآباؤه مماليكه. وأن العبد ليس له غير باب سيده وفضله وإحسانه. وأن سيده إن أهمله وتخلى عنه هلك ولم يؤوه أحد. ولم يعطف عليه بل يضيع أعظم ضيعة: وتحت هذا الاعتراف أني لا غنى بي عنك طرفة عين، وليس

(١) سورة إبراهيم الآية ١٠.

لي من أعوذ به وألوذ به غير سيدي الذي أنا عبده. وفي ضمن ذلك الاعتراف بأنه مربوب مدبر مأمور منهي، إنما يتصرف بحكم العبودية لا بحكم الاختيار لنفسه. فليس هذا شأن العبد، بل شأن الملوك والأحرار وأما العبيد فتصرفهم على محض العبودية، فهؤلاء عبيد الطاعة المضافون إليه سبحانه في قوله: **﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾**(١) وقوله: **﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً﴾**(٢) ومن عداهم عبيد القهر والربوبية، فإضافتهم إليه كإضافة سائر البيوت إلى ملكه وإضافة أولئك كإضافة البيت الحرام إليه. وإضافة ناقته إليه وداره التي هي الجنة إليه، وإضافة عبودية رسوله إليه بقوله: **﴿وانه لما قام عبد الله يدعوه﴾**(٣).

معنى العبودية

وفي التحقيق بمعنى قوله (إني عبدك) التزام عبوديته من الذل والخضوع والانابة وامتثال أمر سيده واجتناب نهيه ودوام الافتقار إليه، واللجأ إليه والاستعانة به والتوكل عليه وعياذ العبد به ولياذه به وأن لا يتعلق قلبه بغيره محبة وخوفاً ورجاء. وفيه أيضاً أني عبد من جميع الوجوه صغيراً وكبيراً، حياً وميتاً. مطيعاً وعاصياً. معافى ومبتلى بالروح والقلب واللسان والجوارح، وفيه أيضاً أن مالي ونفسي ملك لك، فإن العبد وما يملك لسيده. وفيه أيضاً أنك أنت الذي مننت عليّ بكل ما أنا فيه من نعمة، فذلك كله من انعامك على عبدك.

وفيه أيضاً أني لا أتصرف فيما خولتني من مالي ونفسي إلا بأمرك كما لا يتصرف العبد إلا بإذن سيده، واني لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فإن صح له شهود ذلك فقد قال اني عبدك حقيقة.

ثم قال ناصيتي بيدك أي أنت المتصرف فيَّ تصرفني كيف تشاء. لست أنا

(١) سورة الحجر الآية ٤٢.

(٢) سورة الفرقان الآية ٦٣.

(٣) سورة الجن الآية ١٩.

المتصرف في نفسي، وكيف يكون له في نفسه تصرف من نفسه بيد ربه وسيده وناصيته بيده وقلبه بين إصبعين من أصابعه، وموته وحياته وسعادته وشقاوته وعافيته وبلاؤه كله إليه سبحانه ليس إلى العبد منه شيء، بل هو في قبضة سيده أضعف من مملوك ضعيف حقير ناصيته بيد سلطان قاهر مالك له تحت تصرفه وقهره بل الأمر فوق ذلك.

ومتى شهد العبد أن ناصيته ونواصي العباد كلها بيد الله وحده يصرفهم كيف يشاء لم يخفهم بعد ذلك ولم يرجهم ولم ينزلهم منزلة المالكين، بل منزلة عبيد مقهورين مربوبين، المتصرف فيهم سواهم، والمدبر لهم غيرهم، فمن شهد نفسه بهذا المشهد صار فقره وضرورته إلى ربه وصفاً لازماً له، ومتى شهد الناس كذلك لم يفتقر إليهم ولم يعلق أمله ورجاءه بهم، فاستقام توحيده وتوكله وعبوديته، ولهذا قال هود لقومه **﴿إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم﴾**(١).

وقوله «ماض فيّ حكمك عدل في قضاؤك» تضمن هذا الكلام أمرين:

أحدهما: مضاء حكمه في عبده.

والثاني: يتضمن حمده وعدله وهو سبحانه له الملك وله الحمد. وهذا معنى قول نبيه هود: **﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾**(٢) ثم قال: **﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾**(٣) أي مع كونه مالكاً قاهراً متصرفاً في عباده نواصيهم بيده فهو على صراط مستقيم، وهو العدل الذي يتصرف به فيهم فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله وقضائه وقدره وأمره ونهيه وثوابه وعقابه فخبره كله صدق وقضاؤه كله عدل وأمره كله مصلحة. والذي نهى عنه كله مفسدة وثوابه لمن يستحق الثواب بفضله ورحمته، وعقابه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته.

---

(١) سورة هود الآية ٥٦.

(٢) سورة هود الآية ٥٦.

(٣) سورة هود الآية ٥٦.

وفـرق بين الحكم والقضـاء وجعل المضـاء للحكم والعدل للقضـاء، فإن حكمه سبحانه يتناول حكمه الديني الشـرعي وحكمه الكـوني القدري والنـوعان نافذان في العبد ماضيان فيه، وهو مقهور تحت الحكمين قد مضيا فيه ونفذا فيه. شاء أم أبى، لكن الحكم الكوني لا يمكنه مخالفته. وأما الديني الشرعي فقد يخالفه.

ولما كان القضاء هو الاتمام والاكمال، وذلك إنما يكون بعد مضيه ونفوذه قال «عدل فيَّ قضاؤك» أي الحكم الذي أكملته وأتممتـه ونفذتـه في عبدك عـدل منك فيه، وأما الحكم فهو ما يحكم به سبحانه وقد يشاء تنفيذه وقد لا ينفذه، فإن كان حكماً دينياً فهو ماض في العبد وإن كان كونياً فان نفذه سبحانه مضى فيـه وان لم ينفذه اندفع عنه، فهو سبحانه يقضي ما يقضي به، وغيره قد يقضي بقضاء ويقدر أمراً ولا يستطيع تنفيذه. وهو سبحانه يقضي ويمضي فله القضاء والامضاء.

وقوله: «عدل فيَّ قضاؤك» يتضمن جميع أقضيته في عبده من كل الوجوه من صحة وسقم. وغنى وفقر. ولذة وألم. وحياة وموت. وعقوبة وتجاوز وغير ذلك قال تعالى: **﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾**[1] وقال **﴿وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الانسان كفور﴾**[2] فكل ما يقضي على العبد فهو عدل فيه.

(فإن قيل): فالمعصية عندكم بقضائه وقدره، فما وجه العدل في قضائهـا؟ فان العدل في العقوبة عليها غير ظاهر، قيل هذا سؤال له شأن ومن أجله زعمت طائفة أن العدل هو المقدور والظلم ممتنع لذاته، قالوا لأن الظلم هـو التصرف في ملك الغير والله له كل شيء، فلا يكون تصرفه في خلقه إلا عدلاً.

وقالت طائفة بل العدل أنه لا يعاقب على ما قضاه وقـدره، فلما حسن منه العقوبة على الذنب علم أنه ليس بقضائـه وقدره فيكـون العدل هـو جزاؤه عـلى

---

(١) سورة الشورى الآية ٣٠.

(٢) سورة الشورى الآية ٤٨.

الذنب بالعقوبة والذم اما في الدنيا واما في الآخرة، وصعب على هؤلاء الجمع بين العدل وبين القدر، فزعموا أن من أثبت القدر لم يمكنه أن يقول بالعدل. ومن قال بالعدل لم يمكنه أن يقول بالقدر، كما صعب عليهم الجمع بين التوحيد وإثبات الصفات، فزعموا أنه لا يمكنهم إثبات التوحيد إلا بإنكار الصفات فصار توحيدهم تعطيلاً وعدلهم تكذيباً بالقدر.

وأما أهل السنة فهم مثبتون للأمرين، والظلم عندهم هو وضع الشيء في غير موضعه كتعذيب المطيع ومن لا ذنب له، وهذا قد نزّه الله نفسه عنه في غير موضع من كتابه، وهو سبحانه وان أضل من شاء وقضى بالمعصية والغى على من شاء فذلك محض العدل فيه لأنه وضع الاضلال والخذلان في موضعه اللائق به: كيف ومن أسمائه الحسنى ﴿العدل﴾ الذي كل أفعاله وأحكامه سداد وصواب وحق، وهو سبحانه قد أوضح السبل، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب وأزاح العلل، ومكن من أسباب الهداية والطاعة بالاسماع والابصار والعقول، وهذا عدله. ووفق من شاء بمزيد عناية وأراد من نفسه أن يعينه ويوفقه فهذا فضله، وخذل من ليس بأهل لتوفيقه وفضله وخلى بينه وبين نفسه، ولم يرد سبحانه من نفسه أن يوفقه، فقطع عنه فضله ولم يحرمه عدله. وهذا نوعان:

(أحدهما): ما يكون جزاء منه للعبد على إعراضه عنه وإيثار عدوه في الطاعة والموافقة عليه وتناسي ذكره وشكره فهو أهل أن يخذله ويتخلى عنه.

(والثاني): أن لا يشاء له ذلك ابتداء لما يعلم منه أنه لا يعرف قدر نعمة الهداية ولا يشكره عليه، ولا يثني عليه بها ولا يحبه فلا يشاؤها له لعدم صلاحية محله. قال تعالى: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا. أليس الله بأعلم بِٱلشَّاكِرينَ﴾(١) وقال: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾(٢) فإذا قضى على هذه النفوس بالضلال والمعصية كان ذلك محض

---

(١) سورة الانعام الآية ٥٣.

(٢) سورة الانفال الآية ٢٣.

العدل، كما إذا قضى على الحية بأن تقتل وعلى العقرب، وعلى الكلب العقور كان ذلك عدلاً فيه، وإن كان مخلوقاً على هذه الصفة. وقد استوفينا الكلام في هذا في كتابنا الكبير في القضاء والقدر.

والمقصود أن قوله ﷺ «ماض فيَّ حكمك عدل فيَّ قضاؤك» رد على الطائفتين: القدرية الذين ينكرون عموم أقضية الله في عبده ويخرجون أفعال العباد عن كونها بقضائه وقدره، ويردون القضاء الى الأمر والنهي. وعلى الجبرية الذين يقولون كل مقدور عدل فلا يبقى لقوله «عدل في قضاؤك» فائدة، فإن العدل عندهم كل ما يمكن فعله والظلم هو المحال لذاته، فكأنه قال ماض ونافذ فيَّ قضاؤك، وهذا هو الأول بعينه.

وقوله: «أسألك بكل اسم» إلى آخره توسل إليه بأسمائه كلها ما علم العبد منها وما لم يعلم، وهذه أحب الوسائل إليه، فإنها وسيلة بصفاته وأفعاله التي هي مدلول أسمائه.

وقوله «أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري» الربيع المطر الذي يحيي الأرض. شبه القرآن به لحياة القلوب به وكذلك شبهه الله بالمطر وجمع بين الماء الذي تحصل به الحياة والنور الذي تحصل به الاضاءة والاشراق، كما جمع بينهما سبحانه في قوله: ﴿**أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية**﴾[1] وفي قوله: ﴿**مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم**﴾[2] ثم قال: ﴿**أو كصيب من السماء**﴾[3] وفي قوله: ﴿**الله نور السموات والأرض مثل نوره**﴾[4] الآيات ثم قال: ﴿**ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه**﴾[5] الآيات، فتضمن الدعاء أن يحيي قلبه بربيع القرآن وأن ينور به صدره فتجتمع له الحياة والنور، قال تعالى:

---

(١) سورة الرعد الآية ١٧.
(٢) سورة البقرة الآية ١٧.
(٣) سورة البقرة الآية ١٩.
(٤) سورة النور الآية ٣٥.
(٥) سورة النور الآية ٤٣.

﴿أَوَ من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾[1].

ولما كان الصدر أوسع من القلب كان النور الحاصل له يسري منه إلى القلب لأنه قد حصل لما هو أوسع منه، ولما كانت حياة البدن والجوارح كلها بحياة القلب تسري الحياة منه إلى الصدر ثم إلى الجوارح سأل الحياة له بالربيع الذي هو مادتها، ولما كان الحزن والهم والغم يضاد حياة القلب واستنارته سأل أن يكون ذهابها بالقرآن فإنها أحرى أن لا تعود. وأما إذا ذهبت بغير القرآن من صحة أو دنيا أو جاه أو زوجة أو ولد فانها تعود بذهاب ذلك. والمكروه الوارد على القلب إن كان من أمر ماض أحدث الحزن، وان كان من مستقبل أحدث الهم، وإن كان من أمر حاضر أحدث الغم. والله أعلم.

(فائدة)

انزه الموجودات عرش الرحمن جل جلاله

أنزه الموجودات وأظهرها وأنورها وأشرفها وأعلاها ذاتاً وقدراً وأوسعها عرش الرحمن جل جلاله، ولذلك صلح لاستوائه عليه، وكل ما كان أقرب إلى العرش كان أنور وأنزه وأشرف مما بعد عنه، ولهذا كانت جنة الفردوس أعلى الجنان وأشرفها وأنورها وأجلها لقربها من العرش إذ هو سقفها. وكل ما بعد عنه كان أظلم وأضيق، ولهذا كان أسفل سافلين شر الأمكنة وأضيقها وأبعدها من كل خير. وخلق الله القلوب وجعلها محلاً لمعرفته ومحبته وإرادته فهي عرش المثل الأعلى الذي هو معرفته ومحبته وإرادته. قال تعالى: ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم﴾[2] وقال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه، وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو

---

(١) سورة الانعام الآية ١٢٢

(٢) سورة النحل الآية ٦٠.

العزيز الحكيم﴾[1] وقال تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾[2] فهذا من المثل الأعلى وهو مستو على قلب المؤمن فهو عرشه، وان لم يكن أطهر الأشياء وأنزهها وأطيبها وأبعدها من كل دنس وخبث لم يصلح لاستواء المثل الأعلى عليه معرفة ومحبة وإرادة فاستوى عليه مثل الدنيا الأسفل ومحبتها وإرادتها والتعلق بها، فضاق وأظلم وبعد من كماله وفلاحه حتى تعود القلوب على قلبين: قلب هو عرش الرحمن، ففيه النور والحياة والفرح والسرور والبهجة وذخائر الخير. وقلب هو عرش الشيطان فهناك الضيق والظلمة والموت والحزن والغم والهم فهو حزين على ما مضى، مهموم بما يستقبل مغموم في الحال.

وقد روى الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح، قالوا: فما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: الانابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله» والنور الذي يدخل القلب إنما هو من آثار المثل الأعلى، فلذلك ينفسح وينشرح، وإذا لم يكن فيه معرفة الله ومحبته فحظه الظلمة والضيق.

(فائدة)

تأمل خطاب القرآن تجد ملكاً له الملك كله وله الحمد كله، أزمة الأمور كلها بيده ومصدرها منه ومردها إليه، مستوياً على سرير ملكه لا تخفى عليه خافية في أقطار مملكته، عالماً بما في نفوس عبيده مطلعاً على أسرارهم وعلانيتهم منفرداً بتدبير المملكة، يسمع ويرى ويعطي ويمنع ويثيب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق ويميت ويحيي ويقدر ويقضي ويدبر، الأمور نازلة من عنده دقيقها وجليلها، وصاعدة إليه لا تتحرك في ذرة إلا باذنه ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، فتأمل كيف تجده يثني على نفسه ويمجد نفسه ويحمد نفسه، وينصح عباده ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم، ويرغبهم فيه ويحذرهم مما فيه هلاكهم ويتعرف إليهم بأسمائه

---

(١) سورة الروم الآية ٢٧.

(٢) سورة الشورى الآية ١١.

وصفاته، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه. فيذكرهم بنعمه عليهم ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها ويحذرهم من نقمه ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه وما أعد لهم من العقوبة إن عصوه ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه وكيف كانت عاقبة هؤلاء، ويثني على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم، ويذم أعداءه بسيء أعمالهم وقبيح صفاتهم. ويضرب الأمثال وينوع الأدلة والبراهين، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة ويصدق الصادق ويكذب الكاذب، ويقول الحق ويهدي السبيل، ويدعو إلى دار السلام ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها ويحذر من دار البوار ويذكر عذابها وقبحها وآلامها، ويذكر عباده وفقرهم إليه، وشدة حاجتهم إليه من كل وجه، وانهم لا غنى لهم عنه طرفة عين. ويذكر غناه عنهم وعن جميع الموجودات وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه بنفسه، وأنه لا ينال أحد ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته. ولا ذرة من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته، ويشهد من خطابه عتابه لأحبابه ألطف عتاب، وأنه مع ذلك مقيل عثراتهم وغافر زلاتهم. ومقيم أعذارهم. ومصلح فسادهم. والدافع عنهم، والمحامي عنهم والناصر لهم، والكفيل بمصالحهم والمنجي لهم من كل كرب، والموفي لهم بوعده، وأنه وليهم الذي لا ولي لهم سواه، فهو مولاهم الحق ونصيرهم على عدوهم فنعم المولى ونعم النصير.

فإذا شهدت القلوب من القرآن ملكاً عظيماً رحيماً جواداً جميلاً هذا شأنه. فكيف لا تحبه وتنافس في القرب منه وتنفق أنفاسها في التودد إليه، ويكون أحب إليها من كل ما سواه، ورضاه آثر عندها من رضا كل ما سواه وكيف لا تلهج بذكره ويصير حبه والشوق إليه والانس به هو غذائها وقوتها ودواؤها بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت، ولم تنتفع بحياتها.

(فائدة)

قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده

قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده. وهذا كما أنه في الذوات والأعيان فكذلك هو في الاعتقادات والارادات، فإذا كان القلب ممتلئاً

بالباطل اعتقاداً ومحبة لم يبق فيه لاعتقاد الحق ومحبته موضع، كما أن اللسان إذا اشتغل بالتكلم بما لا ينفع لم يتمكن صاحبه من النطق بما ينفعه إلا إذا فرغ لسانه من النطق بالباطل، وكذلك الجوارح إذا اشتغلت بغير الطاعة لم يمكن شغلها بالطاعة إلا إذا فرغها من ضدها. فكذلك القلب المشغول بمحبة غير الله وإرادته والشوق إليه والانس به، لا يمكن شغله بمحبة الله وإرادته وحبه والشوق إلى لقائه إلا بتفريغه من تعلقه بغيره. ولا حركة اللسان بذكره والجوارح بخدمته إلا إذا فرغها من ذكر غيره وخدمته، فإذا امتلأ القلب بالشغل بالمخلوق والعلوم التي لا تنفع لم يبق فيها موضع للشغل بالله ومعرفة أسمائه وصفاته وأحكامه.

وسر ذلك أن إصغاء القلب كإصغاء الاذن. فإذا صغى إلى غير حديث الله لم يبق فيه إصغاء ولا فهم لحديثه. كما إذا مال إلى غير محبة الله لم يبق فيه ميل إلى محبته. فإذا نطق القلب بغير ذكره لم يبق فيه محل للنطق بذكره كاللسان. ولهذا في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعراً» فبين أن الجوف يمتلىء بالشعر فكذلك يمتلىء بالشبه والشكوك والخيالات والتقديرات التي لا وجود لها. والعلوم التي لا تنفع. والمفاكهات والمضحكات والحكايات. ونحوها وإذا امتلأ القلب بذلك جاءته حقائق القرآن والعلم الذي به كماله وسعادته فلم تجد فيه فراغاً لها ولا قبولاً فتعدته وجاوزته إلى محل سواه. كما إذا بذلت النصيحة لقلب ملآن من ضدها لا منفذ لها فيه فانه لا يقبلها ولا تلج فيه. لكن تمر مجتازة لا مستوطنة ولذلك قيل:

نزه فؤادك من سوانا تلقنا ... فجنابنا حل لكل منزه
والصبر طلسم لكنز وصالنا ... من حل ذا الطلسم فاز بكنزه

وبالله التوفيق.

(فائدة)

قوله تعالى: ﴿ألهاكم التكاثر﴾[1] إلى آخرها. أخلصت هذه السورة للوعد

(١) سورة التكاثر الآية ١.

والوعيد والتهديد. وكفى بها موعظة لمن عقلها. فقوله تعالى: ﴿ألهاكم﴾ أي شغلكم على وجه لا تعذرون فيه. فإن الإلهاء عن الشيء هو الاشتغال عنه. فان كان بقصد فيه فهو محل التكليف. وان كان بغير قصد كقوله ﷺ في الخميصة: «أنها ألهتني آنفاً عن صلاتي»[1] كان صاحبه معذوراً وهو نوع من النسيان وفي الحديث «فلها ﷺ عن الصبي» أي ذهل عنه، ويقال (لها) بالشيء أي اشتغل به ولها عنه إذا انصرف عنه. واللهو للقلب واللعب للجوارح ولهذا يجمع بينهما، ولهذا كان قوله ﴿ألهاكم التكاثر﴾ أبلغ في الذم من شغلكم فإن العامل قد يستعمل جوارحه بما يعمل وقلبه غير لاه به، فاللهو هو ذهول وإعراض، والتكاثر تفاعل من الكثرة، أي مكاثرة بعضكم لبعض، واعرض عن ذكر المتاكثر به إرادة لإطلاقه وعمومه، وان كل ما يكاثر به العبد غيره سوى طاعة الله ورسوله وما يعود عليه بنفع معاده فهو داخل في هذه التكاثر. فالتكاثر كل شيء من مال أو جاه أو رياسة أو نسوة أو حديث أو علم، ولا سيما إذا لم يحتج إليه والتكاثر في الكتب والتصانيف وكثرة المسائل وتفريعها وتوليدها والتكاثر أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره وهذا مذموم إلا فيما يقرب إلى الله. فالتكاثر فيه منافسة في الخيرات ومسابقة إليها. وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن الشخير أنه انتهى إلى النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿ألهاكم التكاثر﴾ قال: «يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت. أو لبست فأبليت».

(تنبيه)

من لم ينتفع بعينه لم ينتفع بأذنه، للعبد ستر بينه وبين الله وستر بينه وبين الناس، فمن هتك الستر الذي بينه وبين الله هتك الله الستر الذي بينه وبين الناس.

للعبد رب هو ملاقيه. وبيت هو ساكنه. فينبغي له أن يسترضي ربه قبل لقائه ويعمر بيته قبل انتقاله إليه.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

إضاعة الوقت أشد من الموت، لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها.

الدنيا من أولها إلى آخرها لا تساوي غم ساعة فكيف بغم العمر.

محبوب اليوم يعقب المكروه غداً، ومكروه اليوم يعقب المحبوب غداً.

أعظم الربح في الدنيا أن تشغل نفسك كل وقت بما هو أولى بها وأنفع لها في معادها كيف يكون عاقلاً من باع الجنة بما فيها بشهوة ساعة.

يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شيئين: بكاؤه على نفسه وثناؤه على ربه.

المخلوق إذا خفته استوحشت منه وهربت منه، والرب تعالى إذا خفته أنست به وقربت إليه.

لو نفع العلم بلا عمل لما ذم الله سبحانه أحبار أهل الكتاب. ولو نفع العمل بلا إخلاص لما ذم المنافقين.

دافع الخطرة، فإن لم تفعل صارت فكرة فدافع الفكرة، فان لم تفعل صارت شهوة فحاربها، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة. فان لم تدافعها صارت فعلاً. فان لم تتداركه بضده صار عادة فيصعب عليك الانتقال عنها.

التقوى ثلاث مراتب: إحداها حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات. الثانية: حميتها عن المكروهات. الثالثة: الحمية عن الفضول وما لا يعني، فالأولى تعطى العبد حياته، والثانية تفيده صحته وقوته، والثالثة تكسبه سروره وفرحه وبهجته.

غموض الحق حين تذب عنه ... يقلل ناصر الخصم المحق

تضل عن الدقيق فهوم قوم ... فتقضي للمجل على المدق

بالله أبلغ ما أسعى وأدركه ... لا بي ولا بشفيع لي من الناس

إذا أيست وكاد اليأس يقطعني ... جاء الرجا مسرعاً من جانب اليأس

من خلقه الله للجنة لم تزل هداياها تأتيه من المكاره، ومن خلقه للنار لم تزل هداياه تأتيه من الشهوات.

لما طلب آدم الخلود في الجنة من جانب الشجرة عوقب بالخروج منها.

ولما طلب يوسف الخروج من السجن من جهة صاحب الرؤيا لبث فيه بضع سنين.

إذا جرى على العبد مقدور يكرهه فله فيه ستة مشاهد.

(**أحدها**): مشهد التوحيد وان الله هو الذي قدره وشاءه وخلقه، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

(**الثاني**): مشهد العدل وأنه ماض فيه حكمه عدل فيه قضاؤه.

(**الثالث**): مشهد الرحمة وإن رحمته في هذا المقدور غالبة لغضبه وانتقامه ورحمته حشوه.

(**الرابع**): مشهد الحكمة وأن حكمته سبحانه اقتضت ذلك لم يقدره سدى ولا قضاه عبثاً.

(**الخامس**): مشهد الحمد وأن له سبحانه الحمد التام على ذلك من جميع وجوهه.

(**السادس**): مشهد العبودية وأنه عبد محض من كل وجه تجري عليه أحكام سيده وأقضيته بحكم كونه ملكه وعبده، فيصرفه تحت أحكامه القدرية كما يصرفه تحت أحكامه الدينية فهو محل لجريان هذه الأحكام عليه:

قلة التوفيق وفساد الرأي، وخفاء الحق وفساد القلب، وخمول الذكر. وإضاعة الوقت، ونفرة الخلق والوحشة بين العبد وبين ربه، ومنع إجابة الدعاء. وقسوة القلب ومحق البركة في الرزق والعمر، وحرمان العلم ولباس الذل، وإهانة العدو وضيق الصدر، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت، وطول الهم والغم، وضنك المعيشة وكسف البال تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله كما يتولد الزرع عن الماء. والاحراق عن النار، وأضداد هذه تتولد عن الطاعة.

طوبى لمن أنصف ربه

طوبى لمن أنصف ربه فأقر له بالجهل في علمه والآفات في عمله والعيوب في نفسه والتفريط في حقه، والظلم في معاملته، فإن آخذه بذنوبه رأى عدله وان لم يؤخذه بها رأى فضله، وان عمل حسنة رآها من منته وصدقته عليه، فإن قبلها فمنة وصدقة ثانية، وإن ردها فلكون مثلها لا يصلح أن يواجه به، وان عمل سيئة رآها من تخليه عنه، وخذلانه له، وامساك عصمته عنه، وذلك من عدله فيه، فيرى في ذلك فقره إلى ربه وظلمه في نفسه، فإن غفر له فبمحض إحسانه وجوده وكرمه.

ونكتة المسألة وسرها أنه لا يرى ربه إلا محسناً، ولا يرى نفسه إلا مسيئاً أو مفرطاً أو مقصراً فيرى كل ما يسره من فضل ربه عليه وإحسانه إليه، وكل ما يسوءه من ذنوبه وعدل الله فيه.

المحبون إذا خربت منازل أحبائهم قالوا سقياً لسكانها. وكذلك المحب إذا أتت عليه الأعوام تحت التراب ذكر حينئذ حسن طاعته له في الدنيا وتودده إليه وتجدد رحمته وسقياه لمن كان ساكناً في تلك الأجسام البالية.

(فائدة)

الغيرة غيرتان: غيرة على الشيء، وغيرة من الشيء، فالغيرة على المحبوب حرصك عليه، والغيرة من المكروه ان يزاحمك عليه، فالغيرة على المحبوب لا تتم إلا بالغيرة من المزاحم، وهذه تحمد حيث يكون المحبوب تقبح المشاركة في حبه كالمخلوق. وأما من تحسن المشاركة في حبه كالرسول والعالم بل الحبيب القريب سبحانه فلا يتصور غيرة المزاحمة عليه بل هو حسد، والغيرة المحمودة في حقه أن يغار المحب على محبته له أن يصرفها إلى غيره، أو يغار عليها أن يطلع عليها الغير فيفسدها عليه أو يغار على أعماله أن يكون فيها شيء لغير محبوبه أو يغار عليها أن يشوبها ما يكره محبوبه من رياء أو إعجاب أو محبة لإشراف غيره عليها أو غيبته عن شهود منته عليه فيها.

وبالجملة فغيرته تقضي أن تكون أحواله وأعماله وأفعاله كلها لله. وكذلك يغار على أوقاته أن يذهب منها وقت في غير رضا محبوبه، فهذه الغيرة من جهة العبد وهي غيرة من المزاحم له المعوق القاطع له عن مرضاة محبوبه. وأما غيرة محبوبه عليه فهي كراهية أن ينصرف قلبه عن محبته إلى محبة غيره بحيث يشاركه في حبه، ولهذا كانت غيرة الله أن يأتي العبد ما حرم عليه، ولأجل غيرته سبحانه حرم الفاحشة ما ظهر منها وما بطن، لأن الخلق عبيده واماؤه فهو يغار على إمائه كما يغار السيد على جواريه - ولله المثل الأعلى - ويغار على عبيده أن تكون محبتهم لغيره بحيث تحملهم تلك المحبة على عشق الصور ونيل الفاحشة منها.

من عظم وقار الله في قلبه أن يعصيه وقره الله في قلوب الخلق أن يذلوه.

إذا علقت شروش[1] المعرفة في أرض القلب نبتت فيه شجرة المحبة، فإذا تمكنت وقويت أثمرت الطاعة فلا تزال الشجرة تأتي أكلها كل حين بإذن ربها.

أول منازل القوم أذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا. وأوسطها هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور. وآخرها تحيتهم يوم يلقونه سلام.

أرض الفطرة رحبة قابلة لما يغرس فيها، فان غرست شجرة الايمان والتقوى أورثت حلاوة الأبدان، وان غرست شجرة الجهل والهوى فكل الثمر مر.

ارجع إلى الله واطلبه من عينك وسمعك وقلبك ولسانك ولا تشرد عنه من هذه الأربعة فما رجع من رجع إليه بتوفيقه إلا منها وما شرد من شرد عنه بخذلانه إلا منها، فالموفق يسمع ويبصر ويتكلم ويبطش - بمولاه - والمخذول يصدر ذلك عنه بنفسه وهواه.

مثال تولد الطاعة ونموها وتزايدها كمثل نواة غرستها فصارت شجرة ثم أثمرت فأكلت ثمرها وغرست نواها فكلما أثمر منها شيء جنيت ثمره وغرست

---

(١) هو اصل الشيء وجذره.

نواه، وكذلك تداعي المعاصي، فليتدبر اللبيب هذا المثال: فمن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها.

ليس العجب من مملوك يتذلل لله ويتعبد له ولا يمل من خدمته مع حاجته وفقره إليه، إنما العجب من مالك يتحبب إلى مملوك بصنوف انعامه ويتودد إليه بأنواع احسانه مع غناه عنه.

كفى بك عزا أنك له عبد وكفى بك فخرا أنه لك رب

(فوائد قيمة)

- إياك والمعاصي فانها أدلت عز ﴿**اسجدوا**﴾ وأخرجت أقطاع ﴿**اسكن**﴾

- يا لها لحظة أثمرت حرارة القلق ألف سنة ما زال يكتب بدم الندم سطور الحزن في القصص ويرسلها مع أنفاس الأسف حتى جاءه توقيع فتاب عليه.

- فرح إبليس بنزول آدم من الجنة وما علم أن هبوط الغائص في اللجة خلف الدر صعود، كم بين قوله لآدم ﴿**إنّي جاعل في الأرض خليفة**﴾(١) وقوله لك ﴿**اذهب فمن تبعك منهم**﴾(٢) ما جرى على آدم هو المراد من وجوده لو لم تذنبوا.

- يا آدم لا تجزع من قولي لك ﴿**اخرج منها**﴾(٣) فلك ولصالح ذريتك خلقتها.

- يا آدم كنت تدخل عليَّ دخول الملوك على الملوك، واليوم تدخل عليَّ دخول العبيد على الملوك.

- يا آدم لا تجزع من كأس زلل كانت سبب كيسك فقد استخرج منك داء العجب، وألبست خلعة العبودية، ﴿**وعسى أن تكرهوا**﴾(٤) يا آدم لم أخرج أقطاعك إلى غيرك، إنما نحيتك عنه لأكمل عمارته لك وليبعث الى العمال نفقة ﴿ **تتجافى جنوبهم**﴾ تالله ما نفعه عند معصيته عن ﴿**اسجدوا**﴾ ولا شرف ﴿**وعلم آدم**﴾ ولا

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٠.
(٢) سورة الاسراء الآية ٦٣.
(٣) سورة الاعراف الآية ١٨.
(٤) سورة البقرة الآية ٢١٦.

خصيصة ﴿لما خلقت بيدي﴾[1] ولا فخر ﴿ونفخت فيه من روحي﴾[2] وانما انتفع بذل ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾[3] لما لبس درع التوحيد على بدن الشكر وقع سهم العدو منه في غير مقتل فجرحه فوضع عليه جبار الانكسار فعاد كما كان فقام الجريح كأن لم يكن به قلبة[4].

سلمان منا آل البيت

نجائب النجاة[5] مهيأة للمراد، وأقدام المطرود موثوقة بالقيود.

هبت عواصف الأقدار في بيداء الأكوان فتقلب الوجود ونجم الخير فلما ركدت الريح إذا أبو طالب غريق في لجة الهلاك. وسلمان[6] على ساحل السلامة. والوليد بن المغيرة[7] يقدم قومه في التيه وصهيب[8] قد قدم بقافلة الروم والنجاشي

---

(١) سورة ص الآية ٧٥.

(٢) سورة الحجر الآية ٢٩.

(٣) سورة الاعراف الآية ٢٣.

(٤) القلبة بفتح القاف واللام: الالم والعلة.

(٥) نجائب النجاة: نجائب الأشياء: خيارها

(٦) سلمان الفارسي: صحابي جليل، كان يسمي نفسه سلمان الإسلام، اصله من مجوس اصبهان. نشأ في قرية جيان، ورحل إلى الشام، فالموصل، فنصيبين، فعمورية، وقرأ كتب الفرس والروم واليهود، وقصد بلاد العرب، فلقيه ركب من بني كلب فاستخدموه، ثم استعبدوه. وعلم سلمان بخبر الإسلام، فقصد النبي ﷺ بقباء فأسلم، واعانه المسلمون على تحرير نفسه. وهو الذي دل المسلمين على حفر الخندق. وجعل اميراً على المدائن فأقام فيها إلى أن توفي سنة (٣٦ هـ - ٦٥٦ م).

(٧) الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو ابن مخزوم - أبو عبد شمس - من قضاة العرب في الجاهلية، ومن زعماء قريش. ادرك الاسلام وهو شيخ هرم فعاداه وقاوم دعوته قال ابن الاثير: وهو الذي جمع قريشاً وقال: «ان الناس يأتونكم أيام الحج فيسألونكم عن محمد فتختلف أقوالكم فيه، فيقول هذا: كاهن، ويقول هذا: شاعر، ويقول هذا: مجنون، وليس يشبه واحداً مما يقولون، ولكن أصلح ما قيل فيه «ساحر» لأنه يفرق بين المرء وأخيه والزوج وزوجته!» هلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر. (١ هـ - ٦٢٢ م).

(٨) صهيب بن سنان بن مالك، من بني النمر بن قاسط - صحابي جليل - احد السابقين إلى الإسلام.

في أرض الحبشة يقول لبيك أللهم لبيك، وبلال(١) ينادي الصلاة خير من النـوم وأبو جهل في رقدة المخالفة.

لما قضي في القدم بسابقة سلمان عرج به دليل التوفيق عن طريق آبائه في التمجس فأقبل يناظر أباه في دين الشرك، فلما علاه بالحجة لم يكن له جواب إلا القيد. وهذا جواب يتداوله أهل الباطل من يوم حرفوه. وبه أجاب فرعون موسى ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري﴾(٢) وبه أجاب الجهمية(٣) الامام أحمد لما عرضوه على السياط، وبه أجاب أهل البدع شيخ الإسلام حين استودعوه السجن (وها نحن على الأثر) فنزل به ضيف ﴿ولنبلونكم﴾ فنال بإكرامه مرتبة «سلمان منا أهل البيت» فسمع أن ركبا على نية السفر فسرق نفسه من أبيه ولا قطع فركب راحلة العزم يرجو إدراك مطلب السعادة فغاص في بحر البحث ليقع بدرة الوجود، فوقف نفسه على خدمة الادلاء وقوف الأذلاء. فلما أحس الرهبان بانقراض دولتهم سلموا إليه أعلام الإعلام على نبوة نبينا. وقالوا ان زمانه قد أظل فاحذر أن تضل، فرحل مع رفقة لم يرفقوا به ﴿وَشروهُ بثمن بخس دراهم معدودة﴾(٤) فابتاعه يهودي بالمدينة فلما رأى الحرة توقد حراً شوقه ولم يعلم رب المنزل يوجد النازل، فبينا هو يكابد ساعات الانتظار قدم البشير بقدوم البشير. وسلمان في رأس نخلة وكاد

= عندما أغارت الروم على بلاده ـ أرض الموصل ـ سبو صهيبا وهو صغير، فنشأ بينهم، واشتراه منهم أحد بني كلب وقدم به مكة، فابتاعه عبد الله بن جدعان التيمي، ثم اعتقه، فأقام بمكة يحترف التجارة، إلى أن ظهر الإسلام فأسلم، وعندما هاجر ترك ماله وتجارته، ولحق بالرسول ﷺ. شهد بدراً وأحداً وله ٣٠٧ أحاديث توفي بالمدينة سنة (٣٨ هـ ـ ٦٥٩ م).

(١) بلال بن رباح الحبشي ـ أبو عبد الله ـ مؤذن رسول الله ﷺ وخازنه على بيت ماله. وأحد السابقين للإسلام. كان شديد السمرة. شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. توفي في دمشق سنة (٢٠ هـ ـ ٦٤١ م) وله ٤٤ حديثاً.

(٢) سورة الشعراء الآية ٢٩.

(٣) الجهمية: هم اتباع جهم بن صفوان الراسبي. والذي زعم بأن الجنة والنار تفنيان، وان الايمان هو المعرفة بالله فقط. والكفر هو الجهل به وإلى ما هنالك من الضلالات.

(٤) سورة يوسف الآية ٢٠.

القلق يلقيه لولا أن الحزم أمسكه كما جرى يوم﴿ إنْ كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها﴾[1] فعجل النزول لتلقي ركب البشارة ولسان حاله يقول:

خليلي من نجد قفا بي على الربا فقد هب من تلك الديار نسيم

فصاح به سيده: مالك انصرف إلى شغلك فقال:

كيف انصرافي ولي في داركم شغل

ثم أخذ لسان حاله يترنم لو سمع الأطروش[2]:

خليلي لا والله ما أنا منكما إذا علم من آل ليلى بدا ليا

فلما لقي الرسول عارض نسخة الرهبان بكتاب الأصل فوافقه، يا محمد أنت تريد أبا طالب ونحن نريد سلمان.

أبو طالب إذا سئل عن اسمه قال عبد مناف. وإذا انتسب افتخر بالآباء وإذا ذكرت الأموال عدّ الإبل. وسلمان إذا سئل عن اسمه قال عبد الله. وعن نسبه قال ابن الإسلام. وعن ماله قال الفقر. وعن حانوته قال المسجد. وعن كسبه قال الصبر. وعن لباسه قال التقوى والتواضع. وعن وساده قال السهر. وعن فخره قال سلمان منا، وعن قصده قال يريدون وجهه. وعن سيره قال إلى الجنة. وعن دليله في الطريق قال إمام الخلق وهادي الأئمة:

إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا كفى بالمطايا طيب ذكراك حاديا
وإن نحن أضللنا الطريق ولم نجد دليلاً كفانا نور وجهك هاديا

الذنوب جراحات ورب جرح وقع في مقتل.
لو خرج عقلك من سلطان هواك عادت الدولة له.

دخلت دار الهوى فقامرت بعمرك. إذا عرضت نظرة لا تحل فاعلم أنها مسعر حرب فاستتر منها بحجاب ﴿قل للمؤمنين﴾فقد سلمت من الأثر﴿وكفى الله

---

(١) سورة القصص الآية ١٠.

(٢) الأطروش: من طرش يطرش. فهو أطرش أي: لا يسمع.

المؤمنين القتال ﴾[1] . بحر الهوى إذا مد أغرق وأخوف المنافذ على السابح فتح البصر في الماء .

ما أحد أكرم من مفرد	في قبره أعماله تؤنسه
منعماً في القبر في روضة	ليس كعبد قبره محبسه
على قدر فضل المرء تأتي خطوبه	ويعرف عند الصبر فيما يصيبه
ومن قل فيما يتقيه اصطباره	فقد قل مما يرتجيه نصيبه

كم قطع زرع قبل التمام فما ظن الزرع المستحصد، اشتر نفسك فالسوق قائمة والثمن موجود. لا بد من سنة الغفلة ورقاد الهوى ولكن كن خفيف النوم فحراس البلد يصيحون دنا الصباح .

نور العقل يضيء في ليل الهوى فتلوح جادة الصواب فيتلمح البصير في ذلك النور عواقبُ الأمور. اخرج بالعزم من هذا الفناء[2] الضيق المحشو بالآفات إلى ذلك الفناء الرحب الذي فيه ما لا عين رأت فهناك لا يتعذر مطلوب ولا يفقد محبوب، يا بائعاً نفسه بهوى من حبه ضنا ووصله أذى، وحسنه إلى فنا لقد بعت أنفس الأشياء بثمن بخس كأنك لم تعرف قدر السلعة ولا خسة الثمن حتى إذا قدمت يوم التغابن تبين لك الغبن في عقد التبايع ـ لا إله إلا الله سلعة : الله مشتريها وثمنها الجنة والدلال الرسول، ترضى ببيعها بجزء يسير مما لا يساوي كله جناح بعوضة؟ .

إذا كان شيء لا يساوي جميعه	جناح بعوض عند من صرت عبده
ويملك جزء منه كلك ما الذي	يكون على ذا الحال قدرك عنده
وبعت به نفساً قد استامها بما	لديه من الحسنى وقد زال وده

يا مخنث العزم أين أنت والطريق، طريق تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح ورمي في النار الخليل، واضطجع للذبح إسماعيل. وبيع يوسف بثمن بخس ولبث في السجن بضع سنين، ونشر بالمنشار زكريا. وذبح السيد الحصور يحيىٰ،

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢٥.

(٢) الفناء: بكسر الفاء: المتسع امام الدار ويجمع على أفنية .

وقاسى الضر أيوب، وزاد على المقدار بكاء داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ﷺ، تزها أنت باللهو واللعب[1].

فيا دارها بالحزن ان مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

الحرب قائمة وأنت أعزل في النظارة، فإن حركت ركابك فللهزيمة.

من لم يباشر حر الهجير في طلاب المجد لم يقل[2] في ظلال الشرف:

تقول سليمى لو أقمت بأرضنا ولم تدر أنى للمقام أطوف

قيل لبعض العباد إلى كم تتعب نفسك فقال: راحتها أريد.

يا مكرماً بحلة الإيمان بعد حلة العافية وهو يخلقها في مخالفة الخالق لا تنكر السلب ـ يستحق من استعمل نعمة المنعم فيما يكره أن يسلبها.

عرائس الموجودات قد تزينت للناظرين ليبلوهم أيهم يؤثرهن على عرائس الآخرة، فمن عرف قدر التفاوت آثر ما ينبغي إيثاره.

وحسان الكون لما أن بدت أقبلت نحوي وقالت لي إليَّ

فتعاميت كأن لم أرها عندما أبصرت مقصودي لديَّ

كواكب همم العارفين في بروج عزائمهم سيارة ليس فيها زحل.

يا من انحرف عن جادتهم كن في أواخر الركب، ونم إذا نمت على الطريق فالأمير يراعى الساقة[3].

قيل للحسن: سبقنا القوم على خيل دهم ونحن على حمر معقرة، فقال: ان كنت على طريقهم فما أسرع اللحاق بهم.

(فائدة)

من فقد أنسه بالله بين الناس ووجده في الوحدة فهو صادق ضعيف. ومن

(١) أي تتنزه في الرياض والبساتين.

(٢) من القيلولة.

(٣) الساقة مؤخرة الجيش.

وجده بين الناس وفقده في الخلوة فهو معلول. ومن فقده بين الناس وفي الخلوة فهو ميت مطرود، ومن وجده في الخلوة وفي الناس فهو المحب الصادق القوي في حاله، ومن كان فتحه في الخلوة لم يكن مزيده إلا منها، ومن كان فتحه بين الناس ونصحهم وإرشادهم كان مزيده معهم، ومن كان فتحه في وقوفه مع مراد الله حيث أقامه وفي أي شيء استعمله كان مزيده في خلوته ومع الناس، فأشرف الأحوال أن لا تختار لنفسك حالة سوى ما يختاره لك ويقيمك فيه فكن مع مراده منك ولا تكن مع مرادك منه.

مصابيح القلوب الطاهرة في أصل الفطرة منيرة قبل الشرائع ﴿ **يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار** ﴾.

وحد قس[1] وما رأى الرسول، وكفر ابن أبي وقد صلى معه في المسجد.

مع الصب ري ولا ماء، وكم من عطشان في اللجة.

سبق العلم بنبوة موسى وإيمان آسية فسيق تابوته إلى بيتها فجاء طفل منفرد عن أم إلى امرأة خالية عن ولد! فللّه كم في هذه القصة من عبرة: كم ذبح فرعون في طلب موسى من ولد ولسان القدر يقول لا نربيه إلا في حجرك!

كان ذو البجادين[2] يتيماً في الصغر فكفله عمه فنازعته نفسه الى اتباع الرسول فهم بالنهوض فإذا بقية المرض مانعة فقعد ينتظر العم، فلما تكاملت صحته نفذ الصبر فناداه ضمير الوجد.

إلى كم حبسها تشكو المضيقا أثرها ربما وجدت طريقا

فقال يا عم طال انتظاري لاسلامك وما أرى منك نشاطاً، فقال والله لئن

(١) قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك، من بني إياد: أحد حكماء العرب، ومن كبار خطبائهم في الجاهلية. كان أسقف نجران، ويقال: انه أول عربي خطب متوكئاً على سيف أو عصا، وأدركه النبي ﷺ قبل النبوة، ورآه في عكاظ، وسئل عنه بعد ذلك فقال: يحشر أمة وحده. وقيل أنه كان مؤمناً بالله مبشراً برسول الله يضرب به المثل في الفصاحة والخطابة فيقال أبلغ من قس. انظر: (البيان والتبيين ١: ٢٧). (والأغاني ١٤: ٤٠). مات سنة (٢٣ ق. هـ).

(٢) البجاد: الكساء.

أسلمت لأنتزعن كل ما أعطيتك، فصاح لسان الشوق: نظرة من محمد أحب إليّ من الدنيا وما فيها.

ولو قيل للمجنون ليلى ووصلها ... تريد أم الدنيا وما في طواياها
لقال تراب من غبار نعالها ... ألذ إلى نفسي وأشفى لبلواها

فلما تجرد للسير إلى الرسول جرده من الثياب فناولته الأم بجاداً فقطعه لسفر الوصل نصفين.

اتزر بأحدهما وارتدى بالآخر، فلما نادى صائح الجهاد قنع أن يكون في ساقة الأحباب، والمحب لا يرى طول الطريق لأن المقصود يعينه:

ألا بلغ الله الحمى من يريده ... وبلغ أكناف الحمى من يريدها

فلما قضى نحبه نزل الرسول يمهد له لحده وجعل يقول: اللهم اني أمسيت عنه راضياً فارض عنه. فصاح ابن مسعود: يا ليتني كنت صاحب القبر.

فيا مخنث العزم أقل ما في الرقعة البيذق فلما نهض تفرزن[1].

رأى بعض الحكماء برذوناً[2] يسقى عليه فقال لو هملج[3] هذا لركب إقدام العزم بالسلوك اندفع من بين أيديها سد القواطع.

القواطع محن يتبين بها الصادق من الكاذب فإذا خضتها انقلبت أعواناً لك توصلك إلى المقصود.

فتنة الدنيا

الدنيا كامرأة بغى لا تثبت مع زوج إنما تخطب الأزواج ليستحسنوا عليها فلا ترضى بالدياثة.

---

(١) الفرزن: الوزير من أحجار الشطرنج ومنه قولهم تفرزن البيذق: أي صار فرزناً. والبيذق: هو بمنزلة العساكر من الاحجار.

(٢) البرذون: برذن: قهر وغلب. والفرس مشى مشي البرذون. والبرذون يطلق على غير العربي من الخيل.

(٣) هملج: أمر هملج: مذلل ومنقاد. وهملج سار سيراً حسناً.

ميزت بين جمالها وفعالها فإذا القباحة بالملاحة لا تفي.
حلفت لنا أن لا تخون عهودنا فكأنها حلفت لنا أن لا تفي

السير في طلبها سير في أرض مسبعة[1]، والسباحة فيها سباحة في غدير التمساح المفروح به هو عين المحزون عليه، آلامها متولدة من لذاتها وأحزانها من أفراحها:

مآرب كانت في الشباب لأهلها عِذاباً فصارت في المشيب عَذاباً

طائر الطبع يرى الحبة وعين العقل ترى الشرَك، غير أن عين الهوى عمياء:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

تزخرفت الشهوات لأعين الطباع فغض عنها الذين يؤمنون بالغيب ووقع تابعوها في بيداء الحسرات فـ **﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾**[2] وهؤلاء يقال لهم **﴿كلوا وتمتعوا قليلاً انكم مجرمون﴾**[3].

لما عرف الموفقون قدر الحياة الدنيا وقلة المقام فيها أماتوا فيها الهوى طلباً لحياة الأبد لما استيقظوا من نوم الغفلة استرجعوا بالجد ما انتهبه العدو منهم في زمن البطالة فلما طالت عليهم الطريق تلمحوا المقصد فقرب عليهم البعيد، وكلما أمرَّت لهم الحياة حلى لهم تذكر **﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾**[4]:

وركب سروا والليل ملق رواقه على كل مغبر المطالع قائم[5]
حدوا عزمات ضاعت الأرض بينها فصار سراهم في ظهور العزائم
تريهم نجوم الليل ما يتبعونه على عاتق الشعري وهام النعائم[6]

---

(١) ارض مسبعة: أرض كثيرة السباع.
(٢) سورة لقمان الآية ٥.
(٣) سورة المرسلات الآية ٤٦.
(٤) سورة الأنبياء الآية ١٠٣.
(٥) رواق الليل: أرواق الليل: أثناء ظلمته، والرواق من الليل: مقدمه، وجانبه.
(٦) الشعري: كوكب منير يطلع بعد الجوزاء.

إذا أطردت في معرك الجد قصفوا   رماح العطايا في صدور المكارم

من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الاجابة، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته، وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير حديثه والحديث عنه ثم لا تشتاق الى انشراح الصدر بذكره ومناجاته، وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه بنعيم الاقبال عليه والانابة إليه.

وأعجب من هذا علمك أنك لا بد لك منه وأنك أحوج شيء إليه وأنت عنه معرض، وفيما يبعدك عنه راغب.

(فائدة)

ما أخذ العبد ما حرم عليه الا من جهتين: إحداهما سوء ظنه بربه، وأنه لو أطاعه وآثره لم يعطه خيراً منه حلالاً، والثانية أن يكون عالماً بذلك وأن من ترك لله شيئاً أعاضه خيراً منه، ولكن تغلب شهوته صبره وهواه عقله، فالأول من ضعف علمه والثاني من ضعف عقله وبصيرته.

قال يحيى بن معاذ[1]: من جمع الله عليه قلبه في الدعاء لم يرده.

قلت: إذا اجتمع عليه قلبه وصدقت ضرورته وفاقته وقوي رجاؤه فلا يكاد يرد دعاؤه.

(فصل)

لما رأى المتيقظون سطوة الدنيا بأهلها وخداع الأمل لأربابه، وتملك الشيطان وقيادة النفوس رأوا الدولة للنفس الأمارة لجأوا إلى حصن التضرع والالتجاء كما

(١) يحيى بن معاذ ـ أبو زكريا ـ ابن جعفر الرازي واعظ، زاهد، لم يكن له نظير في وقته أقام ببلخ، ومات في نيسابور سنة: (٢٥٨ هـ ـ ٨٧٢ م) له كلمات سائرة منها: ـ «كيف يكون زاهداً من لا ورع له، تورع عما ليس لك، ثم ازهد فيما لك». ـ «هان عليك من احتاج إليك».

يأوي العبد المذعور إلى حرم سيده.

شهوات الدنيا كلعب الخيال، ونظر الجاهل مقصور على الظاهر، فأما ذو العقل فيرى ما وراء الستر.

لاح لهم المشتهى فلما مدوا أيدي التناول بان لأبصار البصائر خيط الفخ فطاروا بأجنحة الحذر وصوبوا إلى الرحيل الثاني ﴿يا ليت قومي يعلمون﴾[1] تلمح القوم الوجود ففهموا المقصود فأجمعوا الرحيل قبل الرحيل وشمروا للسير في سواء السبيل فالناس مشتغلون بالفضلات وهم في قطع الفلوات[2] وعصافير الهوى في وثاق الشبكة ينتظرون الذبح.

وقع ثعلبان في شبكة، فقال أحدهما للآخر: أين الملتقى بعد هذا؟ فقال: بعد يومين في الدباغة.

تالله ما كانت الأيام إلا مناماً فاستيقظوا وقد حصلوا على الظفر.
ما مضى من الدنيا أحلاماً وما بقي منها أماني والوقت ضائع بينهما.

كيف يسلم من له زوجة لا ترحمه وولد لا يعذره وجار لا يأمنه وصاحب لا ينصحه وشريك لا ينصفه وعدو لا ينام عن معاداته ونفس أمارة بالسوء ودنيا متزينة وهوى مرد وشهوة غالبة له وغضب قاهر وشيطان مزين وضعف مستول عليه، فإن تولاه الله وجذبه إليه انقهرت له هذه كلها، وان تخلى عنه ووكله إلى نفسه اجتمعت عليه فكانت الهلكة.

لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة والمحاكمة إليهما واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما، وعدلوا إلى الآراء والقياس والاستحسان، وأقوال الشيوخ، عرض لهم من ذلك فساد في فطرهم وظلمة في قلوبهم وكدر في أفهامهم ومحق في عقولهم، وعمتهم هذه الأمور وغلبت عليهم حتى ربي فيها الصغير، وهرم عليها الكبير،

---

(١) سورة يس الآية ٢٦.

(٢) الفلوات: الفلاة: القفر، او المفازة لا ماء فيها أو الصحراء الواسعة وجمعها فلوات.

فلم يروها منكراً، فجاءتهم دولة أخرى قامت فيها البدع مقام السنن، والنفس مقام العقل، والهوى مقام الرشد، والضلال مقام الهدى، والمنكر مقام المعروف، والجهل مقام العلم، والرياء مقام الاخلاص، والباطل مقام الحق، والكذب مقام الصدق، والمداهنة مقام النصيحة، والظلم مقام العدل، فصارت الدولة والغلبة لهذه الأمور وأهلها هم المشار إليهم، وكانت قبل ذلك لأضدادها، وكان أهلها هم المشار إليهم.

فإذا رأت دولة هذه الأمور قد أقبلت، وراياتها قد نصبت، وجيوشها قد ركبت، فبطن الارض والله خير من ظهرها، وقلل الجبال خير من السهول، ومخالطة الوحش أسلم من مخالطة الناس.

اقشعرت الأرض وأظلمت السماء، وظهر الفساد في البر والبحر من ظلم الفجرة، وذهبت البركات وقلت الخيرات وهزلت الوحوش، وتكدرت الحياة من فسق الظلمة. وبكى ضوء النهار وظلمة الليل من الأعمال الخبيثة والأفعال الفظيعة، وشكا الكرام الكاتبون والمعقبات إلى ربهم من كثرة الفواحش وغلبة المنكرات والقبائح، وهذا والله منذر بسيل عذاب قد انعقد غمامه، ومؤذن بليل بلاء قد ادلهم ظلامه، فاعزلوا عن طريق هذا السبيل بتوبة نصوح ما دامت التوبة ممكنة وبابها مفتوح، وكأنكم بالباب وقد أغلق، وبالرهن وقد غلق[١]، وبالجناح وقد علق ﴿**وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون**﴾[٢].

اشتر نفسك اليوم فإن السوق قائمة والثمن موجود والبضائع رخيصة. وسيأتي على تلك السوق والبضائع يوم لا تصل فيها إلى قليل ولا كثير. ذلك يوم التغابن، يوم يعض الظالم على يديه:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى	وأبصرت يوم الحشر من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله	وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

(١) غلق الرهن: اي استحقه المرتهن.
(٢) سورة الشعراء الآية ٢٢٧.

العمل بغير اخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملاً يثقله ولا ينفعه. إذا حملت على القلب هموم الدنيا وأثقالها وتهاونت بأوراده التي هي قوته وحياته كنت كالمسافر الذي يحمل دابته فوق طاقتها ولا يوفيها علفها فما أسرع ما تقف به:

ومشتت العـزمـات ينفق عمـره حيـران لا ظـفـر ولا إخـفـاق
هـل السائق العجـلان يملك أمـره فـما كل سـير اليعملات وخيـد[1]
رويـداً بـأخفـاف المطى فـإنما تـداس جبـاه تحتهـا وخـدود

من تلمح حلاوة العافية هان عليه مرارة الصبر.

الغاية أول في التقدير، آخر في الوجود، مبدأ في نظر العقل، منتهى في منازل الوصول.

ألفت عجز العادة فلو علت بك همتك ربا المعالي لاحت لك أنوار العزائم.

إنما تفاوت القوم بالهمم لا بالصور.

نزول همة الكساح[2] دلاه في جب العذرة[3].

بينك وبين الفائزين جبل الهوى نزلوا بين يديه ونزلت خلفه، فاطو فضل منزل تلحق بالقوم

الدنيا مضمار سباق وقد انعقد الغبار وخفى السابق، والناس في المضمار بين فارس وراجل، وأصحاب حمر معقرة

سـوف تـرى إذا انجـلى الغبـار أفـرس تحـتـك أم حـمـار

في الطبع شره والحمية أوفق

لص الحرص لا يمشي إلا في ظلام الهوى

حبة المشتهى تحت فخ التلف فتفكر الذبح وقد هان الصبر

---

(١) اليعملات: جمع يعملة وهي الناقة النجيبة المعتملة المطبوعة على العمل. وخيد: وخد البعير اسرع الخطى.

(٢) الكساح: كسح: كنس، والكساحة الكناسة. والكساح أيضاً: داء للإبل.

(٣) العذرة: فناء الدار والعاذرة والعذرة أيضاً: الغائط.

قوة الطمع في بلوغ الأمل توجب الاجتهاد في الطلب وشدة الحذر من فوت المأمول.

البخيل فقير لا يؤجر على فقره.

الصبر على عطش الضر ولا الشرب من شرعة منّ.

تجوع الحرة ولا تأكل ثدييها.

لا تسأل سوى مولاك فسؤال العبد غير سيده تشنيع عليه.

غرس الخلوة يثمر الأنس.

استوحش مما لا يدوم معك واستأنس بمن لا يفارقك.

عزلة الجاهل فساد وأما عزلة العالم فمعها حذاؤها وسقاؤها:

إذا اجتمع العقل واليقين في بيت العزلة واستحضر الكفر جرت بينهم مناجاة.

أتاك حديث لا يمل سماعه ... شهي إلينا نثره ونظامه

إذا ذكرته النفس زال عناؤها ... وزال عن القلب المعنى ظلامه

إذا خرجت من عدوك لفظة سفه فلا تلحقها بمثلها تنقحها ونسل الخصام نسل مذموم.

حميتك لنفسك أثر الجهل بها فلو عرفتها حق معرفتها أعنت الخصم عليها

إذا اقتدحت نار الانتقام من نار الغضب ابتدأت بإحراق القادح.

أوثق غضبك بسلسلة الحلم فإنه كلب إن أفلت أتلف

من سبقت له سابقة السعادة دل على الدليل قبل الطلب.

إذا أراد القدر شخصاً بذر في أرض قلبه بذر التوفيق ثم سقاه بماء الرغبة والرهبة ثم اقام عليه بأطوار المراقبة واستخدم له حارس العلم، فإذا الزرع قائم على سوقه.

إذا طلع نجم الهمة في ظلام ليل البطالة، وردفه قمر العزيمه أشرقت أرض القلب بنور ربها.

إذا جن الليل تغالب النوم والسهر، فالخوف والشوق في مقدم عسكر

اليقظة، والكسل والتواني في كتيبة الغفلة، فإذا حمل العزم حمل على الميمنة. وانهزمت جنود التفريط فما يطلع الفجر إلا وقد قسمت السهمان وبردت الغنيمة لأهلها.

سفر الليل لا يطيقه إلا مضمر المجاعة. النجائب[1] في الأول وحاملات الزاد في الأخير.

لا تسأم من الوقوف على الباب ولو طردت، ولا تقطع الاعتذار ولو رددت فإن فتح الباب للمقبولين دونك فاهجم هجوم الكذابين وادخل دخول الطفيلية وابسط كف ﴿ **وتصدق علينا** ﴾.

يا مستفحتاً باب المعاش بغير اقليد[2] التقوى كيف توسع طريق الخطايا وتشكو ضيق الرزق.

لو وقفت عند مراد التقوى لم يفتك مراد.

المعاصي سد في باب الكسب وان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه.

تالله ما جئتكم زائراً   الا وجدت الأرض تطوى لي
ولا انثنى عزمي عن بابكم   إلا تعثرت بأذيالي

الأرواح في الأشباح كالأطيار في الأبراج، وليس ما أعد للاستفراخ كمن هيىء للسباق.

من أراد من العمال أن يعرف قدره عند السلطان فلينظر ماذا يوليه من العمل وبأي شغل يشغله.

كن من أبناء الآخرة ولا تكن من أبناء الدنيا فإن الولد يتبع الأم.

الدنيا لا تساوي نقل أقدامك إليها فكيف تعدو خلفها.

الدنيا جيفة والأسد لا يقع على الجيف.

الدنيا مجاز والآخرة وطن والأوطار[3] إنما تطلب في الأوطان.

---

(١) النجائب: هي خيار الإبل ونجائب من نجب: اي كَرُمَ.

(٢) اقليد: مفتاح.

(٣) الاوطار: جمع وطر والوَطَرُ: الحاجة، او حاجة لك فيها همٌّ وعناية، فإذا بلغتها قضيت وطرك.

الاجتماع بالاخوان قسمان: أحدهما اجتماع على مؤانسة الطمع وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت. والثاني الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر. فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها. ولكن فيه ثلاث آفات: إحداها تزين بعضهم لبعض. الثانية الكلام والخلطة أكثر من الحاجة. الثالثة أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود. وبالجملة فالاجتماع والخلطة لقاح أما للنفس الأمارة وأما للقلب والنفس المطمئنة، والنتيجة مستفادة من اللقاح، فمن طاب لقاحه طابت ثمرته. وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من الملك والخبيثة لقاحها من الشيطان. وقد جعل الله سبحانه بحكمته الطيبات للطيبين. والطيبين للطيبات. وعكس ذلك.

(قاعدة)

وجعلنا لكل شيء سببا

ليس في الوجود الممكن سبب واحد مستقل بالتأثير، بل لا يؤثر سبب البتة إلا بانضمام سبب آخر إليه وانتفاء مانع يمنع تأثيره، هذا في الأسباب المشهودة بالعيان، وفي الأسباب الغائبة والأسباب المعنوية كتأثير الشمس في الحيوان والنبات فإنه موقوف على أسباب أخر من وجود محل قابل، وأسباب أخر تنضم إلى ذلك السبب. وكذلك حصول الولد موقوف على عدة أسباب غير وطء الفحل. وكذلك جميع الأسباب مع مسبباتها، فكل ما يخاف ويرجى من المخلوقات فأعلى غاياته أن يكون جزء سبب غير مستقل بالتأثير، ولا يستقل بالتأثير وحده دون توقف تأثيره على غيره إلا الله الواحد القهار، فلا ينبغي أن يرجى ولا يخاف غيره. وهذا برهان قطعي على أن تعلق الرجاء والخوف بغيره باطل. فإنه لو فرض أن ذلك سبب مستقل وحده بالتأثير لكانت سببيته من غيره لا منه فليس له من نفسه قوة يفعل بها، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله فهو الذي بيده الحول كله والقوة كلها فالحول والقوة التي يرجى لأجلهما المخلوق ويخاف إنما هما لله وبيده في الحقيقة، فكيف يخاف ويرجى من لا حول له ولا قوة، بل خوف المخلوق ورجاؤه أحد أسباب

الحرمان ونزول المكروه بمن يرجوه ويخافه، فإنه على قدر خوفك من غير الله يسلط عليك، وعلى قدر رجائك لغيره يكون الحرمان. وهذا حال الخلق أجمعه وإن ذهب على أكثرهم علماً وحالاً فما شاء الله كان ولا بد، وما لم يشأ لم يكن ولو اتفقت عليه الخليقة.

التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه: فأما أعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها ﴿**فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون**﴾(1) وأما أولياؤه فينجيهم به من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها ولذلك فزع إليه يونس فنجاه الله من تلك الظلمات وفزع إليه أتباع الرسل فنجوا به مما عذب به المشركون في الدنيا وما أعد لهم في الآخرة، ولما فزع إليه فرعون عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق له لم ينفعه، لأن الإيمان عند المعاينة لا يقبل. هذه سنة الله في عباده، فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد. ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه بالتوحيد. فلا يلقى في الكرب العظام إلا الشرك، ولا ينجي منها إلا التوحيد، فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها وبالله التوفيق.

(فائدة)

اللذة تابعة للمحبة

اللذة تابعة للمحبة، تقوى بقوتها وتضعف بضعفها، فكلما كانت الرغبة في المحبوب والشوق إليه أقوى كانت اللذة بالوصول إليه أتم، والمحبة والشوق تابع لمعرفته والعلم به، فكلما كان العلم به أتم كانت محبته أكمل، فإذا رجع كمال النعيم في الآخرة وكمال اللذة إلى العلم والحب، فمن كان بالله وأسمائه وصفاته ودينه أعرف كان له أحب وكانت لذته بالوصول إليه ومجاورته والنظر إلى وجهه وسماع كلامه أتم. وكل لذة ونعيم وسرور وبهجة بالإضافة إلى ذلك كقطرة في بحر، فكيف يؤثر من له عقل لذة ضعيفة قصيرة مشوبة بالآلام. على لذة عظيمة دائمة أبد الآباد، وكمال العبد بحسب هاتين القوتين العلم والحب أفضل العلم

---

(1) سورة العنكبوت الآية ٦٥.

العلم بالله. وأعلى الحب له وأكمل اللذة بحسبهما والله المستعان.

(قاعدة)

حبسان منجيان

طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيرة وطلبه إلا بحبسين: حبس قلبه في طلبه ومطلوبه وحبسه عن الالتفات إلى غيره وحبس لسانه عما لا يفيد وحبسه على ذكر الله وما يزيد في إيمانه ومعرفته وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات، وحبسها على الواجبات والمندوبات، فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربه فيخلصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه، ومتى لم يصبر على هذين الحبسين وفر منهما إلى فضاء الشهوات أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند الخروج من الدنيا، فكل خارج من الدنيا أما متخلص من الحبس، وأما ذاهب إلى الحبس. وبالله التوفيق.

ودع ابن عون(١) رجلاً فقال: عليك بتقوى الله فان المتقي ليست عليه وحشة. وقال زيد بن أسلم(٢): كان يقال من اتقى الله أحبه الناس وإن كرهوا. وقال الثوري(٣) لابن أبي ذئب(٤): إن اتقيت الله كفاك الناس وإن اتقيت الناس لن

(١) ابن عون: هو عبد الله بن عون بن ارطبان المزني بالولاء. شيخ أهل البصرة من حفاظ الحديث. أخذ عنه الثوري ويحيى القطان وغيره. توفي سنة (١٥١ هـ - ٧٦٨ م) انظر تذكرة الحفاظ [١ : ١٣٧].

(٢) هو زيد بن أسلم العدوي العمري - أبو أسامة أو أبو عبد الله - فقيه، مفسر، من أهل المدينة، كان مع عمر بن عبد العزيز أيام خلافته، واستقدمه الوليد ابن يزيد في جماعة من فقهاء المدينة الى دمشق وكان ثقة، كثير الحفظ، له حلقة في المسجد النبوي وله كتاب في «التفسير» رواه عنه ولده عبد الرحمن. توفي سنة (١٣٦ هـ - ٧٥٣ م) انظر تذكرة الحفاظ [١ : ١٢٤] وتهذيب التهذيب [٣ : ٣٩٥]

(٣) الثوري: هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، من بني ثور بن عبد مناة، من مضر - أبو عبد الله - أمير المؤمنين في الحديث، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. ولد سنة (٩٧ هـ - ٧١٦ م) في الكوفة، وانتقل إلى مكة سنة (١٤٤ هـ) ثم طلبه المهدي فتوارى وانتقل إلى البصرة ومات فيها مستخفياً سنة (١٦١ هـ - ٧٧٨ م) من مؤلفاته «الجامع الكبير» و«الجامع الصغير» في الحديث وكتاب في «الفرائض» وكان آية في الحفظ، ولابن الجوزي كتاب في مناقبه.

(٤) هو محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث ابن أبي ذئب - أبو الحارث - تابعي من رواة الحديث، =

يغنوا عنك من الله شيئاً. وقال سليمان بن داود: أوتينا بما أوتي الناس ومما لم يؤتوا. وعلمنا مما علم الناس ومما لم يعلموا. فلم نجد شيئاً أفضل من تقوى الله في السر والعلانية. والعدل في الغضب والرضا. والقصد في الفقر والغنى.

وفي الزهد للإمام أحمد أثر إلهي: «ما من مخلوق اعتصم بمخلوق دوني إلا قطعت أسباب السموات والأرض دونه، فإن سألني لم أعطه وإن دعاني لم أجبه وإن استغفرني لم أغفر له، وما من مخلوق اعتصم بي دون خلقي إلا ضمنت السموات والأرض رزقه، فإن سألني أعطيته، وإن دعاني أجبته، وإن استغفرني غفرت له».

(فائدة جليلة)

جمع النبي ﷺ بين تقوى الله وحسن الخلق. لأن تقوى الله يصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله. وحسن الخلق تدعو الناس إلى محبته.

(فائدة جليلة)

مواعظ وحكم

بين العبد وبين الله والجنة قنطرة تقطع بخطوتين: خطوة عن نفسه، وخطوة عن الخلق، فيسقط نفسه ويلغيها فيما بينه وبين الناس، ويسقط الناس ويلغيهم فيما بينه وبين الله، فلا يلتفت إلا لمن دله على الله وعلى الطريق الموصلة إليه.

صاح بالصحابة واعظ ﴿**اقترب للناس حسابهم**﴾(١) فجزعت للخوف قلوبهم وجرت من الحذر العيون ﴿**فسالت أودية بقدرها**﴾(٢).

= من أهل المدينة، من أورع الناس وأفضلهم في عصره. سئل الإمام أحمد عنه وعن الإمام مالك فقال: ابن أبي ذئب اصلح في بدنه، وأورع وأقوم بالحق من مالك عند السلاطين توفي سنة (١٥٨ هـ - ٧٧٥ م).

(١) سورة الأنبياء الآية ١.

(٢) سورة الرعد الآية ١٧.

تزينت الدنيا لعلي فقال: أنت طالق ثلاثاً لا رجعة لي فيك، وكانت تكفيه واحدة للسنة لكنه جمع الثلاث لئلا يتصور للهوى جواز المراجعة، ودينه الصحيح وطبعه السليم يأنفان المحلل. كيف وهو أحد رواة حديث «لعن الله المحلل»[1] ما في هذه الدار موضع خلوة فاتخذه في نفسك لا بد أن تجذبك الجواذب فاعرفها وكن منها على حذر، ولا تضرك الشواغل إذا خلوت منها وأنت فيها.

نور الحق أضوأ من نور الشمس فيحق لخفافيش البصائر أن تعشو عنه.

الطريق إلى الله خال من أهل الشك ومن الذين يتبعون الشهوات وهو معمور بأهل اليقين والصبر وهم على الطريق كالأعلام ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** ﴾[2].

(قاعدة)

تأثير الشهادة عند الموت في تكفير السيئات

لشهادة أن لا إله الله عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها لأنها شهادة من عبد موقن بها عارف بمضمونها قد ماتت منه الشهوات ولانت نفسه المتمردة، وانقادت بعد ابائها وأقبلت بعد إعراضها، وذلت بعد عزها وخرج منها حرصها على الدنيا وفضولها، واستخذت بين يدي ربها وفاطرها ومولاها الحق أذل ما كانت له، وأرجى ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته. وتجرد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك، وتحقق بطلانه، فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها، واجتمع همها على من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه، فوجه العبد وجهه بكليته إليه. وأقبل بقلبه وروحه وهمه عليه. فاستسلم وحده ظاهراً وباطناً، واستوى سره وعلانيته فقال لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه. وقد تخلص قلبه من التعلق بغيره والالتفات إلى ما سواه. قد خرجت الدنيا كلها من قلبه وشارف القدوم على ربه وخمدت نيران شهوته وامتلأ قلبه من الآخرة فصارت نصب عينيه وصارت الدنيا

---

(١) المحلل: هو متزوج المطلقة ثلاثاً لتحل للزوج الأول. (٢) سورة السجدة الآية ٢٤.

وراء ظهره. فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله فطهرته من ذنوبه وأدخلته على ربه. لأنه لقي ربه بشهادة صادقة خالصة وافق ظاهرها باطنها وسرها علانيتها، فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه في أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلها وفر إلى الله من الناس وأنس به دون سواه، لكنه شهد بها بقلب مشحون بالشهوات وحب الحياة وأسبابها، ونفس مملوءة بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله. فلو تجردت كتجردها عند الموت لكان لها نبأ آخر وعيش آخر سوى عيشها البهيمي. والله المستعان.

ماذا يملك من أمره من ناصيته بيد الله ،ونفسه بيده، وقلبه بين اصبعين من أصابعه يقلبه كيف يشاء، وحياته بيده وموته بيده وسعادته بيده وشقاوته بيده، وحركاته وسكناته وأقواله وأفعاله بإذنه ومشيئته، فلا يتحرك إلا بإذنه، ولا يفعل إلا بمشيئته. إن وكله إلى نفسه وكله إلى عجز وضيعة وتفريط وذنب وخطيئة. وان وكله إلى غيره وكله إلى من لا يملك له ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. وإن تخلى عنه استولى عليه عدوه وجعله أسيراً له، فهو لا غنى له عنه طرفة عين، بل هو مضطر إليه على مدى الانفاس في كل ذرة من ذراته باطناً وظاهراً، فاقته تامة إليه ومع ذلك فهو متخلف عنه، معرض عنه يتبغض إليه بمعصيته، مع شدة الضرورة إليه من كل وجه، قد صار لذكره نسياً، واتخذه وراءه ظهرياً. هذا وإليه مرجعه وبين يديه موقفه.

فرغ خاطرك للهم بما أمرت به، ولا تشغله بما ضمن لك. فان الرزق والأجل قرينان مضمونان. فما دام الأجل باقياً كان الرزق آتياً. وإذا سد عليك بحكمته طريقاً من طرقه فتح لك برحمته طريقاً أنفع لك منه. فتأمل حال الجنين يأتيه غذاؤه وهو الدم من طريق واحدة وهو السرة، فلما خرج من بطن الأم، وانقطعت تلك الطريق فتح له طريقين اثنين وأجرى له فيهما رزقاً أطيب وألذ من الأول، لبناً خالصاً سائغاً. فإذا تمت مدة الرضاع وانقطعت الطريقان بالفطام فتح طرقاً أربعة أكمل منها. طعامان وشرابان. فالطعامان من الحيوان والنبات. والشرابان من المياه والألبان. وما يضاف إليهما من المنافع والملاذ. فإذا مات

انقطعت عنه هذه الطرق الأربعة لكنه سبحانه فتح له إن كان سعيداً طرقاً ثمانية وهي أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء فهكذا الرب سبحانه لا يمنع عبده المؤمن شيئاً من الدنيا إلا ويؤتيه أفضل منه وأنفع له وليس ذلك لغير المؤمن، فانه يمنعه الحظ الأدنى الخسيس ولا يرضى له به ليعطيه الحظ الأعلى النفيس. والعبد لجهله بمصالح نفسه وجهله بكرم ربه وحكمته ولطفه لا يعرف التفاوت بين ما منع منه وبين ما ذخر له، بل هو مولع بحب العاجل وإن كان دنيئاً، وبقلة الرغبة في الآجل وإن كان علياً. ولو أنصف العبد ربه ـ وأنى له بذلك ـ لعلم أن فضله عليه فيما منعه من الدنيا ولذاتها ونعيمها أعظم من فضله عليه فيما آتاه من ذلك، فما منعه إلا ليعطيه، ولا ابتلاه إلا ليعافيه، ولا امتحنه إلا ليصافيه، ولا أماته إلا ليحييه، ولا أخرجه إلى هذه الدار إلا ليتأهب منها للقدوم عليه، وليسلك الطريق الموصلة إليه، فـ﴿**جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً**﴾(١)، ﴿**فأَبَىٰ الظالمون إلا كفوراً**﴾(٢). والله المستعان.

من عرف نفسه اشتغل بإصلاحها عن عيوب الناس.

من عرف ربه اشتغل به عن هوى نفسه.

أنفع العمل أن تغيب فيه عن الناس بالاخلاص. وعن نفسك بشهود المنة فلا ترى فيه نفسك ولا ترى الخلق.

دخل الناس النار من ثلاثة أبواب: باب شبهة أورثت شكاً في دين الله. وباب شهوة أورثت تقديم الهوى على طاعته ومرضاته، وباب غضب أورث العدوان على خلقه.

أصول الخطايا كلها ثلاثة: الكِبَر وهو الذي أصار إبليس إلى ما أصاره، والحرص وهو الذي أخرج آدم من الجنة، والحسد وهو الذي جرأ أحد ابني آدم على أخيه، فمن وقي شر هذه الثلاثة فقد وُقي الشر، فالكفر من الكِبَر. والمعاصي من الحرص، والبغي والظلم من الحسد.

---

(١) سورة الفرقان الآية ٦٢. (٢) سورة الاسراء الآية ٩٩.

جعل الله بحكمته كل جزء من أجزاء ابن آدم ظاهره وباطنه آلة لشيء إذا استعمل فيه فهو كماله، فالعين آلة للنظر، والاذن آلة للسماع والأنف آلة للشم، واللسان للنطق، والفرج للنكاح، واليد للبطش، والرجل للمشي، والقلب للتوحيد والمعرفة، والروح للمحبة، والعقل آلة للتفكر والتدبر لعواقب الأمور الدينية والدنيوية وإيثار ما ينبغي إيثاره وإهمال ما ينبغي إهماله .

أخسر الناس صفقة من اشتغل عن الله بنفسه، بل أخسر منه من اشتغل عن نفسه بالناس.

في السنن من حديث أبي سعيد يرفعه « إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان تقول: اتق الله فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا». قوله تكفر اللسان قيل معناه تخضع له، وفي الحديث أن الصحابة لما دخلوا على النجاشي لم يكفروا له، أي لم يسجدوا ولم يخضعوا ولذلك قال له عمرو بن العاص: أيها الملك انهم لا يكفرون لك.

وإنما خضعت للسان لأنه بريد القلب وترجمانه والواسطة بينه وبين الأعضاء وقولها إنما نحن بك، أي نجاتنا بك وهلاكنا بك. ولهذا قالت: فإن استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا.

اتقوا الله وأجملوا في الطلب

جمع النبي ﷺ في قوله: «فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»(١) بين مصالح الدنيا والآخرة ونعيمها ولذاتها، ان ما ينال بتقوى الله وراحة القلب والبدن وترك الاهتمام والحرص الشديد والتعب والعناء، والكد والشقاء في طلب الدنيا إنما ينال بالإجمال في الطلب، فمن اتقى الله فاز بلذة الآخرة ونعيمها، ومن أجمل في الطلب استراح من نكد الدنيا وهمومها فالله المستعان.

---

(١) رواه ابن ماجة.

قد نادت الدنيا على نفسها لو كان في ذا الخلق من يسمع
كم واثق بالعيش أهلكته وجامع فرقت ما يجمع

فائدة: جمع النبي ﷺ بين المأثم والمغرم[1] فان المأثم يوجب خسارة الآخرة، والمغرم يوجب خسارة الدنيا.

(فائدة)

فضل الجهاد وأنواعه

قال تعالى: ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا**﴾[2] علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهاد النفس وجهاد الهوى وجهاد الشيطان وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته. ومن ترك الجهاد فإنه من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد.

قال الجنيد[3]: والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطناً، فمن نصر عليها نصر على عدوه. ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه.

العداوة بين الخير والشر

ألقى الله سبحانه العداوة بين الشيطان وبين الملك، والعداوة بين العقل

(١) أي التعوذ منهما.
(٢) سورة العنكبوت الآية ٦٩ .
(٣) هو الجنيد محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز - ابو القاسم - صوفي، من العلماء بالدين، مولده ومنشأه ووفاته ببغداد. أصل أبيه من نهاوند، وعرف الجنيد بالخزاز، لأنه كان يعمل الخز. قال أحد معاصريه: ما رأت عيناي مثله، الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه، والشعراء لفصاحته، والمتكلمون لمعانيه. وهو أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد. وقال ابن الأثير في وصفه: إمام الدنيا في زمانه. وعده العلماء شيخ مذهب التصوف، لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة، ولكونه مصوناً من العقائد الذميمة. ومن كلامه: «طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة». له «رسائل» منها ما كتبه إلى بعض اخوانه. وله «دواء الأرواح» رسالة مخطوطة. توفي سنة (٢٩٧ هـ - ٩١٠ م).

وبين الهوى، والعداوة بين النفس الأمارة وبين القلب، وابتلى العبد بذلك وجمع له بين هؤلاء وأمد كل حزب بجنود وأعوان فلا تزال الحرب سجالاً ودولاً بين الفريقين إلى أن يستولي أحدهما على الآخر، ويكون الآخر مقهوراً معه، فإذا كانت التوبة للقلب والعقل والملك فهناك السرور والنعيم واللذة والبهجة والفرح وقرة العين وطيب الحياة وانشراح الصدر، والفوز بالغنائم، وإذا كانت التوبة للنفس والهوى والشيطان، فهناك الغموم والهموم والأحزان وأنواع المكاره وضيق الصدر، وحبس الملك، فما ظنك بملك استولى عليه عدوه فأنزله عن سرير ملكه وأسره وحبسه، وحال بينه وبين خزائنه وذخائره وخدمه وصيرها له، ومع هذا فلا يتحرك الملك لطلب ثأره ولا يستغيث بمن يغيثه ولا يستنجد بمن ينجده، وفوق هذا الملك ملك قاهر لا يقهر، وغالب لا يغلب، وعزيز لا يذل، فأرسل إليه ان استنصرتني نصرتك وان استغثت بي أغثتك، وان التجأت إليّ أخذت بثأرك، وان هربت إليّ وأويت إليّ سلطتك على عدوك وجعلته تحت أسرك.

فإن قال هذا الملك المأسور قد شد عدوي وثاقي وأحكم رباطي واستوثق مني بالقيود ومنعني من النهوض إليك، والفرار إليك والمسير إلى بابك، فإن أرسلت جنداً من عندك يحل وثاقي ويفك قيودي ويخرجني من حبسه، أمكنني أن أوافي بابك وإلا لم يمكنني مفارقة محبسي ولا كسر قيودي. فان قال ذلك احتجاجاً على ذلك السلطان ودفعاً لرسالته ورضا بما هو فيه عند عدوه خلاه السلطان الأعظم وحاله وولاه ما تولى، وإن قال ذلك افتقاراً إليه واظهاراً لعجزه وذله وأنه أضعف وأعجز أن يسير إليه بنفسه، ويخرج من حبس عدوه ويتخلص منه بحوله وقوته، وأن من تمام نعمته ذلك عليه كما أرسل إليه هذه الرسالة أن يمده من جنده ومماليكه بمن يعينه على الخلاص ويكسر باب محبسه ويفك قيوده، فإن فعل به ذلك فقد أتم إنعامه عليه وإن تخلى عنه فلم يظلمه ولا منعه حقاً هو له، وان حمده وحكمته اقتضى منعه وتخليته في محبسه، ولا سيما إذا علم أن الحبس حبسه وأن هذا العدو الذي حبسه مملوك من مماليكه وعبد من عبيده، ناصيته بيده لا يتصرف إلا بإذنه ومشيئته، فهو غير ملتفت إليه ولا خائف منه، ولا معتقد أن له شيئاً من الأمر ولا

بيده نفع ولا ضر. بل هو ناظر إلى مالكه ومتولي أمره ومن ناصيته بيده قد أفرده بالخوف والرجاء والتضرع إليه، والالتجاء والرغبة والرهبة، فهناك تأتيه جيوش النصر والظفر.

أعلى الهمم في طلب العلم علم الكتاب والسنة والفهم عن الله ورسوله نفس المراد وعلم حدود المنزل، وأخس همم طلاب العلم قصر همته على تتبع شواذ المسائل وما لم ينزل ولا هو واقع، أو كانت همته معرفة الاختلاف وتتبع أقوال الناس، وليس له همة إلى معرفة الصحيح من تلك الأقوال وقل أن ينتفع واحد من هؤلاء بعلمه. وأعلى الهمم في باب الإرادة أن تكون الهمة متعلقة بمحبة الله والوقوف مع مراده الديني الأمري، وأسفلها أن تكون الهمة واقفة مع مراد صاحبها من الله، فهو إنما يعبده لمراده منه لا لمراد الله منه، فالأول يريد الله ويريد مراده. والثاني يريد من الله وهو فارغ عن إرادته.

علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا قالت أفعالهم لا تسعموا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع الطرق: إذا كان الله وحده حظك ومرادك فالفضل كله تابع لك يزدلف[1] اليك أي أنواعه تبدأ به، وإذا كان حظك ما تنال منة فالفضل موقوف عنك لأنه بيده تابع له فعل من أفعاله، فإذا حصل لك حصل لك الفضل بطريق الضمن والتبع، وإذا كان الفضل مقصودك لم يحصل الله بطريق الضمن والتبع، فان كنت قد عرفته وأنست به ثم سقطت إلى طلب الفضل حرمك إياه عقوبة لك ففاتك الله وفاتك الفضل.

صبر الرسول وانتصاره ﷺ

لما خرج رسول الله ﷺ من حصر العدو دخل حصر النصر، فعبثت أيدي سراياه بالنصر في الأطراف فطار ذكره في الآفاق فصار الخلق معه ثلاثة أقسام:

---

(١) يتقرب منك.

مؤمن به ومسالم له وخائف منه ألقى الصبر في مزرعة ﴿**فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل**﴾(١) فإذا أغصان النبات تهتز بخزامى(٢) ﴿**والحرمات قصاص**﴾(٣) فدخل مكة دخولاً ما دخله أحد قبله ولا بعده. حوله المهاجرون والأنصار لا يبين منهم إلا الحدق(٤) والصحابة على مراتبهم. والملائكة فوق رؤوسهم وجبريل يتردد بينه وبين ربه، وقد أباح له حرمه الذي لم يحله لأحد سواه، فلمّا قايس بين هذا اليوم وبين يوم ﴿ **وإذْ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك**﴾(٥) فأخرجوه ثاني اثنين، دخل وذقنه تمس قربوس(٦) سرجه خضوعاً وذلاً لمن ألبسه ثوب هذا العز الذي رفعت إليه فيه الخليقة رؤوسها ومدت إليه الملوك أعناقها، فدخل مكة مالكاً مؤيداً منصوراً، وعلا كعب بلال فوق الكعبة بعد أن كان يجر في الرمضاء على جمر الفتنة. فنشر بزاً(٧) طوي عن القوم من يوم قوله «أحد أحد» ورفع صوته بالأذان فأجابته القبائل من ناحية فأقبلوا يؤمون الصوت. فدخلوا في دين الله أفواجاً وكانوا قبل ذلك يأتون آحاداً. فلما جلس الرسول على منبر العز. وما نزل عنه قط. مدت الملوك أعناقها بالخضوع إليه فمنهم من سلم إليه مفاتيح البلاد، ومنهم من سأله الموادعة والصلح ومنهم من أقر بالجزية والصغار. ومنهم من أخذ في الجمع والتأهب للحرب، ولم يدر أنه لم يزد على جمع الغنائم وسوق الأسارى إليه، فلما تكامل نصره وبلغ الرسالة وأدى الأمانة وجاءه منشور ﴿**إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً، وينصرك الله نصراً عزيزاً**﴾(٨) وبعده توقيع ﴿إذا جاء

---

(١) سورة الأحقاف الآية ٣٥.

(٢) الخزامى: نبات، زهره أطيب الأزهار، والتبخير به يذهب كل رائحة منتنة.

(٣) سورة البقرة الآية ١٩٤.

(٤) الحدق: الحدقة: سواد العين.

(٥) سورة الانفال الآية ٣٠.

(٦) قربوس: قسم السرج المرتفع، وهما قربوسان.

(٧) فنشر بزّاً: البزّ: نوع من الثياب ومنه البزة.

(٨) سورة الفتح الآيات ١ و٢ و٣.

نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾[1] جاءه رسول ربه يخيره بين المقام في الدنيا وبين لقائه، فاختار لقاء ربه شوقاً إليه، فتزينت الجنان ليوم قدوم روحه الكريمة لا كزينة المدينة يوم قدوم الملك.

إذا كان عرش الرحمن قد اهتز لموت بعض أتباعه[2] فرحاً واستبشاراً بقدوم روحه فكيف بقدوم روح سيد الخلائق، فيا منتسباً إلى غير هذا الجناب ويا واقفاً بغير هذا الباب، ستعلم يوم الحشر أي سريرة تكون عليها **﴿يوم تبلى السرائر﴾**[3].

الغرور بالأماني

يا مغروراً بالأماني: لعن إبليس وأهبط من منزل العز بترك سجدة واحدة أمر بها. وأخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها وحجب القاتل عنها بعد أن رآها عياناً بملء كف من دم، وأمر بقتل الزاني أشنع القتلات بإيلاج قدر الأنملة فيما لا يحل - وأمر بإيساع الظهر سياطاً بكلمة قذف أو بقطرة من سكر. وأبان عضواً من أعضائك بثلاثة دراهم[4] فلا تأمنه أن يحبسك في النار بمعصية واحدة من معاصيه **﴿ولا يخاف عقباها﴾**[5].

دخلت امرأة النار في هرة[6]، وأن الرجل ليتكلم الكلمة ولا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب، وان الرجل ليعمل بطاعة الله ستين سنة فإذا كان عند الموت جار في الوصية فيختم له بسوء عمله فيدخل النار. العمر بآخره والعمل بخاتمته.

---

(١) سورة النصر الآيتان ١ و٢.
(٢) أي بعض أتباع رسول الله ﷺ ويقال أنه سعد بن معاذ الأنصاري كبير الأوس.
(٣) سورة الطارق الآية ٩.
(٤) تقطع يد السارق بثلاثة دراهم سرقها.
(٥) سورة الشمس الآية ١٥.
(٦) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق ومسلم في باب التوبة وابن ماجة في باب الزهد.

من أحدث قبل السلام بطل ما مضى من صلاته. ومن أفطر قبل غروب الشمس ذهب صيامه ضائعاً، ومن أساء في آخر عمره لقي ربه بذلك الوجه.

لو قدمت لقمة وجدتها[1] ولكن يؤذيك الشره.

كم جاء الثواب يسعى اليك فوقف بالباب فرده بواب سوف ولعل وعسى. كيف الفلاح بين إيمان ناقص وأمل زائد ومرض لا طبيب له ولا عائد. وهوى مستيقظ وعقل راقد ساهياً في غمرته عمهاً[2] في سكرته سابحاً في لجة جهله، مستوحشاً من ربه مستأنساً بخلقه. ذكر الناس فاكته وقوته. وذكر الله حبسه وموته لله منه جزء يسير من ظاهره، وقلبه ويقينه لغيره:

لا كان من لسواك فيه بقية　　　يجد السبيل بها إليه العذل

أول المخلقوات القلم وآخرها آدم عليه السلام

كان أول المخلوقات القلم ليكتب المقادير قبل كونها، وجعل آدم آخر المخلوقات وفي ذلك حكم:

(أحدها): تمهيد الدار قبل الساكن.

(الثانية): أنه الغاية التي خلق لأجلها ما سواه من السموات والأرض والشمس والقمر والبر والبحر.

(الثالثة): ان أحذق الصناع يختم عمله بأحسنه وغايته كما يبدؤه بأساسه ومبادئه.

(الرابعة): أن النفوس متطلعة إلى النهايات والأواخر دائماً، ولهذا قال موسى للسحرة أولاً ﴿**ألقوا ما أنتم ملقون**﴾[3] فلما رأى الناس فعلهم تطلعوا إلى ما يأتي بعده.

(الخامسة): أن الله سبحانه أخر أفضل الكتب والأنبياء والأمم إلى آخر

---

(١) أي لو قدمها هنا لوجدها هناك.

(٢) العمه: التردد والتحيد.

(٣) سورة يونس الآية ٨٠.

الزمان، وجعل الآخرة خيراً من الأولى، والنهايات أكمل من البدايات، فكم بين قول الملك للرسول : اقرأ . فيقول : ما أنا بقارىء ، وبين قوله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾[1] .

(**السادسة**): أنه سبحانه جمع ما فرقه في العالم في آدم فهو العالم الصغير وفيه ما في العالم الكبير.

(**السابعة**): أنه خلاصة الوجود وثمرته فناسب أن يكون خلقه بعد الموجودات .

(**الثامنة**): أن من كرامته على خالقه أنه هيأ له مصالحه وحوائجه وآلات معيشته وأسباب حياته، فما رفع رأسه إلا وذلك كله حاضر عتيد .

(**التاسعة**): انه سبحانه أراد أن يظهر شرفه وفضله على سائر المخلوقات فقدمها عليه في الخلق. ولهذا قالت الملائكة: ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق خلقاً أكرم عليه منا . فلما خلق آدم وأمرهم بالسجود له ظهر فضله وشرفه عليهم بالعلم والمعرفة، فلما وقع في الذنب ظنت الملائكة أن ذلك الفضل قد نسخ ولم تطلع على عبودية التوبة الكامنة، فلما تاب إلى ربه وأتى بتلك العبودية علمت الملائكة أن لله في خلقه سراً لا يعلمه سواه .

(**العاشرة**): أنه سبحانه لما افتتح خلق هذا العالم بالقلم كان من أحسن المناسبة أن يختمه بخلق الإنسان فإن القلم آلة العلم والإنسان هو العالم ولهذا أظهر سبحانه فضل آدم على الملائكة بالعلم الذي خص به دونهم .

وتأمل كيف كتب سبحانه عذر آدم قبل هبوطه إلى الأرض ونبه الملائكة على فضله وشرفه ونوه باسمه قبل إيجاده بقوله ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾[2] وتأمل كيف وسمه بالخلافة وتلك ولاية له قبل وجوده. وأقام عذره قبل الهبوط بقوله ﴿**في الأرض**﴾ والمحب يقيم عذر المحبوب قبل جنايته، فلما صوره ألقاه على باب الجنة

---

(١) سورة المائدة الآية ٣.

(٢) سورة البقرة الآية ٣٠.

أربعين سنة، لأن دأب المحب الوقوف على باب الحبيب. رمى به في طريق ذل ﴿لم يكن شيئاً﴾ لئلا يعجب يوم ﴿اسجدوا﴾ كان إبليس يمر على جسده فيعجب منه ويقول: لأمر ما قد خلقت، ثم يدخل من فيه ويخرج من دبره ويقول: لئن سلطت عليك لأهلكنك، ولئن سلطت عليَّ لأعصينك، ولم يعلم أن هلاكه على يده، رأى طيناً مجموعاً فاحتقره، فلما صور الطين دبّ فيه داء الحسد فلما نفخ فيه الروح مات الحاسد. فلما بسط له بساط العز عرضت عليه المخلوقات فاستحضر مدعي ﴿ونحن نسبح﴾ إلى حاكم ﴿أنبئوني﴾وقد أخفى الوكيل عنه بينة ﴿وعلم﴾ فنكسوا رؤوس الدعاوي على صدور الاقرار. فقام منادي التفضيل في أندية الملائكة ينادي ﴿اسجدوا﴾ فتطهروا من حدث دعوى ﴿ونحن﴾ بماء العذر في آنية ﴿لا علم لنا﴾ فسجدوا على طهارة التسليم وقام إبليس ناحية لم يسجد لأنه خبث، وقد تلون بنجاسة الاعتراض، وما كانت نجاسته تتلافى بالتطهير لأنها عينية فلما تمّ كمال آدم قيل لا بد من خال جمال على وجه ﴿اسجدوا﴾ فجرى القدر بالذنب ليتبين أثر العبودية في الذل يا آدم لو عفى لك عن تلك اللقمة لقال الحاسدون كيف فضل ذو شره لم يصبر على شجرة لولا نزولك ما تصاعدت صعداء الأنفس، ولا نزلت رسائل (هل من سائل) ولا فاحت روائح (ولخلوف فم الصائم)[1] فتبين حينئذ أن ذلك التناول لم يكن عن شره.

يا آدم ضحكك في الجنة لك وبكاؤك في دار التكليف لنا.

ما ضر من كسره عزي إذا جبره فضلي إنما تليق خلعة العز ببدن الانكسار أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي. ما زالت تلك الأكلة تعاوده حتى استولى داؤه على أولاده فأرسل اليهم اللطيف الخبير الدواء على أيدي أطباء الوجود ﴿فإما يأتينكم مني هدى فمن اتّبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾[2] فحماهم الطبيب بالمناهي وحفظ القوة بالأوامر واستفرغ أخلاطهم الرديئة بالتوبة، فجاءت العافية من كل ناحية.

---

(١) خلوف فم الصائم: رائحة فمه.

(٢) سورة طه الآية ١٢٣.

فيا من ضيع القوة ولم يحفظها، وخلط في مرضه وما احتمى، ولا صبر على مرارة الاستفراغ لا تنكر قرب الهلاك فالداء مترام إلى الفساد. لو ساعد القدر فأعنت الطبيب على نفسك بالحمية من شهوة خسيسة ظفرت بأنواع اللذات وأصناف المشتهيات. ولكن بخار الشهوة غطى عين البصيرة فظننت أن الحزم بيع الوعد بالنقد يا لها بصيرة عمياء، جزعت من صبر ساعة واحتملت ذل الأبد، سافرت في طلب الدنيا وهي عنها زائلة، وقعدت عن السفر إلى الآخرة وهي اليها راحلة

إذا رأيت الرجل يشتري الخسيس بالنفيس، ويبيع العظيم بالحقير فاعلم بأنه سفيه.

مواعظ وحكم

لما سلم لآدم أصل العبودية لم يقدح فيه الذنب: (ابن آدم لو لقيتني بقراب الارض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لقيتك بقرابها مغفرة).

لما علم السيد أن ذنب عبده لم يكن قصداً لمخالفته ولا قدحاً في حكمته علمه كيف يعتذر إليه ﴿**فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه**﴾[1] العبد لا يريد بمعصيته مخالفة سيده ولا الجرأة على محارمه، ولكن غلبات الطبع وتزيين النفس والشيطان وقهر الهوى والثقة بالعفو ورجاء المغفرة، هذا من جانب العبد. وأما من جانب الربوبية فجريان الحكم وإظهار عز الربوبية وذل العبودية وكمال الاحتياج، وظهور آثار الأسماء الحسنى كالعفو والغفور والتواب والحليم لمن جاء تائباً نادماً والمنتقم والعدل وذي البطش الشديد لمن أصر ولزم المجرة. فهو سبحانه يريد أن يري عبده تفرده بالكمال ونقص العبد وحاجته إليه. ويشهده كمال قدرته وعزته وكمال مغفرته وعفوه ورحمته، وكمال بره وستره وحلمه وتجاوزه وصفحه، وإن رحمته به إحسان إليه لا معاوضة، وأنه إن لم يتغمده برحمته وفضله فهو هالك لا محالة.

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٧.

كم في تقدير الذنب من حكمة وكم فيه مع تحقيق التوبة للعبد من مصلحة ورحمة التوبة من الذنب كشرب الدواء للعليل ورب علة كانت سبب الصحة.

لعل عتبك محمود عواقبه ... وربما صحت الأجساد بالعلل

لولا تقدير الذنب هلك ابن آدم من العجب.

ذنب يذل به أحب إليه من طاعة يدل بها عليه.

شمعة النصر إنما تنزل في شمعدان الانكسار.

لا يكرم العبد نفسه بمثل إهانتها، ولا يعزها بمثل ذلها ولا يريحها بمثل تعبها كما قيل.

سأتعب نفسي أو أصادف راحة ... فإن هوان النفس في كرم النفس

ولا يشبعها بمثل جوعها، ولا يؤمنها بمثل خوفها، ولا يؤنسها بمثل وحشتها من كل ما سوى فاطرها وبارئها ولا يحييها بمثل إماتتها كما قيل:

موت النفوس حياتها ... من شاء أن يحيى يموت

شراب الهوى حلو ولكنه يورث الشرق[1] من تذكر خنق الفخ هان عليه هجران الحبة.

يا معرقلاً في شرك الهوى جمزة[2] عزم وقد خرقت الشبكة.

لا بد من نفوذ القدر فاجنح للسلم، لله ملك السموات والأرض واستقرض منك حبة فبخلت بها وخلق سبعة أبحر وأحب منك دمعة فقحطت عينك بها.

إطلاق البصر ينقش في القلب صورة المنظور والقلب كعبة والمعبود لا يرضى بمزاحمة الأصنام.

لذات الدنيا كسوداء وقد غلبت عليك، والحور العين يعجبن من سوء

---

(١) أي الغصة.

(٢) الجمز: العدو السريع.

اختيارك عليهن، غير أن زوبعة الهوى إذا ثارت سفت[1] في عين البصيرة فخفيت الجادة.

سبحان الله تزينت الجنة للخطاب فجدوا في تحصيل المهر وتعرف رب العزة إلى المحبين بأسمائه وصفاته فعملوا على اللقاء وأنت مشغول بالجيف.

لا كـان من لسـواك منـه قلبـه ولك اللسان مع الوداد الكاذب

المعرفة بساط لا يطأ عليه إلا مقرب، والمحبة نشيد لا يطرب عليه إلا محب مغرم.

الحب غدير في صحراء ليست عليه جادة فلهذا قل وارده.

المحب يهرب إلى العزلة والخلوة بمحبوبه والأنس يذكره كهرب الحـوت إلى الماء والطفل إلى أمه.

وأخـرج من بـين البيـوت لعلني أحدث عنك القلب بـالسر خـاليا

ليس للعابد مستـراح إلا تحت شجرة ﴿طـوبى﴾ ولا للمحب قرار إلا يـوم المزيد، اشتغل به في الحياة يكفك ما بعد الموت.

يا منفقاً بضاعة العمر في مخالفـة حبيبه والبعـد منه ليس في أعـدائك أضـر عليك منك.

مـا تـبـلغ الأعــداء مــن جــاهــل مــا يـبـلغ الجــاهــل مـن نـفـسـه

الهمـة العلية من استعـد صاحبهـا للقاء الحبيب، وقـدم التقادم بـين يدي الملتقى فاستبشر عند القدوم **﴿وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم مـلاقوه وبشر المؤمنين﴾**[2].

تالله ما عدا عليك العدو إلا بعد أن تولى عنك الولي فلا تظن أن الشيطان غلب ولكن الحافظ أعرض.

---

(١) سفت: ذرت.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٣.

احذر نفسك فما أصابك بلاء قط إلا منها ولا تهادنها، فوالله ما أكرمها من لم يهنها، ولا أعزها من لم يذلها، ولا جبرها من لم يكسرها، ولا أراحها من لم يتعبها، ولا أمنها من لم يخوفها، ولا فرحها من لم يحزنها.

سبحان الله ظاهرك متجمل بلباس التقوى وباطنك باطية[1] لخمر الهوى فكلما طيبت الثوب فاحت رائحة المسكر من تحته، فتباعد منك الصادقون وانحاز إليك الفاسقون.

يدخل عليك لص الهوى وأنت في زاوية التعبد فلا يرى منك طرداً له فلا يزال بك حتى يخرجك من المسجد.

أصدق في الطلب وقد جاءتك المعونة.

قال رجل لمعروف: علمني المحبة. فقال المحبة لا تجيء بالتعليم.

هو الشوق مدلولاً على مقتل الفنا   إذا لم يعد صبا بلقيا حبيبه

ليس العجب من قوله ﴿يحبونهُ﴾ إنما العجب من قوله ﴿يحبهم﴾.

ليس العجب من فقير مسكين يحب محسناً إليه! إنما العجب من محسن يحب فقيراً مسكيناً.

الله يتجلى لعباده

القرآن كلام الله وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته، فتارة يتجلى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال فتخضع الأعناق وتنكسر النفوس وتخشع الأصوات ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء، وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال وهو كمال الأسماء وجمال الأفعال الدال على كمال الذات فيستنفد حبه من قلب العبد قوة الحب كلها بحسب ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله فيصبح فؤاد عبده فارغاً إلا من محبته،فإذا أراد منه الغير أن يعلق تلك المحبّة به أبى قلبه وأحشاؤه ذلك كل الإباء كما قيل:

---

(١) الباطية: الناجود، الاناء القذر من فخار ونحوه.

يـراد من القـلب نسيـانكـم   وتـأبى الـطبـاع عـلى النـاقـل

فتبقى المحبـة طبعاً لا تكلفـاً، وإذا تجلى بصفـات الـرحمـة والبـر واللطف والإحسان انبعثت قوة الرجاء من العبد وانبسط أمله وقوي طمعـه وسار إلى ربـه وحادى الرجاء يحدو ركاب سيره. وكلما قوي الرجاء جد في العمل، كما أن الباذر كلما قوى طمعه في المغل غلق أرضه بالبذر، وإذا ضعف رجاؤه قصر في البـذر. وإذا تجلى بصفات العـدل والانتقام والغضب والسخط والعقـوبة انقمعت النفس الأمارة وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المحـرمات، وانقبضت أعنـة[1] رعونتهـا، فأحضـرت المطيـة حظهـا من الخـوف والخشية والحذر.

وإذا تجلى بصفات الأمـر والنهي والعهد والـوصية وإرسـال الرسـل وإنزال الكتب وشـرع الشرائـع انبعثت منها قـوة الامتثال والتنفيـذ لأوامره والتبليـغ لهـا والتواصي بهـا، وذكرها وتذكرها، والتصديق بالخبر والامتثـال للطلب والاجتناب للنهي.

وإذا تجـلى بصفـات السمـع والبصـر والعلم انبعث من العبـد قـوة الحيـاء فيستحيي من ربه أن يراه على ما يكره أو يسمع منه ما يكره أو يخفي في سريرته ما يمقته عليه فتبقى حركاته وأقواله وخواطـره موزونـة بميزان الشـرع غير مهملة ولا مرسلة تحت حكم الطبيعة والهوى.

وإذا تجلى بصفات الكفاية والحسب والقيام بمصالح العباد وسـوق أرزاقهم إليهم، ودفـع المصائب عنهم ونصـرة لأوليائـه وحمايتـه لهم انبعثت من العبد قـوة التوكل عليه والتفويض إليه والرضا به. في كل ما يجريه على عبده ويقيمه فيه ممـا يرضى به سبحانه، والتوكل معنى يلتئم من علم العبد بكفاية الله وحسن اختياره لعبده وثقته به ورضاه بما فعله به ويختاره له.

---

(1) أعنة: جمع عنان وهو ما تمسك به الدابة.

وإذا تجلى بصفات العز والكبرياء أعطت نفسه المطمئنة ما وصل إليه من الذل لعظمته والانكسار لعزته، والخضوع لكبريائه، وخشوع القلب والجوارح له فتعلوه السكينة والوقار في قلبه ولسانه وجوارحه وسمته ويذهب طيشه وقوته وحدته.

وجماع ذلك أنه سبحانه يتعرف إلى العبد بصفات الٰهيته تارة وبصفات ربوبيته تارة، فيوجب له شهود صفات الإلٰهية المحبة الخاصة والشوق إلى لقائه والأنس والفرح به والسرور بخدمته والمنافسة في قربه، والتودد إليه بطاعته واللهج بذكره والفرار من الخلق إليه، ويصير هو وحده همه دون سواه، ويوجب له شهود صفات الربوبية التوكل عليه والافتقار إليه والاستعانة به. والذل والخضوع والانكسار له، وكمال ذلك أن يشهد ربوبيته في الٰهيته والٰهيته في ربوبيته. وحمده في ملكه وعزه في عفوه. وحكمته في قضائه وقدره. ونعمته في بلائه وعطاءه في منعه، وبره ولطفه وإحسانه ورحمته في قيوميته. وعدله في انتقامه، وجوده وكرمه في مغفرته وستره وتجاوزه ويشهد حكمته ونعمته في أمره ونهيه. وعزه في رضاه وغضبه، وحلمه في إمهاله، وكرمه في إقباله وغناه في اعراضه.

وأنت إذا تدبرت القرآن وأجرته من التحريف وأن تقضي عليه بآراء المتكلمين وأفكار المتكلفين أشهدك ملكاً قيوماً فوق سمواته علىٰ عرشه يدبر أمر عباده يأمر وينهى ويرسل الرسل وينزل الكتب ويرضى ويغضب ويثيب ويعاقب ويعطي ويمنع ويعز ويذل ويخفض ويرفع، يرى من فوق سبع. ويسمع ويعلم السر والعلانية فعال لما يريد، موصوف بكل كمال منزه عن كل عيب، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ليس لعباده من دونه ولي ولا شفيع.

لا تحزن ان الله معنا

لما بايع الرسول ﷺ أهل العقبة أمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة فعلمت قريش أن أصحابه قد كثروا وأنهم سيمنعونه فأعملت آراءها في استخراج الحيل،

فمنهم من رأى الحبس، ومنهم من رأى النفي، ثم اجتمع رأيهم على القتل، فجاء البريد بالخبر من السماء وأمره أن يفارق المضجع فبات عليّ مكانه ونهض الصديق لرفقة السفر، فلما فارقا بيوت مكة اشتد الحذر بالصديق فجعل يذكر الرصد فيسير أمامه. وتارة يذكر الطلب فيتأخر وراءه. وتارة عن يمينه وتارة عن شماله إلى أن انتهيا إلى الغار فبدأ الصديق بدخوله ليكون وقاية له ان كان ثم مؤذ وأنبت الله شجرة لم تكن قبل فأظلّت المطلوب وأضلت الطالب وجاءت عنكبوت فحازت وجه الغار فحاكت ثوب نسجها على منوال الستر، فأحكمت الشقة حتى عمي على القائف[1] المطلب، وأرسل حمامتين فاتخذتا هناك عشاً جعل على أبصار الطالبين غشاوة، وهذا أبلغ في الاعجاز من مقاومة القوم بالجنود، فلما وقف القوم على رؤوسهم وصار كلامهم بسمع الرسول والصديق، قال الصديق وقد اشتد به القلق: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا تحت قدميه. فقال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما. لما رأى الرسول حزنه قد اشتد لكن لا على نفسه قوى قلبه ببشارة ﴿**لا تحزن ان الله معنا**﴾[2] فظهر سر هذا الاقتران في المعية لفظاً كما ظهر حكماً ومعنى، إذ يقال رسول الله وصاحب رسول الله، فلما مات ﷺ قيل خليفة رسول الله، ثم انقطعت اضافة الخلافة بموته فقيل أمير المؤمنين، فأقاما في الغار ثلاثاً ثم خرجا منه ولسان القدر يقول لتدخلنها دخولاً لم يدخله أحد قبلك، ولا ينبغي لأحد من بعدك، فلما استقلا على البيداء لحقهما سراقة بن مالك فلما شارف الظفر أرسل عليه الرسول سهماً من سهام الدعاء فساخت قوائم فرسه في الأرض إلى بطنها فلما علم أنه لا سبيل له عليهما أخذ يعرض المال على من قد رد مفاتيح الكنوز ويقدم الزاد إلى شبعان «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» كانت تحفة ثاني اثنين مدخرة للصديق دون الجمع فهو الثاني في الاسلام، وفي بذل النفس، وفي الزهد، وفي الصحبة، وفي الخلافة، وفي العمر،

---

(١) القائف: الذي يتقفى الأثر.

(٢) سورة التوبة الآية ٤٠.

وفي سبب الموت، لأن الرسول ﷺ مات عن أثر السم وأبو بكر سم فمات، أسلم على يديه من العشرة عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، وكان عنده يوم أسلم أربعون ألف درهم فأنفقها أحوج ما كان الإسلام إليها. فلهذا جلبت نفقته عليه «ما نفعني مال ما نفعني مال أبي بكر» فهو خير من مؤمن آل فرعون، لأن ذلك كان يكتم إيمانه والصديق أعلن به، وخير من مؤمن آل ياسين لأن ذلك جاهد ساعة، والصديق جاهد سنين، عاين طائر الفاقة يحوم حول حب الإيثار ويصيح ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾[1] فألقى له حب المال على روض الرضا واستلقى على فراش الفقر فنقل الطائر الحب إلى حوصلة المضاعفة ثم علا على أفنان شجرة الصدق يغرد بفنون المدح. ثم قام في محاريب الإسلام يتلو﴿وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى﴾[2] نطقت بفضله الآيات والأخبار واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار.

فيا مبغضيه في قلوبكم من ذكره نار، كلما تليت فضائله علا عليهم الصغار. أترى لم يسمع الروافض الكفار ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار﴾[3] دعى إلى الإسلام فما تلعثم ولا أبى، وسار على المحجة فما زال ولا كبا. وصبر في مدته من مدى العدى على وقع الشبا، وأكثر في الانفاق فما قلل حتى تخلل بالعبا[4].

تالله لقد زاد على السبك في كل دينار دينار ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار﴾[3] من كان قرين النبي في شبابه. من ذا الذي سبق إلى الإيمان من أصحابه. من الذي أفتى بحضرته سريعاً في جوابه، من أول من صلى معه. من آخر من صلى به. من ذا الذي ضاجعه بعد الموت في ترابه، فاعرفوا حق الجار.

نهض يوم الردة بفهم واستيقاظ، وأبان من نص الكتاب معنى دق عن حديد الألحاظ، فالمحب يفرح بفضائله والمبغض يغتاظ. حسرة الرافضي أن يفر من

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٥.

(٢) سورة الليل الآية (١٧ ـ ١٨).

(٣) سورة التوبة الآية ٤٠.

(٤) أي حتى لقي وجه ربه.

مجلس ذكره ولكن أين الفرار. كم وقى الرسول بالمال والنفس. وكان أخص به في حياته وهو ضجيعه في الرمس[1]. فضائله جلية وهي خلية عن اللبس. يا عجباً من يغطي عين ضوء الشمس في نصف النهار، لقد دخلا غاراً لا يسكنه لابث، فاستوحش الصديق من خوف الحوادث، فقال الرسول ما ظنك باثنين والله الثالث، فنزلت السكينة فارتفع خوف الحادث، فزال القلق وطاب عيش الماكث. فقال مؤذن النصر ينادي على رؤوس منائر الأمصار ﴿**ثاني اثنين إذ هما في الغار**﴾.

حبه والله رأس الحنيفية، وبغضه يدل على خبث الطوية، فهو خير الصحابة والقرابة والحجة على ذلك قوية، لولا صحة إمامته ما قيل ابن الحنفية، مهلاً مهلاً فإن دم الروافض قد فار.

والله ما أحببناه لهوانا، ولا نعتقد في غيره هواناً ولكن أخذنا بقول علي وكفانا: رضيك رسول الله لديننا، أفلا نرضاك لدنيانا، تالله لقد أخذت من الروافض بالثأر. تالله لقد وجب حق الصديق علينا فنحن نقضي بمدائحه ونقر بما نقر به من السنى[2] عينا. فمن كان رافضياً فلا يعد إلينا وليقل لي أعذار.

(تنبيه)

اجتنب من يعادي أهل الكتاب والسنة لئلا يعديك خسرانه. احترز من عدوين هلك بهما أكثر الخلق صاد عن سبيل الله بشبهاته وزخرف قوله. ومفتون بدنياه ورئاسته.

من خلق فيه قوة واستعداد لشيء كانت لذته في استعمال تلك القوة فيه. فلذة من خلقت فيه قوة واستعداد للجماع استعمال قوته فيه. ولذة من خلقت فيه قوة الغضب والتوثب استعمال قوته الغضبية في متعلقها. ومن خلقت فيه قوة

---

(١) الرمس: القبر.

(٢) السنى: الضوء اللامع، البرق.

الأكل والشرب فلذته باستعمال قوته فيها. ومن خلقت فيه قوة العلم والمعرفة فلذته باستعمال قوته وصرفها إلى العلم، ومن خلقت فيه قوة الحب لله والإبانة إليه والعكوف بالقلب عليه والشوق إليه والأنس به، فلذته ونعيمه استعمال هذه القوة في ذلك، وسائر اللذات دون هذه اللذة مضمحلة فانية وأحمد عاقبتها أن تكون لا له ولا عليه.

(تنبيه)

مواعظ وحكم

يا أيها الأعزل احذر فراسة المتقى فإنه يرى عورة عملك من وراء ستر «اتقوا فراسة المؤمن»[1].

سبحان الله: في النفس كبر إبليس، وحسد قابيل، وعتو عاد وطغيان ثمود، وجرأة نمرود، واستطالة فرعون، وبغي قارون، وقحة هامان[2]، وهوى بلعام[3]، وحيل أصحاب السبت، وتمرد الوليد، وجهل أبي جهل. وفيها من أخلاق البهائم حرص الغراب، وشره الكلب، ورعونة الطاووس، ودناءة الجمل، وعقوق الضب، وحقد الجمل، ووثوب الفهد، وصولة الأسد، وفسق الفأرة وخبث الحية، وعبث القرد، وجمع النملة، ومكر الثعلب، وخفة الفراش، ونوم الضبع. غير أن الرياضة والمجاهدة تذهب ذلك، فمن استرسل مع طبعه فهو من هذا الجند ولا تصلح سلعته لعقد **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم﴾**[4] فما اشترى إلا سلعة هذبها الإيمان فخرجت من طبعها إلى بلد سكانه التائهون العابدون.

سلم المبيع قبل أن يتلف في يدك فلا يقبله المشتري، قد علم المشتري بعيب السلعة قبل أن يشتريها فسلمها ولك الأمان من الرد.

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) القح: ـ بالضم ـ الخالص من اللؤم والكرم وكل شيء، والجافي من الناس.

(٣) بلعام: عراف أرسله ملك مؤاب ليلعن إسرائيل، فبارك ولم يلعن.

(٤) سورة التوبة الآية ١١١.

قدر السلعة بقدر مشتريها، والثمن المبذول فيها والمنادي عليها، فإذا كان المشتري عظيماً والثمن خطيراً والمنادي جليلاً كانت السلعة نفيسة:

يا بائعاً نفسه بيع الهوان لو استرجعت ذا البيع قبل الفوات لم تخب

وبائعاً طيب عيش ما له خطر … بطيف عيش من الآلام منتهب
غبنت والله غبناً فاحشاً ولدى … يوم التغابن تلقى غاية الحرب
ووارداً صفو عيش كله كدر … أمامك الورد حقاً ليس بالكذب
وحاطب الليل في الظلماء منتصباً … لكل داهية تدنى من العطب
ترجو الشفاء بأحداق بها مرض … فهل سمعت ببرء جاء من عطب
ومفنياً نفسه في إثر أقبحهم … وصفاً للطخ جمال فيه مستلب
وواهباً نفسه من مثل ذا سفهاً … لو كنت تعرف قدر النفس لم تهب
شاب الصبا والتصابي بعد لم يشب … وضاع وقتك بين اللهو واللعب
وشمس عمرك قد حان الغروب لها … والفيء في الأفق الشرقي لم يغب
وفاز بالوصل من قد جد وانقشعت … عن أفقه ظلمات الليل والسحب
كم ذا التخلف والدنيا قد ارتحلت … ورسل ربك قد وافتك في الطلب
ما في الديار وقد سارت ركائب من … تهواه للصب من شكر ولا أرب
فافرش الخد ذياك التراب وقل … ما قاله صاحب الأشواق والحقب
ما ربع مية محفوفاً يطيف به … غيلان أشهى له من ربعك الخرب
منازلاً كان يهواها ويألفها … أيام كان منال الوصل عن كثب
ولا الخدود ولو أدمين من ضرج … أشهى إلى ناظري من ربعك الخرب
وكلما جليت تلك الربوع له … يهوي إليها هوي الماء في الصبب
أحيا له الشوق تذكار العهود بها … فلو ادعى القلب للسلوان لم يجب
هذا وكم منزل في الأرض يألفه … وما له في سواها الدهر من رغب
ما في الخيام أخو وجد يريحك ان … بثثته بعض شأن الحب فاغترب
وأسر في غمرات الليل مهتدياً … بنفحة الطيب لا بالعود والحطب

وعـاد كـل أخـي جبـن ومعـجـزة وحـارب النفس لا تلقيك في الحـرب
وخـذ لنفسـك نـوراً تستضيء بـه يـوم اقتسام الـورى الأنـوار بـالـرتب

* * *

إن كـان يوجب صبـري رحمتي فرضـاً بسـوء جـالي وحـل للضنـا بـدني
منحتـك الـروح لا أبغي لهـا ثمنـاً إلا رضـاك ووا فـقـري إلى الثـمـن

* * *

أحـن بـأطـراف النهـار صبـابـة وبـالليـل يـدعـوني الهـوى فـأجيب

* * *

وإذا لم يـكـن مـن الـعـشـق بـد فمن العجـز عـشق غـير الجـميـل

* * *

فلو أن مـا أسعـى لعيش معجـل كـفـاني منـه بـعض مـا أنـا فيـه
ولـكـنـما أسـعـى لمـلك مخـلد فـوا أسـفـاً ان لم أكـن بمـلاقيـه

يا من هو من أرباب الخبرة هل عرفت قيمة نفسك، إنما خلقت الأكوان كلها لك. يا من غذي بلبان البر وقلب بأيدي الألطاف كل الأشياء شجرة وأنت الثمرة وصورة وأنت المعنى وصدف وأنت الدر. ومخيض(١) وأنت الزبد.

منشور اختيارنا لك واضح الخط ولكن استخراجك ضعيف.

متى رمت طلب فاطلبني عندك. اطلبني منك تجدني قريباً ولا تطلبني من غيرك فأنا أقرب إليك منه.

لو عرفت قدر نفسك عندنا ما أهنتها بالمعاصي، إنما أبعدنا إبليس إذ لم يسجد لك وأنت في صلب أبيك، فواعجباً كيف صالحته وتركتنا. لو كان في قلبك محبة لبان أثرها على جسدك.

---

(١) مخيض: من خض فهو مخضوض. وهو اللبن نزع منه زبده.

ولـمـا ادعيت الحب قـالت كـذبتني ألست أرى الأعضـاء منـك كـواسيا

لو تغذى القلب بالمحبة لذهبت عنه بطنة الشهوات.

ولـو كنت عـذري الصبـابـة لم تكن بـطيناً وأنسـاك الهـوى كثـرة الأكـل

لو صحت محبتك لاستوحشت ممن لا يذكرك بالحبيب.

واعجباً لمن يدعي المحبة ويحتاج إلى من يذكره بمحبوبه فلا يذكره إلا بمذكر أقل ما في المحبة أنها لا تنسيك تذكر المحبوب.

ذكـرتـك لا أني نسيتـك سـاعـة وأيسـر مـا في الـذكـر ذكـر لسـاني

إذا سافر المحب للقـاء محبوبـه ركبت جنوده معـه، فكان الحب في مقـدمة العسكر والرجاء يحدو بالمطي والشوق يسوقها والخوف يجمعها على الـطريق، فإذا شارف قدوم بلد الوصل خرجت تقادم الحبيب باللقاء.

فـداو سـقـماً بجـسم أنـت متـلفـه وابـرد غـرامـاً بقلب أنت مضـرمـه
ولا تكلني عـلى بـعـد الـديـار إلى صبري الضعيف فصبري أنت تعلمه
تـلق قلبـي فقـد أرسـلتـه عـجـلاً إلى لـقـائـك والأشـواق تقـدمـه

فإذا دخل على الحبيب أفيضت عليه الخلع من كل ناحيـة ليمتحن أيسكن اليها فتكون حظه أم يكون التفاته إلى من ألبسه إياها.

ملأوا مراكب القلوب متاعاً لا تنفق إلا على الملك فلما هبت رياح السحر أقلعت تلك المراكب فما طلع الفجر إلا وهي بالمينا.

قطعوا بادية الهوى بأقـدام الجد فـما كان إلا القليـل حتى قدمـوا من السفر فأعقبهم الراحة في طريق التلقي فدخلوا بلد الوصل وقد حازوا ربح الأبد.

فرغ القوم قلوبهم من الشواغل فضربت فيها سرادقات المحبة فأقاموا العيون تحرس تارة وترش أخرى.

سرادق المحبة لا يضرب إلا في قاع نزه فارغ.

نـزه فـؤادك مـن سـوانـا والـقـنـا　　فـجـنـابـنـا حـل لـكـل مـنـزه
الـصبـر طـلسم لـكنـز وصـالـنـا　　من حـل ذا الـطلسم فـاز بـكنـزه

اعرف قدر ما ضاع منك وابك بكاء من يدري مقدار الفائت. لو تخيلت قرب الأحباب لأقمت المأتم على بعدك.

لو استنشقت ريح الأسحار لأفاق منك قلبك المخمور.

من استطال الطريق ضعف مشيه.

ومـا أنت بـالمشتـاق ان قلت بيننـا　　طـوال الليـالي أو بعيـد المفـاوز[١]

أما علمت أن الصادق إذا هم ألقى بين عينيه عزمه.

إذا نزل آب في القلب حل آذار في العين[٢].

هان سهر الحراس لما علموا أن أصواتهم بسمع الملك.

من لاح له حال الآخرة هان عليه فراق الدنيا . إذا لاح للباشق الصيد نسي مألوف الكف.

يا أقدام الصبر احملي بقي القليل. تذكر حلاوة الوصال يهن عليك مر المجاهدة.

قد علمت أين المنزل فاحد لها تسر ـ أعلى الهمم همة من استعد للقاء الحبيب وقدم التقادم بين يدي الملتقى فاستبشر بالرضا عند القدوم ـ وقدموا لأنفسكم ـ الجنة ترضى منك بأداء الفرائض، والنار تندفع عنك بترك المعاصي، والمحبة لا تقنع منك إلا ببذل الروح.

لله ما أحلى زمان تسعى فيه أقدام الطاعة على أرض الاشتياق.

لما سلم القوم النفوس إلى رائض الشرع علمها الوفاق في خلاف الطبع فاستقامت مع الطاعة كيف دارت دارت معها.

---

(١) المفاوز: جمع مفازة وهي الصحراء او الأرض المقفرة.

(٢) آب هو الشهر الثامن من السنة الشمسية وآذار هو الشهر الثالث منها.

وإني إذا اصطكت رقاب مطيهم وثور حاد بالرقاق عجول
أخالف بين الراحتين على الحشا وأنظر أني ملثم فأميل

مواعظ وحكم

علمت كلبك فهو يترك شهوته في تناول ما صاده احتراماً لنعمتك وخوفاً من سطوتك وكم علمك معلم الشرع وأنت لا تقبل.

حرم صيد الجاهل والممسك لنفسه. فما ظن الجاهل الذي أعماله لهوى نفسه.

جمع فيك عقل الملك وشهوة البهيمة وهوى الشيطان. وأنت للغالب عليك من الثلاثة. ان غلبت شهوتك وهواك زدت على مرتبة ملك. وان غلبك هواك وشهوتك نقصت عن مرتبة كلب.

لما صاد الكلب لربه أبيح صيده ولما أمسك على نفسه حرم ما صاده. مصدر ما في العبد من الخير والشر والصفات الممدوحة والمذمومة من صفة المعطي المانع، فهو سبحانه يصرف عباده بين مقتضى هذين الاسمين. فحظ العبد الصادق من عبوديته بهما الشكر عند العطاء، والافتقار عند المنع. فهو سبحانه يعطيه ليشكره، ويمنعه ليتفقر إليه فلا يزال شكوراً فقيراً.

قوله تعالى ﴿**وكان الكافر على ربه ظهيراً**﴾[1] هذا من ألطف خطاب القرآن وأشرف معانيه وأن المؤمن دائماً مع الله على نفسه وهواه وشيطانه وعدو ربه وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه فهو مع الله على عدوه الداخل فيه والخارج عنه يحاربهم ويعاديهم ويغضبهم له سبحانه. كما يكون خواص الملك معه على حرب أعدائه والبعيدون منه فارغون من ذلك، غير مهتمين به والكافر مع شيطانه وهواه على ربه، وعبارات السلف على هذا تدور. ذكر ابن أبي حاتم عن عطاء بن

---

(١) سورة الفرقان الآية ٥٥.

دينار عن سعيد بن جبير قال: عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك. وقال ليث بن مجاهد: يظاهر الشيطان على معصية الله: يعينه عليها. وقال زيد بن أسلم: ظهيراً أي موالياً. والمعنى أنه يوالي عدوه على معصيته والشرك به فيكون مع عدوه معيناً له على مساخط ربه.

فالمعية الخاصة التي للمؤمن مع ربه وإلٰهه قد صارت لهذا الكافر والفاجر مع الشيطان ومع نفسه وهواه وقربانه ولهذا صدر الآية بقوله ﴿**ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم**﴾[1] وهذه العبادة هي الموالاة والمحبة والرضا بمعبوديهم المتضمنة لمعيتهم الخاصة فظاهروا أعداء الله على معاداته ومخالفته ومساخطه، بخلاف وليه سبحانه فإنه معه على نفسه وشيطانه وهواه وهذا المعنى من كنوز القرآن لمن فهمه وعقله وبالله التوفيق.

قوله تعالى ﴿**والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً**﴾[2] قال مقاتل: إذا وعظوا بالقرآن لم يقعوا عليه صماً لم يسمعوه وعمياناً لم يبصروه ولكنهم سمعوا وأبصروا وأيقنوا به. وقال ابن عباس: لم يكونوا عليها صماً وعمياناً، بل كانوا خائفين خاشعين. وقال الكلبي[3]: يخرون عليها سمعاً وبصراً. وقال الفراء: وإذا تلي عليهم القرآن لم يقعدوا على حالهم الأولى كأنهم لم يسمعوه فذلك الخرور[4] وسمعت العرب تقول: قعد يشتمني كقولك قام يشتمني وأقبل يشتمني والمعنى على ما ذكر: لم يصيروا عندها صماً وعمياناً. وقال الزجاج: المعنى إذا تليت عليهم خروا سجداً وبكيا سامعين مبصرين كما أمروا به. وقال ابن قتيبة: أي لم يتغافلوا عنها كأنهم صم لم يسمعوها وعمي لم يروها.

قلت هٰهنا أمران: ذكر الخرور وتسليط النفي عليه وهل هو خرور القلب أو

---

(١) سورة الفرقان الآية ٥٥.

(٢) سورة الفرقان الآية ٧٣.

(٣) الكلبي. أبا ثور الكلبي، إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان، الكلبي.

(٤) الخرور: من خر أي سقط.

خرور البدن للسجود، وهل المعنى لم يكن خرورهم عن صمم وعمه فلهم عليها خرور بالقلب خضوعاً أو بالبدن سجوداً، أو ليس هناك خرور، وعبر به عن القعود.

أصول المعاصي كلها كبارها وصغارها ثلاثة: تعلق القلب بغير الله وطاعة القوة الغضبية والقوة الشهوانية. وهي الشرك والظلم والفواحش. فغاية التعلق بغير الله شرك، وأن يدعى معه إله آخر. وغاية طاعة القوة الغضبية القتل. وغاية طاعة القوة الشهوانية الزنا. ولهذا جمع الله سبحانه بين الثلاثة في قوله ﴿**والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون**﴾(١) وهذه الثلاثة يدعو بعضها إلى بعض، فالشرك يدعو إلى الظلم والفواحش كما أن الإخلاص والتوحيد يصرفها عن صاحبه، قال تعالى ﴿**كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنَّهُ من عبادنا المخلصين**﴾(٢) فالسوء العشق، والفحشاء الزنا. وكذلك الظلم يدعو إلى الشرك والفاحشة، فإن الشرك أظلم الظلم كما أن أعدل العدل التوحيد. فالعدل قرين التوحيد، والظلم قرين الشرك، ولهذا يجمع سبحانه بينهما: أما الأول ففي قوله ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط**﴾(٣) وأما الثاني فكقوله تعالى ﴿**إن الشرك لظلم عظيم**﴾(٤) والفاحشة تدعو إلى الشرك والظلم ولا سيما إذا قويت إرادتها ولم تحصل إلا بنوع من الظلم والاستعانة بالسحر والشيطان، وقد جمع سبحانه بين الشرك والزنا في قوله ﴿**الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين**﴾(٥).

فهذه الثلاثة يجر بعضها إلى بعض، ويأمر بعضها ببعض، ولهذا كلما كان القلب أضعف توحيداً وأعظم شركاً كان أكثر فاحشة وأعظم تعلقاً بالصور وعشقاً

---

(١) سورة الفرقان الآية ٦٨.
(٢) سورة يوسف الآية ٢٤.
(٣) سورة آل عمران الآية ١٨.
(٤) سورة لقمان الآية ١٣.
(٥) سورة النور الآية ٣.

لها، ونظير هذا قوله تعالى ﴿ فَمَا أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾(١) فأخبر أن ما عنده خير لمن آمن به وتوكل عليه، وهذا هو التوحيد، ثم قال: ﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾(٢) فهذا اجتناب داعي القوة الشهوانية ثم قال: ﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾(٣) فهذا مخالفة القوة الغضبية، فجمع بين التوحيد والعفة والعدل التي هي جماع الخير كله.

(فائدة)

أنواع هجر القرآن

هجر القرآن أنواع: أحدها هجر سماعه والإيمان به والاصغاء إليه. والثاني هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وان قرأه وآمن به. والثالث هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم. والرابع هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه. والخامس هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به. وكل هذا داخل في قوله: ﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾(٤) وإن كان بعض الهجر أهون من بعض.

وكذلك الحرج الذي في الصدور منه فإنه تارة يكون حرجاً من إنزاله وكونه حقاً من عند الله، وتارة يكون من جهة التكلم به أو كونه مخلوقاً من بعض مخلوقاته ألهم غيره أن تكلم به، وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها وأنه لا يكفي العباد، بل هم محتاجون معه إلى المعقولات والأقيسة أو الآراء أو السياسات، وتارة يكون

---

(١) سورة الشورى الآية (٣٦ ـ ٣٧)
(٢) و(٣) سورة الشورى الآية ٣٧.
(٤) سورة الفرقان الآية ٣٠.

من جهة دلالته وما أريد به حقائقه المفهومة منه عند الخطاب أو أريد به تأويلها وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مستكرهة مشتركة، وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق وإن كانت مرادة فهي ثابتة في نفس الأمر أو أوهم أنها مرادة لضرب من المصلحة، فكل هؤلاء في صدرهم حرج من القرآن وهم يعلمون ذلك من نفوسهم ويجدونه في صدورهم، ولا تجد مبتدعاً في دينه قط إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تخالف بدعته، كما أنك لا تجد ظالماً فاجراً إلا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته فتدبر هذا المعنى ثم ارض لنفسك بما تشاء.

(فائدة)

كمال النفس

كمال النفس المطلوب ما تضمن أمرين: أحدهما أن يصير هيئة راسخة وصفة لازمة لها. الثاني أن يكون صفة كمال في نفسه، فإذا لم يكن كذلك لم يكن كمالاً فلا يليق بمن يسعى في كمال نفسه المنافسة عليه ولا الأسف على فوته، وذلك ليس إلا معرفة بارئها وفاطرها ومعبودها وإلٰهها الحق الذي لا صلاح لها ولا نعيم ولا لذة إلا بمعرفته وإرادة وجهه وسلوك الطريق الموصلة إليه وإلى رضاه وكرامته، وأن تعتاد ذلك فيصير لها هيئة راسخة لازمة، وما عدا ذلك من العلوم والارادات والأعمال فهي بين ما لا ينفعها ولا يكملها وما يعود بضررها ونقصها وألمها، ولا سيما إذا صار هيئة راسخة لها، فإنها تعذب وتتألم به بحسب لزومه لها.

وأما الفضائل المنفصلة عنها كالملابس والمراكب والمساكن والجاه والمال فتلك في الحقيقة عوار[1] أعيرتها مدة ثم يرجع فيها المعير فتتألم وتتعذب برجوعه فيها بحسب تعلقها بها ولا سيما إذا كانت هي غاية كمالها فإذا سلبتها أحضرت أعظم النقص والألم والحسرة، فليتدبر من يريد سعادة نفسه ولذتها هذه النكتة، فأكثر هذا الخلق إنما يسعون في حرمان نفوسهم وألمها وحسرتها ونقصها من حيث يظنون أنهم يريدون سعادتها ونعيمها، فلذتها بحسب ما حصل لها من تلك المعرفة والمحبة

(١) عوار جمع عارية. وهي ما يستعيره المرء ثم يعيده لصاحبه.

والسلوك، وألمها وحسرتها بحسب ما فاتها من ذلك ومتى عدم ذلك وخلا منه لم يبق فيه إلا القوى البدنية النفسانية التي بها يأكل ويشرب وينكح ويغضب وينال سائر لذاته ومرافق حياته ولا يلحقه من جهتها شرف ولا فضيلة، بل خساسة ومنقصة إذ كان إنما يناسب بتلك القوى البهائم ويتصل بجنسها ويدخل في جملتها ويصير كأحدها، وربما زادت في تناولها عليه واختصت دونه بسلامة عاقبتها والأمن من جلب الضرر عليها، فكمال تشاركك فيه البهائم وتزيد عليك وتختص عنك فيه بسلامة العاقبة حقيق أن تهجره إلى الكمال الحقيقي الذي لا كمال سواه وبالله التوفيق.

(فائدة جليلة)

إذا أصبح العبد وأمسى وليس همه إلا الله وحده تحمل الله سبحانه حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمه، وفرغ قلبه لمحبته ولسانه لذكره وجوارحه لطاعته وإن أصبح وأمسى والدنيا همه حمله الله همومها وغمومها وأنكادها. ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق ولسانه عن ذكره بذكرهم وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره، كالكير ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه في نفع غيره، فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبته بلي بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته. قال تعالى: **﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾**(١) قال سفيان بن عيينة(٢): لا تأتون بمثل مشهور للعرب إلا جئتكم به من القرآن، فقال له قائل: فأين في القرآن «اعط أخاك ثمرة فإن لم يقبل فاعطه جمرة» فقال في قوله: **﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً﴾**(٣) الآية.

---

(١) سورة الزخرف الآية ٣٦. وعشا عنه: أعرض.

(٢) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي ـ أبو محمد ـ محدث الحرم المكي من الموالي. ولد بالكوفة وسكن مكة وتوفي بها، كان حافظاً ثقة. قال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز. له «الجامع» في الحديث وكتاب في «التفسير». توفي سنة (١٩٨ هـ ـ ٨١٤ م). انظر: تذكرة الحفاظ [١ : ٢٤٢] صفوة الصفوة [٢ : ١٣٠]

(٣) سورة الزخرف الآية ٣٦.

(فائدة)

العلم والعمل

العلم نقل صورة المعلوم من الخارج وإثباتها في النفس، والعمل نقل صورة علمية من النفس وإثباتها في الخارج، فإن كان الثابت في النفس مطابقاً للحقيقة في نفسها فهو علم صحيح وكثيراً ما يثبت ويتراءى في النفس صور ليس لها وجود حقيقي فيظنها الذي قد أثبتها في نفسه علماً وإنما هي مقدرة لا حقيقة لها وأكثر علوم الناس من هذا الباب، وما كان منها مطابقاً للحقيقة في الخارج فهو نوعان: نوع تكمل النفس بإدراكه والعلم به، وهو العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وكتبه وأمره ونهيه، ونوع لا يحصل للنفس به كمال وهو كل علم لا يضر الجهل به فإنه لا ينفع العلم به، وكان النبي ﷺ يستعيذ بالله من علم لا ينفع. وهذا حال أكثر العلوم الصحيحة المطابقة التي لا يضر الجهل بها شيئاً. كالعلم بالفلك ودقائقه ودرجاته وعدد الكواكب ومقاديرها. والعلم بعدد الجبال وألوانها ومساحاتها ونحو ذلك، فشرف العلم بحسب شرف معلومه وشدة الحاجة إليه، وليس ذلك إلا العلم بالله وتوابع ذلك.

وأما العلم فآفته عدم مطابقته لمراد الله الديني الذي يحبه الله ويرضاه. وذلك يكون من فساد العلم تارة ومن فساد الارادة تارة، ففساده من جهة العلم أن يعتقد أن هذا مشروع محبوب لله وليس كذلك، أو يعتقد أنه يقربه إلى الله وإن لم يكن مشروعاً، فيظن أنه يتقرب إلى الله بهذا العمل وان لم يعلم أنه مشروع.

وأما فساده من جهة القصد فأن لا يقصد به وجه الله والدار الآخرة بل يقصد به الدنيا والخلق، وهاتان الآفتان في العلم والعمل لا سبيل إلى السلامة منهما إلا بمعرفة ما جاء به الرسول في باب العلم والمعرفة وإرادة وجه الله والدار الآخرة في باب القصد والارادة، فمتى خلا من هذه المعرفة وهذه الارادة فسد علمه وعمله.

والإيمان واليقين يورثان صحة المعرفة وصحة الارادة وهما يورثان الإيمان

ويمدانه، ومن هنا يتبين انحراف اكثر الناس عن الإيمان لانحرافهم عن صحة المعرفة وصحة الارادة، ولا يتم الإيمان إلا بتلقي المعرفة من مشكاة النبوة وتجريد الارادة عن شوائب الهوى وإرادة الخلق، فيكون علمه مقتبساً من مشكاة الوحي وإرادته لله والدار الآخرة، فهذا أصح الناس علماً وعملاً، وهو من الأئمة الذين يهدون بأمر الله، ومن خلفاء رسوله في أمته.

الإيمان ظاهر وباطن

الإيمان له ظاهر وباطن، وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته، فلا ينفع ظاهر لا باطن له وإن حقن به الدماء وعصم به المال والذرية، ولا يجزىء باطن لا ظاهر له إلا إذا تعذر بعجز أو إكراه وخوف هلاك، فتخلف العمل ظاهراً مع عدم المانع: دليل على فساد الباطن وخلوه من الإيمان، ونقصه دليل نقصه وقوته دليل قوته، فالإيمان قلب الإسلام ولبه، واليقين قلب الإيمان ولبه. وكل علم وعمل لا يزيد الإيمان واليقين قوة فمدخول، وكل إيمان لا يبعث على العمل فمدخول.

(قاعدة)

التوكل على الله

التوكل على الله نوعان:

(أحدهما): توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية.

(والثاني): التوكل عليه في حصول ما يحبه هو ويرضاه من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة إليه.

وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله، فمتى توكل عليه العبد في النوع الثاني حق توكله كفاه النوع الأول تمام الكفاية. ومتى توكل عليه في النوع الأول دون الثاني كفاه أيضاً لكن لا يكون له عاقبة المتوكل عليه فيما يحبه ويرضاه، فأعظم التوكل عليه التوكل في الهداية وتجريد التوحيد ومتابعة الرسول وجهاد أهل الباطل. فهذا توكل الرسل وخاصة أتباعهم، والتوكل تارة

يكون توكل اضطرار وإلجاء بحيث لا يجد العبد ملجأ ولا وزراً إلا التوكل، كما إذا ضاقت عليه الأسباب وضاقت عليه نفسه وظن أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وهذا لا يتخلف عنه الفرج والتيسير البتة، وتارة يكون توكل اختيار، وذلك التوكل مع وجود السبب المفضي إلى المراد، فإن كان السبب مأموراً به ذم على تركه، وإن قام بالسبب وترك التوكل ذم على تركه أيضاً، فإنه واجب باتفاق الأمة ونص القرآن، والواجب القيام بهما والجمع بينهما، وإن كان السبب محرماً حرم عليه مباشرته وتوحد السبب في حقه في التوكل فلم يبق سبب سواه، فإن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المراد ودفع المكروه، بل هو أقوى الأسباب على الاطلاق.

وإن كان السبب مباحاً نظرت: هل يضعف قيامك به التوكل أو لا يضعفه؟ فإن أضعفه وفرق عليك قلبك وشتت همك فتركه أولى، وإن لم يضعفه فمباشرته أولى، لأن حكمة أحكم الحاكمين اقتضت ربط المسبب به، فلا تعطل حكمته مهما أمكنك القيام بها، ولا سيما إذا فعلته عبودية فتكون قد أتيت بعبودية القلب بالتوكل، وعبودية الجوارح بالسبب المنوي به القربة، والذي يحقق التوكل القيام بالأسباب المأمور بها، فمن عطلها لم يصح توكله، كما أن القيام بالأسباب المفضية إلى حصول الخير يحقق رجاءه فمن لم يقم بها كان رجاؤه تمنياً، كما أن من عطلها يكون توكله عجزاً وعجزه توكلاً.

وسر التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفعه قوله توكلت على الله مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به، فتوكل اللسان شيء وتوكل القلب شيء، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء: فقول العبد توكلت على الله مع اعتماد قلبه على غيره مثل قوله تبت إلى الله وهو مصر على معصيته مرتكباً لها.

(فائدة)

الجاهل يشكو الله إلى الناس. وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه، فإنه

لو عرف ربه لما شكاه ولو عرف الناس لما شكا إليهم. ورأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقته وضرورته، فقال يا هذا والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك. وفي ذلك قيل:

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

والعارف إنما يشكو إلى الله وحده. وأعرف العارفين من جعل شكواه إلى الله من نفسه لا من الناس. فهو يشكو من موجبات تسليط الناس عليه فهو ناظر إلى قوله تعالى ﴿**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم**﴾(١) ﴿**وما أصابك من سيئة فمن نفسك**﴾(٢) وقوله ﴿**أوَ لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم**﴾(٣) فالمراتب ثلاثة: أخسها أن تشكو الله إلى خلقه، وأعلاها أن تشكو نفسك إليه. وأوسطها أن تشكو خلقه إليه.

(قاعدة جليلة)

في ظلال الآية:
﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول﴾

قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون**﴾(٤) فتضمنت هذه الآية أموراً: أحدها أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ولرسوله. فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهراً وباطناً، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أمواتٌ وان كانوا أحياء الأبدان. ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول، فإن كل ما دعا إليه

---

(١) سورة الشورى الآية ٣٠.

(٢) سورة النساء الآية ٧٩.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٦٥.

(٤) سورة الانفال الآية ٢٤.

ففيه الحياة فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول[1] قال مجاهد: ﴿لما يحييكم﴾ يعني للحقّ. وقال قتادة: هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة. وقال السدي: هو الإسلام أحياهم به بعد موتهم بالكفر. وقال ابن اسحق وعروة ابن الزبير واللفظ له: ﴿لما يحييكم﴾ يعني للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل وقواكم بعد الضعف ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم. كل هذه عبارات عن حقيقة واحدة وهي القيام بما جاء به الرسول ظاهراً وباطناً. قال الواحدي والأكثرون على أن معنى قوله ﴿لما يحييكم﴾ هو الجهاد وهو قول ابن اسحق واختيار أكثر أهل المعاني. قال الفراء: إذا دعاكم إلى إحياء أمركم بجهاد عدوكم يريد أن أمرهم إنما يقوى بالحرب والجهاد فلو تركوا الجهاد ضعف أمرهم واجترأ عليهم عدوهم.

قلت: الجهاد من أعظم ما يحييهم به في الدنيا وفي البرزخ[2] وفي الآخرة. أما في الدنيا فإن قوتهم وقهرهم لعدوهم بالجهاد. وأما في البرزخ فقد قال تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾[3] وأما في الآخرة فإن حظ المجاهدين والشهداء من حياتها ونعيمها أعظم من حظ غيرهم. ولهذا قال ابن قتيبة: ﴿لما يحييكم﴾ يعني الشهادة، وقال بعض المفسرين: ﴿لما يحييكم﴾ يعني الجنة فإنها دار الحيوان وفيها الحياة الدائمة الطيبة حكاه أبو علي الجرجاني.

والآية تتناول هذا كله فإن الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد يحيي القلوب الحياة الطيبة، وكمال الحياة في الجنة، والرسول داع إلى الإيمان وإلى الجنة. فهو داع إلى الحياة في الدنيا والآخرة، والانسان مضطر إلى نوعين من الحياة: حياة بدنه التي بها يدرك النافع والضار ويؤثر ما ينفعه على ما يضره. ومتى نقصت فيه

---

(١) السعادة الحقيقية للمؤمن في متابعة الرسول ﷺ لما تتركه هذه المتابعة في القلب من طمأنينة وشعور بالرضا، والطمع في رضوان الله جل جلاله.

(٢) البرزخ: ما بين الموت والبعث. وقبل الحشر بعد الموت.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٦٩

هـذه الحياة نـاله من الألم والضعف بحسب ذلـك، ولذلـك كانت حيـاة المريض والمحزون وصاحب الهم والغم والخوف والفقر والذل دون حياة من هو معافى من ذلك، وحياة قلبه وروحه التي بها يميز بين الحق والباطل والغي والرشاد، والهدى والضلال، فيختار الحق على ضده، فتفيده هذه الحياة قوة التمييز بين النافع والضار في العلوم والارادات والأعمـال، وتفيده قـوة الإيمان والارادة والحب للحق وقـوة البغض والكراهة للباطل.

فشعوره وتمييزه وحبه ونفرته بحسب نصيبه من هـذه الحياة، كـما أن البدن الحي يكون شعوره وإحساسه بالنافع والمؤلم أتم، ويكون ميله إلى النافع ونفرته عن المؤلم أعظم، فهذا بحسب حياة البدن، وذاك بحسب حيـاة القلب. فإذا بـطلت حياته بطل تمييزه، وإن كان له نوع تمييز لم يكن فيه قوة يؤثر بها النافع على الضار، كما أن الإنسان لا حياة له حتى ينفخ فيه الملك الذي هو رسول الله من روحه فيصير حياً بذلك النفخ. وكان قبل ذلك من جملة الأموات وكذلك لا حياة لروحه وقلبه حتى نيفخ فيه الرسول ﷺ من الروح الذي ألقى إليه قال تعالى: **﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾**(١) وقال: **﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾**(٢) وقال: **﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمـرنا مـا كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾**(٣) فأخبر أن وحيه روح ونور، فالحياة والاستنارة موقوفة على نفخ الـرسول الملكي، فمن أصابه نفخ الرسول الملكي ونفخ الرسول البشري حصلت له الحياتان. ومن حصل له نفخ الملك دون نفخ الرسول حصلت له إحدى الحياتين وفاتته الأخرى. قال تعالى: **﴿أوَ من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾**(٤) فجمع له بين النور والحياة كما جمع لمن أعرض

---

(١) سورة النحل الآية ٢.

(٢) سورة غافر الآية ١٥.

(٣) سورة الشورى الآية ٥٢.

(٤) سورة الانعام الآية ١٢٢.

عن كتابه بين الموت والظلمة. قال ابن عباس وجميع المفسرين: كان كافراً ضالاً فهديناه.

وقوله: ﴿**وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس**﴾[1] يتضمن أموراً:

(**أحدها**): أنه يمشي في الناس بالنور وهم في الظلمة، فمثله ومثلهم كمثل قوم أظلم عليهم الليل فضلوا ولم يهتدوا للطريق. وآخر معه نور يمشي به في الطريق ويراها ويرى ما يحذره فيها.

(**وثانيها**): أنه يمشي فيهم بنوره فهم يقتبسون منه لحاجتهم إلى النور.

(**وثالثها**): أنه يمشي بنوره يوم القيامة على الصراط إذا بقي أهل الشرك والنفاق في ظلمات شركهم ونفاقهم.

وقوله: ﴿**واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه**﴾[2] المشهور في الآية أنه يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان، ويحول بين أهل طاعته وبين معصيته، وبين أهل معصيته وبين طاعته. وهذا قول ابن عباس وجمهور المفسرين.

وفي الآية قول آخر أن المعنى أنه سبحانه قريب من قلبه لا تخفى عليه خافية فهو بينه وبين قلبه. ذكره الواحدي عن قتادة وكأن هذا أنسب بالسياق لأن الاستجابة أصلها بالقلب فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب، فإن الله سبحانه بين العبد وبين قلبه، فيعلم هل استجاب له قلبه وهل أضمر ذلك أو أضمر خلافه.

وعلى القول الأول فوجه المناسبة أنكم إن تثاقلتم عن الاستجابة وأبطأتم عنها فلا تأمنوا ان الله يحول بينكم وبين قلوبكم فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة عقوبة لكم على تركها بعد وضوح الحق واستبانته. فيكون كقوله: ﴿**ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة**﴾[3] وقوله: ﴿**فلما زاغوا**

---

(١) سورة الانعام الآية ١٢٢. (٢) سورة الأنفال الآية ٢٤. (٣) سورة الانعام الآية ١١٠.

أزاغ الله قلوبهم﴾[1] وقوله ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾[2] ففي الآية تحذير عن ترك الاستجابة بالقلب وان استجاب بالجوارح.

وفي الآية سر آخر وهو أنه جمع لهم بين الشرع والأمر به وهو الاستجابة وبين القدر والايمان به، فهي كقوله: ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾[3] وقوله ﴿فمن شاء ذكره وما يذكرون إلا أن يشاء الله﴾[4] والله أعلم.

(فائدة جليلة)

﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾

قوله تعالى: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[5] وقوله عز وجل: ﴿وان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾[6] فالآية الأولى في الجهاد الذي هو كمال القوة الغضبيه، والثانية في النكاح الذي هو كمال القوة الشهوانية، فالعبد يكره مواجهة عدوه بقوته الغضبيه خشية على نفسه منه، وهذا المكروه خير له في معاشه ومعاده ويحب الموادعة والمتاركة، وهذا المحبوب شر له في معاشه ومعاده. وكذلك يكره المرأة لوصف من أوصافها وله في إمساكها خير كثير لا يعرفه ويحب المرأة لوصف من أوصافها، وله في إمساكها شر كثير لا يعرفه، فالإنسان كما وصفه خالقه ﴿ظلوم جهول﴾ فلا ينبغي أن يجعل المعيار على ما يضره وينفعه ميله وحبه، ونفرته وبغضه، بل المعيار على ذلك ما اختاره الله له بأمره ونهيه.

فأنفع الأشياء له على الاطلاق طاعة ربه بظاهره وباطنه. وأضر الأشياء عليه

(1) سورة الصف الآية ٥.
(2) سورة الاعراف الآية ١٠١.
(3) سورة التكوير الآية (٢٨ - ٢٩).
(4) سورة المدثر الآية (٥٥ - ٥٦).
(5) سورة البقرة الآية ٢١٦.
(6) سورة النساء الآية ١٩.

على الاطلاق معصيته بظاهره وباطنه، فإذا قام بطاعته وعبوديته مخلصاً له فكل ما يجري عليه مما يكرهه يكون خيراً له، وإذا تخلى عن طاعته وعبوديته فكل ما هو فيه من محبوب هو شر له، فمن صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته علم يقيناً أن المكروهات التي تصيبه والمحن التي تنزل به فيها ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب.

فعامة مصالح النفوس في مكروهاتها، كما أن عامة مضارها وأسباب هلكتها في محبوباتها، فانظر إلى غارس جنة من الجنات، خبير بالفلاحة، غرس جنة وتعاهدها بالسقي والاصلاح حتى أثمرت أشجارها فأقبل عليها يفصل أوصالها ويقطع أغصانها لعلمه أنها لو خليت على حالها لم تطب ثمرتها فيطعمها من شجرة طيبة الثمرة، حتى إذا التحمت بها واتحدت وأعطت ثمرتها أقبل يقلمها ويقطع أغصانها الضعيفة التي تذهب قوتها ويذيقها ألم القطع والحديد لمصلحتها وكمالها لتصلح ثمرتها أن تكون بحضرة الملوك، ثم لا يدعها ودواعي طبعها من الشرب كل وقت بل يعطشها وقتاً ويسقيها وقتاً ولا يترك الماء عليها دائماً، وإن كان ذلك أنضر لورقها وأسرع لنباتها، ثم يعمد إلى تلك الزينة التي زينت بها من الأوراق فيلقي عنها كثيراً منها، لأن تلك الزينة تحول بين ثمرتها وبين كمال نضجها واستوائها، كما في شجر العنب ونحوه، فهو يقطع أعضاءها بالحديد. ويلقي عنها كثيراً من زينتها وذلك عين مصلحتها، فلو أنها ذات تمييز وإدراك كالحيوان لتوهمت أن ذلك إفساد لها وإضرار بها، وإنما هو عين مصلحتها.

وكذلك الأب الشفيق على ولده العالم بمصلحته، إذا رأى مصلحته في إخراج الدم الفاسد عنه بضع جلده[1] وقطع عروقه، وأذاقه الألم الشديد. وإن رأى شفاءه في قطع عضو من أعضائه أبانه عنه، كل ذلك رحمة به وشفقة عليه، وإن رأى مصلحته في أن يمسك عنه العطاء لم يعطه ولم يوسع عليه. لعلمه أن ذلك أكبر

---

(١) بضع جلده: شقه ومنه المبضع: السكين.

الأسباب إلى فساده وهلاكه. وكذلك يمنعه كثيراً من شهواته حمية له ومصلحة لا بخلاً عليه فأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأعلم العالمين الذي هو أرحم بعباده منهم بأنفسهم، ومن آبائهم وأمهاتهم إذا أنزل بهم ما يكرهون كان خيراً لهم من أن لا ينزله بهم، نظراً منه لهم وإحساناً إليهم ولطفاً بهم. ولو مكنوا من الاختيار لأنفسهم لعجزوا عن القيام بمصالحهم علماً وإرادة وعملاً، لكنه سبحانه تولى تدبير أمورهم بموجب علمه وحكمته ورحمته، أحبوا أم كرهوا فعرف ذلك الموقنون بأسمائه وصفاته، فلم يتهموه في شيء من أحكامه وخفي ذلك على الجهال به، وبأسمائه وصفاته، فتنازعوه تدبيره وقدحوا في حكمته ولم ينقادوا لحكمه وعارضوا حكمه بعقولهم الفاسدة وآرائهم الباطلة وسياساتهم الجائرة، فلا لربهم عرفوا، ولا لمصالحهم حصلوا. والله الموفق.

ومتى ظفر العبد بهذه المعرفة سكن في الدنيا قبل الآخرة في جنة لا يشبه نعيمها إلا نعيم جنة الآخرة، فإنه لا يزال راضياً عن ربه والرضا جنة الدنيا ومستراح العارفين، فإنه طيب النفس بما يجري عليه من المقادير التي هي عين اختيار الله له، وطمأنينتها إلى أحكامه الدينية. وهذا هو الرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، وما ذاق طعم الإيمان من لم يحصل له ذلك وهذا الرضا هو بحسب معرفته بعدل الله وحكمته ورحمته وحسن اختياره. فكلما كان بذلك أعرف كان به أرضى، فقضاء الرب سبحانه في عبده دائر بين العدل والمصلحة والحكمه والرحمه، لا يخرج عن ذلك البتة، كما قال ﷺ في الدعاء المشهور «اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فيَّ حكمك عدل فيَّ قضاؤك. أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي. ما قالها أحد قط إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحاً. قالوا: أفلا نتعلمهن يا رسول الله؟ قال: بلى ينبغي لمن يسمعهن أن يتعلمهن».

والمقصود قوله «عدل فيَّ قضاؤك» وهذا يتناول كل قضاء يقضيه على عبده

من عقوبة أو ألم. وسبب ذلك فهو الذي قضى بالسبب وقضى بالمسبب، وهو عدل في هذا القضاء. وهذا القضاء خير للمؤمن كما قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن».

قال العلامة ابن القيم: فسألت شيخنا هل يدخل في ذلك قضاء الذنب؟ فقال نعم بشرطه، فأجمل في لفظه (بشرطه) ما يترتب على الذنب من الآثار المحبوبة لله من التوبة والانكسار والندم والخضوع والذل والبكاء وغير ذلك.

(فائدة)

الرغبة بالآخرة تقتضي الزهد بالدنيا

لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا. ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين: نظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد وآخر ذلك الزوال والانقطاع مع ما يعقب من الحسرة والأسف، فطالبها لا ينفك من هم قبل حصولها وهم في حال الظفر بها، وغم وحزن بعد فواتها. فهذا أحد النظرين.

(النظر الثاني): النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها وبقائها وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ما ههنا. فهي كما قال الله سبحانه: ﴿والآخرة خير وأبقى﴾[1] فهي خيرات كاملة دائمة. وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة. فإذا تم له هذان النظران آثر ما يقتضي العقل إيثاره، وزهد فيما يقتضي الزهد فيه، فكل أحد مطبوع على أن لا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل واللذة الغائبة المنتظرة إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل، وقويت رغبته في الأعلى الأفضل، فإذا آثر الفاني الناقص كان ذلك أما لعدم تبين الفضل له، واما لعدم رغبته في الأفضل وكل واحد من الأمرين

---

(١) سورة الأعلى الآية ١٧.

يدل على ضعف الايمان وضعف العقل والبصيرة، فإن الراغب في الدنيا الحريص عليها المؤثر لها إما أن يصدق بأن ما هناك أشرف وأفضل وأبقى واما أن لا يصدق، فإن لم يصدق ذلك كان عادماً للإيمان رأساً وان صدق بذلك ولم يؤثره كان فاسد العقل سيء الاختيار لنفسه.

وهذا تقسيم حاضر ضروري لا ينفك العبد من أحد القسمين منه فإيثار الدنيا على الآخرة اما من فساد في الايمان واما من فساد في العقل. وما أكثر ما يكون منهما ولهذا نبذها رسول الله ﷺ وراء ظهره هو وأصحابه وصرفوا عنها قلوبهم واطرحوها ولم يألفوها وهجروها ولم يميلوا إليها وعدوها سجناً لا جنة فزهدوا فيها حقيقة الزهد، ولو أرادوها لنالوا منها كل محبوب، ولَوَصلوا منها إلى كل مرغوب، فقد عرضت عليه مفاتيح كنوزها فردها، وفاضت على أصحابه فآثروا بها ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها. وعلموا أنها معبر وممر لا دار مقام ومستقر، وأنها دار عبور لا دار سرور. وأنها سحابة صيف تنقشع عن قليل، وخيال طيف ما استتم الزيارة حتى أذن بالرحيل، قال النبي ﷺ: «**ما لي وللدنيا إنما أنا كراكب قال**[1] **في ظل شجرة ثم راح وتركها**»[2] وقال: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما ترجع**» وقال خالقها سبحانه: ﴿**إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وآزَّينتْ وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالامس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾[3] فأخبر عن خسة الدنيا وزهَّد فيها. وأخبر عن دار السلام ودعا إليها وقال تعالى: ﴿**واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات**

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد.

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق ومسلم في كتاب الجنة. بألفاظ مختلفة.

(٣) سورة يونس الآية ٢٤ ـ ٢٥.

الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾[1] وقال تعالى: ﴿اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذابٌ شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾[2] وقال تعالى: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب. قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد﴾[3] وقال تعالى: ﴿وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾[4].

وقد توعد سبحانه أعظم الوعيد لمن رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها وغفل عن آياته ولم يرج لقائه فقال: ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾[5] وعير سبحانه من رضي بالدنيا من المؤمنين فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾[6] وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة.

ويكفي في الزهد في الدنيا قوله تعالى: ﴿أفرأيت إنْ متعناهم سنين. ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾[7] وقوله: ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم﴾[8] وقوله: ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم

(١) سورة الكهف الآية ٤٥ ـ ٤٦،
(٢) سورة الحديد الآية ٢٠.
(٣) سورة آل عمران الآية ١٤ ـ ١٥.
(٤) سورة الرعد الآية ٢٦.
(٥) سورة يونس الآية ٧ ـ ٨.
(٦) سورة التوبة الآية ٣٨.
(٧) سورة الشعراء الآية (٢٠٥ ـ ٢٠٦ ـ ٢٠٧).
(٨) سورة يونس الآية ٤٥.

الفاسقون﴾[1] وقوله تعالى: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾[2] وقوله: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾[3] وقوله: ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين، قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين. قال ان لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون﴾[4] وقوله: ﴿يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً. يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً. نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً﴾[5] والله المستعان وعليه التكلان.

(قاعدة)

الخير في مشيئة الله تعالى:

أساس كل خير أن تعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فتتيقن حينئذ أن الحسنات من نعمه فتشكره عليها، وتتضرع إليه أن لا يقطعها عنك، وأن السيئات من خذلانه وعقوبته، فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها، ولا يكلك في فعل الحسنات وترك السيئات إلى نفسك. وقد أجمع العارفون على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد. وكل شر فأصله خذلانه لعبده. وأجمعوا أن التوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك. فإذا كان كل خير فأصله التوفيق وهو بيد الله لا بيد العبد فمفتاحه الدعاء والافتقار وصدق اللجأ والرغبة والرهبة إليه، فمتى أعطى العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له، ومتى أضله عن المفتاح بقي باب الخير مرتجا دونه.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: اني لا أحمل هم الاجابة ولكن هم الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء فإن الاجابة معه. وعلى قدر نية العبد وهمته ومراده

(١) سورة الأحقاف الآية ٣٥.
(٢) سورة النازعات الآية (٤٢ - ٤٦).
(٣) سورة الروم الآية ٥٥.
(٤) سورة المؤمنون الآية (١١٢ - ١١٤).
(٥) سورة طه الآية (١٠٣ - ١٠٤).

ورغبته في ذلك يكون توفيقه سبحانه وإعانته، فالمعونة من الله تنزل على العباد على قدر هممهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم، والخذلان ينزل عليهم على حسب ذلك، فالله سبحانه أحكم الحاكمين وأعلم العالمين. يضع التوفيق في مواضعه اللائقة به والخذلان في مواضعه اللائقة به. وهو العليم الحكيم.

وما أتى من أتى إلا من قبل اضاعة الشكر وإهمال الافتقار والدعاء. ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه إلا بقيامه بالشكر وصدق الافتقار والدعاء. وملاك ذلك الصبر فإنه من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس فلا بقاء للجسد.

ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله.

خلقت النار لإذابة القلوب القاسية. أبعد القلوب من الله القلب القاسي. إذا قسى القلب قحطت العين.

قسوة القلب من أربعة أشياء: إذا جاوزت قدر الحاجة الأكل والنوم والكلام والمخالطة. كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب. فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجع فيه المواعظ.

من أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهوته ـ القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها ـ القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها ـ شغلوا قلوبهم بالدنيا ولو شغلوها بالله والدار الآخرة لجالت في معاني كلامه وآياته المشهودة ورجعت إلى أصحابها بغرائب الحكم وظرف الفوائد ـ إذا غذي القلب بالتذكر وسقي بالتفكر ونقي من الدغل[1] رأى العجائب وألهم الحكمة ـ ليس كل من تحلى بالمعرفة والحكمة وانتحلها، كان من أهلها. بل أهل المعرفة والحكمة الذين أحيوا قلوبهم بقتل الهوى. وأما من قتل قلبه فأحيا الهوى، فالمعرفة والحكمة عارية على لسانه.

خراب القلب من الأمن والغفلة، وعمارته من الخشية والذكر. إذا زهدت

---

(١) الدغل: الفساد.

القلوب في موائد الدنيا قعدت على مـوائد الآخـرة بين أهـل تلك الدعـوة، وإذا رضيت بموائد الدنيا فـاتتها تلك المـوائد ـ الشـوق إلى الله ولقائـه نسيم يهب على القلب يروح عنه وهج الدنيا ـ من وطن قلبه عند ربه سكن واستراح. ومن أرسله في الناس اضطرب واشتد به القلق.

لا تدخل محبـة الله في قلب فيه حب الـدنيا إلا كـما يدخـل الجمل في سم الابرة.

إذا أحب الله عبداً اصطنعه لنفسه واجتباه لمحبته واستخلصه لعبادته فشغل همة به ولسانه بذكره وجوارحه بخدمته.

والقلب يمرض كما يمرض البدن وشفاؤه في التوبة والحمية، ويصدأ كما تصدأ المرآة وجلاؤه بالذكر. ويعرى كما يعرى الجسم وزينته التقوى، ويجوع ويظمأ كما يجوع البدن، وطعامه وشرابه المعرفة والمحبة والتوكل والانابة والخدمة.

إياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلاً ولأيامك وأنفاسك أمداً ومن كل ما سواه بد ولا بد لك منه.

من ترك الاختيار والتدبير في طلب زيادة دنيا أو جاه أو في خوف نقصان أو في التخلص من عدو توكلاً على الله وثقة بتدبيره له وحسن اختياره له، فألقى كنفه بين يديه وسلم الأمر إليه ورضي بما يقضيه له، استراح من الهموم والغموم والأحزان ومن أبى إلا تدبيره لنفسه وقع في النكد والنصب وسوء الحال والتعب، فلا عيش يصفو ولا قلب يفرح. ولا عمل يزكو. ولا أمل يقوم ولا راحة تدوم. والله سبحانه سهل لخلقه السبيل إليه، وحجبهم عنه بالتدبير، فمن رضي بتدبير الله له وسكن إلى اختياره وسلم لحكمه، أزال ذلك الحجاب. فأفضى القلب إلى ربه واطمأن إليه وسكن.

المتوكل لا يسأل غير الله ولا يرد على الله ولا يدخر مع الله.

من شغل بنفسه شغل عن غيره، ومن شغل بربه شغل عن نفسه.

الاخلاص هو ما لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا عدو فيفسده ولا يعجب به صاحبه فيبطله.

الرضا سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

الناس في الدنيا معذبون على قدر همهم بها.

للقلب ستة مواطن يجول فيها لا سابع لها: ثلاثة سافلة وثلاثة عالية. فالسافلة دنيا تتزين له ونفس تحدثه وعدو يوسوس له. فهذه مواطن الأرواح السافلة التي لا تزال تجول فيها. والثلاثة العالية: علم يتبين له. وعقل يرشده. وإله يعبده. والقلوب جوالة في هذه المواطن.

اتباع الهوى وطول الأمل مادة كل فساد، فإن اتباع الهوى يعمي عن الحق معرفة وقصداً. وطول الأمل ينسي الآخرة ويصد عن الاستعداد لها - لا يشم عبد رائحة الصدق ويداهن نفسه أو يداهن غيره - إذا أراد الله بعبد خيراً جعله معترفاً بذنبه ممسكاً عن ذنب غيره. جواداً بما عنده زاهداً فيما عند غيره. محتملاً لأذى غيره، وان أراد به شراً عكس ذلك.

الهمة العلية لا تزال حائمة حول ثلاثة أشياء: تعرف لصفة من الصفات العليا تزداد بمعرفتها محبة وإرادة، وملاحظة لمنة تزداد بملاحظتها شكراً وطاعة وتذكر لذنب تزداد بتذكره توبة وخشية، فإذا تعلقت الهمة بسوى هذه الثلاثة جالت في أودية الوساوس والخطرات.

من عشق الدنيا نظرت إلى قدرها عنده فصيرته من خدمها وعبيدها وأذلته ومن أعرض عنها نظرت إلى كبر قدره فخدمته وذلت له.

إنما يقطع السفر ويصل المسافر بلزوم الجادة وسير الليل، فإذا حاد المسافر عن الطريق ونام الليل كله فمتى يصل إلى مقصده؟.

(فائدة جليلة)

تقوى العالم وزهده في الدنيا أصل لقبول فتواه

كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها، فلا بد أن يقول على الله غير الحق[1] في فتواه وحكمه في خبره وإلزامه، لأن أحكام الرب سبحانه كثيراً ما تأتي

(١) وفي هذا تأكيد على وجوب زهد العالم العابد في الدنيا واعتماده تقوى الله تعالى في كل امور حياته =

على خلاف أغراض الناس ولا سيما أهل الرياسة، والذين يتبعون الشبهات فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيراً، فإذا كان العالم والحاكم محبين للرياسة متبعين للشهوات لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق ولا سيما إذا قامت له شبهة فتتفق الشبهة والشهوة ويثور الهوى فيخفى الصواب وينطمس وجه الحق، وإن كان الحق ظاهراً لا خفاء به ولا شبهة فيه أقدم على مخالفته وقال لي مخرج بالتوبة، وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالى: ﴿**فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات**﴾(١) وقال تعالى فيهم أيضاً ﴿**فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وان يأتهم عرض مثله يأخذوه، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون**﴾(٢) فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنى مع علمهم بتحريمه عليهم وقالوا سيغفر لنا، وان عرض لهم عرض آخر أخذوه فهم مصرون على ذلك، وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق، فيقولون هذا حكمه وشرعه ودينه، وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أو لا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه، فتارة يقولون على الله ما لا يعلمون وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه.

وأما الذين يتقون فيعلمون أن الدار الآخرة خير من الدنيا فلا يحملهم حب الرياسة والشهوة على أن يؤثروا الدنيا على الآخرة. وطريق ذلك أن يتمسكوا بالكتاب والسنة ويستعينوا بالصبر والصلاة، ويتفكروا في الدنيا وزوالها وخستها والآخرة وإقبالها ودوامها، وهؤلاء لا بد أن يبتدعوا في الدين مع الفجور في العمل، فيجتمع لهم الأمران فإن إتباع الهوى يعمي عين القلب فلا يميز بين السنة والبدعة، أو ينكسه فيرى البدعة سنة والسنة بدعة، فهذه آفة العلماء إذا آثروا

= كشرط لقبول فتواه في الدنيا والآخرة. والا يتصدر للافتاء إلا العلماء الزهاد الفقهاء. ولذلك قال رسول الله ﷺ عن القضاة قاضيان في النار وقاض في الجنة.

(١) سورة مريم الآية ٥٩.

(٢) سورة الاعراف الآية ١٦٩.

الدنيا واتبعوا الرياسات والشهوات. وهذه الآيات فيهم إلى قوله: ﴿**واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه، فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث**﴾(١) فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه.

وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمه وذلك من وجوه:

(**أحدها**): أنه ضل بعد العلم واختار الكفر على الإيمان عمداً لا جهلاً.

(**وثانيها**): أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبداً فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي معه منها شيء لم ينسلخ منها.

(**وثالثها**): أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال ﴿**فأتبعه الشيطان**﴾ ولم يقل تبعه، فإن في معنى أتبعه أدركه ولحقه، وهو أبلغ من تبعه لفظاً ومعنى.

(**ورابعها**): أنه غوى بعد الرشد. والغي الضلال في العلم والقصد. وهو أخص بفساد القصد والعمل، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإن اقترنا فالفرق ما ذكر.

(**وخامسها**): أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه لأنه لم يرفع به فصار وبالاً عليه. فلو لم يكن عالماً كان خيراً له وأخف لعذابه.

(**وسادسها**): أنه سبحانه أخبر عن خسة همته وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى.

(**وسابعها**): أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض. وميل بكليته إلى ما هناك. وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام كأنه قيل لزم الميل إلى الأرض. ومن هذا يقال أخلد فلان بالمكان إذا لزم الاقامة به، قال مالك بن نويرة:

بأبناء حي من قبائل مالك وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا

(١) سورة الاعراف الآية (١٧٥ - ١٧٦)

وعبر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض، لأن الدنيا هي الأرض وما فيها وما يستخرج من الزينة والمتاع.

(وثامنها): أنه رغب عن هداه واتبع هواه فجعل هواه إماماً له يقتدي به ويتبعه .

(وتاسعها): أنه شبهه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات همة، وأسقطها نفساً وأبخلها وأشد كلباً. ولهذا سمي كلباً.

(وعاشرها): أنه شبه لهثه على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدها وحرصه على تحصيلها بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد وهكذا .

هذا إن ترك فهو لهثان على الدنيا، وإن وعظ وزجر فهو كذلك فاللهث لا يفارقه في كل حال كلهث الكلب.

قال ابن قتيبة: كل شيء يلهث فإنما يلهث من أعياء أو عطش إلا الكلب فانه يلهث في حال الكلال وحال الراحة وحال الري وحال العطش. فضربه الله مثلاً لهذا الكافر فقال: ان وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال. كالكلب إن طردته لهث. وإن تركته على حاله لهث. وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب وإنما وقع بالكلب اللاهث. وذلك أخس ما يكون وأشنعه.

احذروا فتنة العالم الفاجر وفتنة العابد الجاهل

فهذا حال العالم المؤثر الدنيا على الآخرة. وأما العابد الجاهل فآفته من إعراضه عن العلم وأحكامه وغلبة خياله وذوقه ووجده وما تهواه نفسه. ولهذا قال سفيان بن عيينة وغيره: احذروا فتنة العالم الفاجر، وفتنة العابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فهذا بجهله يصد عن العلم وموجبه، وذاك بغيه يدعو إلى الفجور.

وقد ضرب الله سبحانه مثل النوع الآخر بقوله: **﴿كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين، فكان**

عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين﴾[1] وقصته معروفة فإنه بنى أساس أمره على عبادة الله بجهل فأوقعه الشيطان بجهله وكفره بجهله. فهذا أمام كل عابد جاهل يكفر ولا يدري. وذاك أمام كل عالم فاجر يختار الدنيا على الآخرة، وقد جعل سبحانه رضا العبد بالدنيا وطمأنينته وغفلته عن معرفة آياته وتدبرها والعمل بها سبب شقائه وهلاكه. ولا يجتمع هذان «أعني الرضى بالدنيا والغفلة عن آيات الرب» إلا في قلب من لا يؤمن بالمعاد ولا يرجو لقاء رب العباد، وإلا فلو رسخ قدمه في الايمان بالمعاد لما رضي الدنيا ولا اطمأن إليها، ولا أعرض عن آيات الله.

وأنت إذا تأملت أحوال الناس وجدت هذا الضرب هو الغالب على الناس وهم عمار الدنيا، وأقل الناس عدداً من هو خلاف ذلك وهو من أشد الناس غربة بينهم، لهم شأن وله شأن، علمه غير علومهم وإرادته غير إرادتهم. وطريقه غير طريقهم، فهو في واد وهم في واد. قال تعالى: ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾[2] ثم ذكر وصف ضد هؤلاء ومآلهم وعاقبتهم بقوله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم﴾[3] فهؤلاء إيمانهم بلقاء الله أورثهم عدم الرضا بالدنيا والطمأنينة إليها ودوام ذكر آياته، فهذه مواريث الايمان بالمعاد وتلك مواريث عدم الإيمان به والغفلة عنه.

(فائدة عظيمة)

العلم والإيمان أفضل ما يكتسبه المرء

أفضل ما اكتسبته النفوس وحصلته القلوب، ونال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، هو العلم والإيمان، ولهذا قرن بينهما سبحانه في قوله: ﴿وقال الذين

---

(١) سورة الحشر الآية (١٦ ـ ١٧).
(٢) سورة يونس الآية (٧ ـ ٨).
(٣) سورة يونس الآية ٩.

أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث﴾[1] وقوله: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾[2] وهؤلاء هم خلاصة الوجود ولبه المؤهلون للمراتب العالية ولكن أكثر الناس غالطون في حقيقة مسمى العلم والإيمان اللذين بهما السعادة والرفعة وفي حقيقتهما، حتى أن كل طائفة تظن أن ما معها من العلم والايمان هو هذا الذي تنال به السعادة، وليس كذلك، بل أكثرهم ليس معهم إيمان ينجي ولا علم يرفع، بل قد سدوا على نفوسهم طرق العلم والايمان اللذين جاء بهما الرسول ﷺ ودعا إليهما الأمة، وكان عليهما هو وأصحابه من بعده، وتابعوهم على منهاجهم وآثارهم.

فكل طائفة اعتقدت أن العلم ما معها وفرحت به، ﴿فتقطعُوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون﴾[3] وأكثر ما عندهم كلام وآراء وخرص، والعلم وراء الكلام، كما قال حماد بن زيد[4]. قلت لأيوب[5]: العلم اليوم أكثر أو فيما تقدم، فقال: الكلام اليوم أكثر، والعلم فيما تقدم أكثر.

ففرق هذا الراسخ بين العلم والكلام، فالكتب كثيرة جداً، والكلام والجدال والمقدرات الذهنية كثيرة، والعلم بمعزل عن أكثرها، وهو ما جاء به الرسول عن الله. قال تعالى: ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم﴾[6] وقال: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم﴾[7] وقال في القرآن:

---

(١) سورة الروم الآية ٥٦.

(٢) سورة المجادلة الآية ١١.

(٣) سورة المؤمنون الآية ٥٣.

(٤) هو حماد بن زيد بن درهم الازدي الجهضمي - أبو إسماعيل - شيخ العراق في عصره. من حفاظ الحديث المجودين، يعرف بالأزرق، مولده ووفاته في البصرة. وكان ضريراً طرأ عليه العمىٰ، يحفظ أربعة آلاف حديث. خرج حديثه الأئمة الستة. توفي سنة (١٧٩ هـ - ٧٩٥ م).

(٥) هو أيوب بن أبي تميمة كيسان السختياني البصري - أبو بكر - سيد فقهاء عصره. تابعي، من النساك الزهاد. من حفاظ الحديث روي عنه ٨٠٠ حديث.

(٦) سورة آل عمران الآية ٦١.

(٧) سورة البقرة الآية ١٢٠.

﴿أنزله بعلمه﴾[1] أي وفيه علمه.

ولما بعد العهد بهذا العلم آل الأمر بكثير من الناس إلى أن اتخذوا هواجس الأفكار، وسوانح الخواطر والآراء علماً، ووضعوا فيها الكتب وأنفقوا فيها الأنفاس، فضيعوا فيها الزمان. وملأوا بها الصحف مداداً. والقلوب سواداً حتى صرح كثير منهم أنه ليس في القرآن والسنة علم وإن أدلتها لفظية لا تفيد يقيناً ولا علماً، وصرخ الشيطان بهذه الكلمة فيهم وأذن بها بين أظهرهم حتى أسمعها دانيهم لقاصيهم، فانسلخت بها القلوب من العلم والإيمان كانسلاخ الحية من قشرها والثوب عن لابسه.

قال الامام العلامة شمس الدين بن القيم: ولقد أخبرني بعض أصحابنا عن بعض أتباع أتباع تلاميذ هؤلاء أنه رآه يشتغل في بعض كتبهم ولم يحفظ القرآن، فقال له لو حفظت القرآن أولاً كان أولى، فقال: وهل في القرآن علم؟ قال ابن القيم: وقال لي بعض أئمة هؤلاء: إنما نسمع الحديث لأجل البركة لا لنستفيد منه العلم، لأن غيرنا قد كفانا هذه المؤونة، فعمدتنا على ما فهموه وقرروه، ولا شك أن من كان هذا مبلغه من العلم فهو كما قال القائل:

نزلوا بمكة في قبائل هاشم ونزلت بالبطحاء أبعد منزل

قال: وقال لي شيخنا مرة في وصف هؤلاء، انهم طافوا على أرباب المذاهب ففازوا بأخس المطالب، ويكفيك دليلاً على أن هذا الذي عندهم ليس من عند الله ما ترى فيه من التناقض والاختلاف ومصادمة بعضه لبعض قال تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[2] وهذا يدل على أن ما كان من عنده سبحانه لا يختلف. وأن ما اختلف وتناقض فليس من عنده، وكيف تكون الآراء والخيالات وسوانح الأفكار دينا يدان به ويحكم به على الله ورسوله؟.

سبحانك هذا بهتان عظيم.

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٦.
(٢) سورة النساء الآية ٨٢.

وقد كان علم الصحابة الذي يتذاكرون فيه غير علوم هؤلاء المختلفين الخراصين كما حكى الحاكم في ترجمة أبي عبد الله البخاري قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا إنما يتذاكرون كتاب ربهم. وسنة نبيهم، ليس بينهم رأي ولا قياس.

ولقد أحسن القائل:

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة وليس بالتمويه
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة ... بين الرسول وبين رأي فقيه
كلا ولا جحد الصفات ونفيها ... حذراً من التمثيل والتشبيه

الايمان معرفة وعلم وإقرار ومحبة

وأما الإيمان فأكثر الناس أو كلهم يدعونه ﴿**وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين**﴾(١) وأكثر المؤمنين إنما عندهم إيمان مجمل، وأما الإيمان المفصل بما جاء به الرسول ﷺ معرفة وعلماً وإقراراً ومحبة، ومعرفة بضده وكراهيته وبغضه، فهذا إيمان خواص الأمة وخاصة الرسول، وهو إيمان الصديق وحزبه.

وكثير من الناس حظهم من الإيمان الإقرار بوجود الصانع، وأنه وحده هوالذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وهذا لم يكن ينكره عباد الأصنام من قريش ونحوهم، وآخرون الإيمان عندهم هو التكلم بالشهادتين سواء كان معه عمل أو لم يكن، وسواء وافق تصديق القلب أو خالفه. وآخرون عندهم الإيمان مجرد تصديق القلب بأن الله سبحانه خالق السموات والأرض وأن محمداً عبده ورسوله، وإن لم يقر بلسانه ولم يعمل شيئاً، بل ولو سب الله ورسوله وأتى بكل عظيمة، وهو يعتقد وحدانية الله وبنوة رسوله فهو مؤمن. وآخرون عندهم الايمان هو جحد صفات الرب تعالى من علوه على عرشه وتكلمه بكلماته وكتبه وسمعه وبصره ومشيئته وقدرته وإرادته وحبه وبغضه وغير ذلك مما وصف به نفسه،

---

(١) سورة يوسف الآية ١٠٣.

ووصفه به رسوله، فالإيمان عندهم إنكار حقائق ذلك كله، وجحده والوقوف مع ما تقتضيه آراء المتهوكين(١) وأفكار المخرصين(٢) الذين يرد بعضهم على بعض، وينقض بعضهم قول بعض، الذين هم كما قال عمر بن الخطاب والامام أحمد: مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب. متفقون على مفارقة الكتاب.

وآخرون عندهم الايمان عبادة الله بحكم أذواقهم ومواجيدهم وما تهواه نفوسهم من غير تقييد بما جاء به الرسول.

وآخرون الايمان عندهم ما وجدوا عليه آباء هم وأسلافهم بحكم الاتفاق كائناً ما كان، بل إيمانهم مبني على مقدمتين: إحداهما أن هذا قول أسلافنا وآبائنا، والثانية أن ما قالوه فهو الحق.

وآخرون عندهم الايمان مكارم الأخلاق وحسن المعاملة وطلاقة الوجه وإحسان الظن بكل أحد، وتخلية الناس وغفلاتهم.

وآخرون عندهم الايمان التجرد من الدنيا وعلائقها وتفريغ القلب منها والزهد فيها، فإذا رأوا رجلاً هكذا جعلوه من سادات أهل الايمان وإن كان منسلخاً من الايمان علماً وعملاً وأعلى من هؤلاء من جعل الايمان هو مجرد العلم وإن لم يقارنه عمل.

وكل هؤلاء لم يعرفوا حقيقة الايمان ولا قاموا به ولا قام بهم وهم أنواع: منهم من جعل الايمان ما يضاد الايمان، ومنهم من جعل الايمان ما لا يعتبر في الإيمان، ومنهم من جعله ما هو شرط فيه ولا يكفي في حصوله، ومنهم من اشترط في ثبوته ما يناقضه ويضاده. ومنهم من اشترط فيه ما ليس منه بوجه.

والايمان وراء ذلك كله، وهو حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علماً والتصديق به عقداً والاقرار به نطقاً والانقياد له محبة وخضوعاً، والعمل به باطناً وظاهراً وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الامكان وكماله في الحب في الله والبغض في الله، والعطاء لله والمنع لله، وأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده،

(١) المتهوكون: المتحيرون والمترددون. (٢) المخرصون: المكذبون والمشككون.

والطريق إليه تجريد متابعة رسوله ظاهراً وباطناً. وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله ورسوله. وبالله التوفيق.

من اشتغل بالله عن نفسه كفاه الله مؤونة نفسه. ومن اشتغل بالله عن الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن اشتغل بنفسه عن الله وكله الله إلى نفسه، ومن اشتغل بالناس عن الله وكله الله إليهم.

(فائدة جليلة)

المشقة في ترك المألوف إرضاءً لله تكسب المرء سعادة الدنيا والفوز في الآخرة

إنما يجد المشقة في ترك المألوفات والعوائد من تركها لغير الله. فأما من تركها صادقاً مخلصاً من قلبه لله فإنه لا يجد في تركها مشقة إلا في أول وهلة ليمتحن أصادق هو في تركها أم كاذب، فإن صبر على تلك المشقة استحالت لذة. قال ابن سيرين: سمعت شريحاً يحلف بالله ما ترك عبدٌ لله شيئاً فوجدَ فقده. وقولهم: من ترك شيئاً عوضه الله خيراً منه حق، والعوض أنواع مختلفة وأجلّ ما يعوض به الأنس بالله ومحبته وطمأنينة القلب به وقوته ونشاطه وفرحه ورضاه عن ربه تعالى.

أغبى الناس من ضل في آخر سفره وقد قارب المنزل، العقول المؤيدة بالتوفيق ترى أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الموافق للعقل والحكمة، والعقول المضروبة بالخذلان ترى المعارضة بين العقل والنقل وبين الحكمة والشرع.

أقرب الوسائل إلى الله ملازمة السنة والوقوف معها في الظاهر والباطن، ودوام الافتقار إلى الله وإرادة وجهه وحده بالأقوال والأفعال، وما وصل أحد إلى الله إلا من هذه الثلاثة، وما انقطع عنه أحد إلا بانقطاعه عنها أو عن أحدها.

الأصول التي انبنى عليها سعادة العبد ثلاثة، ولكل واحد منها ضد، فمن فقد ذلك الأصل حصل على ضده: التوحيد وضده الشرك، والسنة وضدها البدعة، والطاعة وضدها المعصية. ولهذه الثلاثة ضد واحد وهو خلو القلب من الرغبة في الله وفيما عنده، ومن الرهبة منه ومما عنده.

(قاعدة جليلة)

قال الله تعالى: ﴿**وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين**﴾[1] وقال: ﴿**ومن يشاقق الرسول من بعدِ مَا تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى**﴾[2] الآية، والله تعالى قد بين في كتابه سبيل المؤمنين مفصلة، وسبيل المجرمين مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة وعاقبة هؤلاء مفصلة، وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء وأولياء هؤلاء وأولياء هؤلاء وخذلانه لهؤلاء وتوفيقه لهؤلاء والأسباب التي وفق بها هؤلاء، والأسباب التي خذل بها هؤلاء. وجلا سبحانه الأمرين في كتابه وكشفهما وأوضحهما وبينهما غاية البيان حتى شاهدتها البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام.

فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبانت لهم السبيلان، كما يستبين للسالك الطريق الموصل إلى مقصوده والطريق الموصل إلى الهلكة، فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة، وبذلك برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة، فإنهم نشأوا في سبيل الضلال والكفر والشرك والسبل الموصلة إلى الهلاك وعرفوها مفصلة، ثم جاء الرسول فأخرجهم من تلك الظلمات إلى سبيل الهدى وصراط الله المستقيم، فخرجوا من الظلمة الشديدة إلى النور التام، ومن الشرك إلى التوحيد ومن الجهل إلى العلم، ومن الغي إلى الرشاد، ومن الظلم إلى العدل، ومن الحيرة والعمى إلى الهدى والبصائر فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به، ومقدار ما كانوا فيه، فإن الضد يظهر حسنه الضد، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها، فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه. ونفرة وبغضاً لما انتقلوا عنه. وكانوا أحب الناس في التوحيد والايمان والاسلام وأبغض الناس في ضده، عالمين بالسبيل على التفصيل.

---

(١) سورة الانعام الآية ٥٥.

(٢) سورة النساء الآية ١١٥.

وأما من جاء بعد الصحابة فمنهم من نشأ في الاسلام غير عالم تفصيل ضده فالتبس عليه بعض تفاصيل سبيل المؤمنين بسبيل المجرمين، فإن اللبس إنما يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين أو أحدهما، كما قال عمر: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية. وهذا من كمال علم عمر رضي الله عنه، فإنه إذا لم يعرف الجاهلية وحكمها، وهو كل ما خالف ما جاء به الرسول ﷺ فإنه من الجاهلية فإنها منسوبة إلى الجهل. وكل ما خالف الرسول فهو من الجهل، فمن لم يعرف سبيل المجرمين، ولم تستبن له أو شك أن يظن في بعض سبيلهم أنهم من سبيل المؤمنين، كما وقع في هذه الأمة من أمور كثيرة في باب الاعتقاد والعلم والعمل هي من سبيل المجرمين والكفار وأعداء الرسل أدخلها من لم يعرف أنها من سبيلهم في سبيل المؤمنين ودعا إليها وكفر من خالفها، واستحل منه ما حرمه الله ورسوله كما وقع لأكثر أهل البدع من الجهمية والقدرية والخوارج والروافض وأشباههم ممن ابتدع بدعة ودعا إليها وكفر من خالفها.

والناس في هذا الموضع أربع فرق:

الفرقة الأولى: من استبان له سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين على التفصيل علماً وعملاً وهؤلاء أعلم الخلق.

الفرقة الثانية: من عميت عنه السبيلان من أشباه الأنعام. وهؤلاء بسبيل المجرمين أحضر ولها أسلك.

الفرقة الثالثة: من صرف عنايته إلى معرفة سبيل المؤمنين دون ضدها فهو يعرف ضدها من حيث الجملة والمخالفة. وأن كل ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطل، وان لم يتصوره على التفصيل، بل إذا سمع شيئاً مما خالف سبيل المؤمنين صرف سمعه عنه ولم يشغل نفسه بفهمه ومعرفة وجه بطلانه. وهو بمنزلة من سلمت نفسه من إرادة الشهوات فلم تخطر بقلبه، ولم تدعه إليها نفسه. بخلاف الفرقة الأولى فانهم يعرفونها وتميل إليها نفوسهم ويجاهدونها على تركها لله.

وقد كتبوا إلى عمر بن الخطاب يسألونه عن هذه المسألة أيما أفضل: رجل لم

تخطر له الشهوات ولم تمر بباله أو رجل نازعته اليها نفسه فتركها لله. فكتب عمر أن الذي تشتهي نفسه المعاصي ويتركها لله عز وجل من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم.

وهكذا من عرف البدع والشرك والباطل وطرقه، فأبغضها لله وحذرها وحذر منها ودفعها عن نفسه، ولم يدعها تخدش وجه إيمانه ولا تورثه شبهة ولاشكاً، بل يزداد بمعرفتها بصيرة في الحق ومحبة له، وكراهة لها ونفرة عنها، أفضل ممن لا تخطر بباله ولا تمر بقلبه فإنه كلما مرت بقلبه وتصورت له ازداد محبة للحق ومعرفة بقدره وسروراً به فيقوى إيمانه به، كما أن صاحب خواطر الشهوات والمعاصي كلما مرت به فرغب عنها إلى ضدها ازداد محبة لضدها، ورغبة فيه وطلباً له وحرصاً عليه، فما ابتلى الله سبحانه عبده المؤمن بمحبة الشهوات والمعاصي وميل نفسه إليها إلا ليسوقه إلى محبة ما هو أفضل منها وخير له وأنفع وأدوم، وليجاهد نفسه على تركها له سبحانه، فتورثه تلك المجاهدة الوصول إلى المحبوب الأعلى، فكلما نازعته نفسه إلى تلك الشهوات واشتدت إرادته لها وشوقه إليها صرف ذلك الشوق والارادة والمحبة إلى النوع العالي الدائم، فكان طلبه له أشد وحرصه عليه أتم، بخلاف النفس الباردة الخالية من ذلك فإنها وإن كانت طالبة للأعلى، لكن بين الطلبين فرق عظيم. ألا ترى أن من مشى إلى محبوبه على الجمر والشوك أعظم ممن مشى إليه راكباً على النجائب[1]، فليس من آثر محبوبه مع منازعة نفسه كمن آثره مع عدم منازعتها إلى غيره، فهو سبحانه يبتلي عبده بالشهوات، إما حجاباً له عنه، أو حاجباً له يوصله إلى رضاه وقربه وكرامته.

الفرقة الرابعة: فرقة عرفت سبيل الشر والبدع والكفر مفصلة وسبيل المؤمنين مجملة، وهذا حال كثير ممن اعتنى بمقالات الأمم ومقالات أهل البدع فعرفها على التفصيل، ولم يعرف ما جاء به الرسول كذلك، بل عرفه معرفة مجملة وان تفصلت له بعض الأشياء. ومن تأمل كتبهم رأى ذلك عياناً. وكذلك من كان

---

(١) النجائب: نجائب الابل خيارها.

عارفاً بطرق الشر والظلم والفساد على التفصيل، سالكاً لها إذا تاب ورجع عنها إلى سبيل الأبرار يكون علمه بها مجملاً غير عارف بها على التفصيل معرفة من أفنى عمره في تصرفها وسلوكها.

والمقصود أن الله سبحانه يحب أن تعرف سبيل أعدائه لتجتنب وتبغض. كما يحب أن تعرف سبيل أوليائه لتحب وتسلك. وفي هذه المعرفة من الفوائد والأسرار ما لا يعلمه إلا الله من معرفة عموم ربوبيته سبحانه وحكمته وكمال أسمائه وصفاته وتعلقها بمتعلقاتها واقتضائها لآثارها وموجباتها. وذلك من أعظم الدلالة على ربوبيته وملكه وإلهيته وحبه وبغضه، وثوابه وعقابه. والله أعلم.

أرباب الحوائج على باب الملك يسألون قضاء حوائجهم، وأولياؤه المحبون له الذين هو همهم ومرادهم جلساؤه وخواصه، فإذا أراد قضاء حاجة واحد من أولئك أذن لبعض جلسائه وخاصته أن يشفع فيه رحمة له وكرامة للشافع. وسائر الناس مطرودون عن الباب مضروبون بسياط البعد.

عشرة ضائعة لا ينتفع بها

عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها: علم لا يعمل به، وعمل لا إخلاص فيه ولا اقتداء، ومال لا ينفق منه فلا يستمتع به جامعه في الدنيا ولا يقدمه أمامه إلى الآخرة، وقلب فارغ من محبة الله والشوق إليه والأنس به، وبدن معطل عن طاعته وخدمته، ومحبة لا تتقيد برضاء المحبوب وامتثال أوامره، ووقت معطل عن استدراك فارط أو اغتنام بر وقربة، وفكر يجول فيما لا ينفع. وخدمة من لا تقربك خدمته إلى الله ولا تعود عليك بصلاح دنياك. وخوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله وهو أسير في قبضته، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وأعظم هذه الاضاعات إضاعتان هما أصل كل إضاعة: إضاعة القلب وإضاعة الوقت، فإضاعة القلب من إيثار الدنيا على الآخرة وإضاعة الوقت من طول الأمل، فاجتمع الفساد كله في اتباع الهوى وطول الأمل، والصلاح كله في اتباع الهدى والاستعداد للقاء والله المستعان.

العجب ممن تعرض له حاجة فيصرف رغبته وهمته فيها إلى الله ليقضيها له، ولا يتصدى للسؤال لحياة قلبه من موت الجهل والاعراض وشفائه من داء الشهوات والشبهات، ولكن إذا مات القلب لم يشعر بمعصيته.

حق الله على عباده

لله سبحانه على عبده أمر أمره به، وقضاء يقضيه عليه، ونعمة ينعم بها عليه، فلا ينفك من هذه الثلاثة، والقضاء نوعان: إما مصائب وإما معائب. وله عليه عبودية في هذه المراتب كلها، فأحب الخلق إليه من عرف عبوديته في هذه المراتب ووفاها حقها، فهذا أقرب الخلق إليه. وأبعدهم منه من جهل عبوديته في هذه المراتب فعطلها علماً وعملاً، فعبوديته في الأمر امتثاله اخلاصاً واقتداءبرسول الله ﷺ، وفي النهي اجتنابه خوفاً منه وإجلالاً ومحبة، وعبوديته في قضاء المصائب الصبر عليها ثم الرضا بها وهو أعلى منه ثم الشكر عليها وهو أعلى من الرضا، وهذا إنما يتأتى منه إذا تمكن حبه من قلبه وعلم حسن اختياره له وبره به ولطفه به، وإحسانه إليه بالمصيبة وإن كره المصيبة، وعبوديته في قضاء المعائب المبادرة إلى التوبة منها والتنصل والوقوف في مقام الاعتذار والانكسار، عالماً بأنه لا يرفعها عنه إلا هو ولا يقيه شرها سواه، وأنها إذا استمرت أبعدته عن قربه وطردته من بابه، فيراها من الضر الذي لا يكشفه غيره، حتى أنه ليراها أعظم من ضر البدن، فهو عائذ برضاه من سخطه، وبعفوه من عقوبته، وبه منه مستجير، وملتجىء منه إليه يعلم أنه إن تخلى عنه وخلى بينه وبين نفسه فعنده أمثالها وشر منها، وأنه لا سبيل له إلى الاقلاع والتوبة إلا بتوفيقه وإعانته، وأن ذلك بيده سبحانه لا بيد العبد، فهو اعجز وأضعف وأقل من أن يوفق نفسه أو يأتي بمرضاة سيده بدون إذنه ومشيئته وإعانته، فهو ملتجىء متضرع ذليل مسكين ملق نفسه بين يديه، طريح ببابه مستخذٍ له أذل شيء وأكسره له وأفقره وأحوجه إليه، وأرغبه فيه وأحبه له، بدنه متصرف في أشغاله، وقلبه ساجد بين يديه، يعلم يقيناً أنه لا خير فيه ولا له ولا به ولا منه. وأن الخير كله لله وفي يديه وبه ومنه فهو ولي نعمته، ومبتدئه بها من غير

استحقاق ومجريها عليه مع تمقته إليه بإعراضه وغفلته ومعصيته، فحظه سبحانه الحمد والشكر والثناء، وحظ العبد الذم والنقص والعيب، قد استأثر بالمحامد والمدح والثناء، وولي العبد الملامة والنقائص والعيوب، فالحمد كله له والخير كله في يديه، والفضل كله له والثناء كله له والمنة كلها له، فمنه الاحسان ومن العبد الاساءة، ومنه التودد إلى العبد بنعمه ومن العبد التبغض إليه بمعاصيه. ومنه النصح لعبده. ومن العبد الغش له في معاملته.

وأما عبودية النعم فمعرفتها والاعتراف بها أولاً ثم العياذ به أن يقع في قلبه نسبتها وإضافتها إلى سواه، وإن كان سبباً من الأسباب فهو مسببه ومقيمه فالنعمة منه وحده بكل وجه واعتبار، ثم الثناء بها عليه ومحبته عليها وشكره بأن يستعملها في طاعته.

ومن لطائف التعبد بالنعم أن يستكثر قليلها عليه ويستقل كثير شكره عليها ويعلم أنها وصلت إليه من سيده من غير ثمن بذله فيها ولا وسيلة منه توسل بها إليه، ولا استحقاق منه لها، وانها لله في الحقيقة لا للعبد، فلا تزيده النعم إلا انكساراً وذلاً وتواضعاً ومحبة للنعم، وكلما جدد له نعمة أحدث لها عبودية ومحبة وخضوعاً وذلاً، وكلما أحدث له قبضاً أحدث له رضى، وكلما أحدث ذنباً أحدث له توبة وانكساراً واعتذاراً. فهذا هو العبد الكيس، والعاجز بمعزل عن ذلك وبالله التوفيق.

توكلوا على الله حق توكله

من ترك الاختيار والتدبير في رجاء زيادة أو خوف نقصان أو صحة أو فرار من سقم، وعلم أن الله على كل شيء قدير، وأنه المتفرد بالاختيار والتدبير. وأن تدبيره لعبده خير من تدبير العبد لنفسه وأنه أعلم بمصلحته من العبد وأقدر على جلبها وتحصيلها منه وأنصح للعبد منه لنفسه وأرحم به منه بنفسه، وأبر به منه بنفسه. وعلم مع ذلك أنه لا يستطيع أن يتقدم بين يدي تدبيره خطوة واحدة ولا يتأخر عن تدبيره له خطوة واحدة، فلا متقدم له بين يدي قضائه وقدره ولا متأخر،

فألقى نفسه بين يديه وسلم الأمر كله إليه، وانطرح بين يديه انطراح عبد مملوك ضعيف بين يدي ملك عزيز قاهر. له التصرف في عبده بكل ما يشاء، وليس للعبد التصرف فيه بوجه من الوجوه، فاستراح حينئذ من الهموم والغموم والانكاد والحسرات. وحمل كله وحوائجه ومصالحه من لا يبالي بحملها ولا يثقله ولا يكترث بها. فتولاها دونه وأراه لطفه وبره ورحمته وإحسانه فيها من غير تعب من العبد ولا نصب. ولا اهتمام منه. لأنه قد صرف اهتمامه كله إليه وجعله وحده همه. فصَرف عنه اهتمامه بحوائجه ومصالح دنياه، وفرغ قلبه منها فما أطيب عيشه وما أنعم قلبه وأعظم سروره وفرحه وإن أبى إلا تدبيره لنفسه واختياره لها واهتمامه بحظه دون حق ربه، خلاه وما اختاره وولاه ما تولى فحضره الهم والغم والحزن والنكد والخوف والتعب، وكسف البال، وسوء الحال، فلا قلب يصفو ولا عمل يزكو، ولا أمل يحصل، ولا راحة يفوز بها ولا لذة يتهنى بها، بل قد حيل بينه وبين مسرته وفرحه وقرة عينه. فهو يكدح في الدنيا كدح الوحش ولا يظفر منها بأمل ولا يتزود منها لمعاد. والله سبحانه قد أمر العبد بأمر وضمن له ضماناً، فإن قام بأمره بالنصح والصدق والاخلاص والاجتهاد قام الله سبحانه له بما ضمنه له من الرزق والكفاية والنصر وقضاء الحوائج. فانه سبحانه ضمن الرزق لمن عبده والنصر لمن توكل عليه واستنصر به، والكفاية لمن كان هو همه ومراده، والمغفرة لمن استغفره، وقضاء الحوائج لمن صدقه في طلبها ووثق به وقوي رجاؤه وطمعه في فضله وجوده.

فالفطن الكيس إنما يهتم بأمره وإقامته وتوفيقه لا بضمانه فإنه الوفي الصادق ومن أوفى بعهده من الله. فمن علامات السعادة صرف اهتمامه إلى أمر الله دون ضمانه، ومن علامات الحرمان فراغ قلبه من الاهتمام بأمره وحبه وخشيته والاهتمام بضمانه والله المستعان.

قال بشر بن الحارث[1] أهل الآخرة ثلاثة: عابد وزاهد وصديق. فالعابد

---

(١) هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء المعروف «الحافي» من كبار الصالحين له في الزهد والورع أخبار، وهو من ثقات رجال الحديث، من اهل «مرو» سكن بغداد وتوفي بها سنة (٢٢٧ هـ - ٨٤١).

يعبد الله مع العلائق. والزاهد يعبده على ترك العلائق. والصديق يعبده على الرضا والموافقة، ان أراه أخذ الدنيا أخذها وان أراه تركها تركها.

إذا كان الله ورسوله في جانب فاحذر أن تكون في الجانب الآخر. فإن ذلك يفضي إلى المشاقة والمحادة. وهذا أصلها ومنه اشتقاقها. فإن المشاقة أن يكون في شق ومن يخالفه في شق. والمحادة أن يكون في حد وهو في حد. ولا تستسهل هذا فإن مبادئه تجر إلى غايته وقليله يدعو إلى كثيره. وكن في الجانب الذي فيه الله ورسوله. وان كان الناس كلهم في الجانب الآخر. فإن لذلك عواقب هي أحمد العواقب وأفضلها. وليس للعبد أنفع من ذلك في دنياه قبل آخرته وأكثر الخلق إنما يكونون من الجانب الآخر ولا سيما إذا قويت الرغبة والرهبة فهناك لا تكاد تجد أحداً في الجانب الذي فيه الله ورسوله. بل يعده الناس ناقص العقل سيء الاختيار لنفسه، وربما نسبوه إلى الجنون. وذلك من مواريث أعداء الرسل، فإنهم نسبوهم إلى الجنون لما كانوا في شق وجانب، والناس في شق وجانب آخر، ولكن من وطن نفسه على ذلك فإنه يحتاج إلى علم راسخ بما جاء به الرسول يكون يقيناً له لا ريب عنده فيه، وإلى صبر تام على معاداة من عاداه ولومة من لامه، ولا يتم له ذلك إلا برغبة قوية في الله والدار الآخرة، بحيث تكون الاخرة أحب إليه من الدنيا وآثر عنده منها. ويكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وليس شيء أصعب على الانسان من ذلك في مبادىء الأمر، فإن نفسه وهواه وطبعه وشيطانه واخوانه ومعاشريه من ذلك الجانب يدعونه إلى العاجل، فإذا خالفهم تصدوا لحربه، فإن صبر وثبت جاءه العون من الله وصار ذلك الصعب سهلاً. وذلك الألم لذة، فان الرب شكور فلا بد أن يذيقه لذة تحيزه إلى الله وإلى رسوله. ويريه كرامة ذلك فيشتد به سروره وغبطته ويبتهج به قلبه ويظفر بقوته وفرحه وسروره. ويبقى من كان محارباً له على ذلك بين هائب له ومسالم له ومساعد وتارك، ويقوى جنده ويضعف جند العدو.

ولا تستصعب مخالفة الناس والتحيز إلى الله ورسوله، ولو كنت وحدك فان

الله معك وأنت بعينه وكلاءته، وحفظه لك وإنما امتحن يقينك وصبرك وأعظم الأعوان لك على هذا بعد عون الله التجرد من الطمع والفزع، فمتى تجردت منهما هان عليك التحيز إلى الله ورسوله، وكنت دائماً في الجانب الذي فيه الله ورسوله، ومتى قام بك الطمع والفزع فلا تطمع في هذا الأمر ولا تحدث نفسك به.

فإن قلت فبأي شيء أستعين على التجرد من الطمع ومن الفزع؟ قلت: بالتوحيد والتوكل والثقة بالله وعلمك بأنه لا يأتي بالحسنات إلا هو ولا يذهب بالسيئات إلا هو، وأن الأمر كله لله، ليس لأحد مع الله شيء.

(نصيحة)

هلم إلى الدخول على الله ومجاورته في دار السلام بلا نصب ولا تعب ولا عناء بل من أقرب الطرق وأسهلها. وذلك أنك في وقت بين وقتين وهو في الحقيقة عمرك، وهو وقتك الحاضر بين ما مضى وما يستقبل، فالذي مضى تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار، وذلك شيء لا تعب عليك فيه ولا نصب ولا معاناة عمل شاق، إنما هو عمل قلب، وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب، وامتناعك ترك وراحة ليس هو عملاً بالجوارح يشق عليك معاناته، وإنما هو عزم ونية جازمة تريح بدنك وقلبك وسرك، فما مضى تصلحه بالتوبة. وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية، وليس للجوارح في هذين نصب ولا تعب. ولكن الشأن في عمرك وهو وقتك الذي بين الوقتين، فإن أضعته أضعت سعادتك ونجاتك، وإن حفظته مع إصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده بما ذكر نجوت وفزت بالراحة واللذة والنعيم. وحفظه أشق من إصلاح ما قبله وما بعده، فإن حفظه أن تلزم نفسك بما هو أولى بها وأنفع لها وأعظم تحصيلاً لسعادتها. وفي هذا تفاوت الناس أعظم تفاوت، فهي والله أيامك الخالية التي تجمع فيها الزاد لمعادك إما إلى الجنة وإما إلى النار. فإن اتخذت إليها سبيلاً إلى ربك بلغت السعادة العظمى والفوز الأكبر في هذه المدة اليسيرة التي لا نسبة لها إلى الأبد. وإن آثرت الشهوات والراحات واللهو واللعب

انقضت عنك بسرعة، وأعقبتك الألم العظيم الدائم الذي مقاساته ومعاناته أشق وأصعب وأدوم من معاناة الصبر عن محارم الله والصبر على طاعته ومخالفة الهوى لأجله.

رضا الله علامة صحة الارادة

علامة صحة الإرادة أن يكون هم المريد رضا ربه واستعداده للقائه وحزنه على وقت مر في غير مرضاته وأسفه على قربه والأنس به. وجماع ذلك أن يصبح ويمسي وليس له هم غيره.

استعن بالله واجعل الله أُنسك

إذا استغنى الناس بالدنيا فاستغن أنت بالله. وإذا فرحوا بالدنيا فافرح أنت بالله. وإذا أنسوا بأحبابهم فاجعل أنسك بالله. وإذا تعرفوا إلى ملوكهم وكبرائهم وتقربوا إليهم لينالوا بهم العزة والرفعة فتعرف أنت إلى الله وتودد إليه تنل غاية العز والرفعة.

قال بعض الزهاد: ما علمت أن أحداً سمع بالجنة والنار تأتي عليه ساعة لا يطيع الله فيها بذكر أو صلاة أو قراءة أو إحسان. فقال له رجل: إني أكثر البكاء. فقال: إنك ان تضحك وأنت مقر بخطيئتك خير من أن تبكي وأنت مدل[1] بعملك وأن المدل لا يصعد عمله فوق رأسه. فقال: أوصني، فقال: دع الدنيا لأهلها كما تركوا هم الآخرة لأهلها وكن في الدنيا كالنحلة إن أكلت أكلت طيباً وإن أطعمت أطعمت طيباً وإن سقطت على شيء لم تكسره ولم تخدشه.

أقسام الزُّهد

الزهد أقسام: زهد في الحرام وهو فرض عين. وزهد في الشبهات وهو بحسب مراتب الشبهة، فإن قويت التحقت بالواجب وإن ضعفت كان مستحباً.

---

(١) مدل: مختال.

وزهد في الفضول. وزهد فيما لا يعني من الكلام والنظر والسؤال واللقاء وغيره. وزهد فيالناس. وزهد في النفس بحيث تهون عليه نفسه في الله. وزهد جامع لذلك كله وهو الزهد فيما سوى الله وفي كل ما شغلك عنه، وأفضل الزهد إخفاء الزهد وأصبعه الزهد في الحظوظ، والفرق بينه وبين الورع أن الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة. والورع ترك ما يخشى ضرره في الآخرة. والقلب المعلق بالشهوات لا يصح له زهد ولا ورع.

قال يحيى بن معاذ عجبت من ثلاث: رجل يراني بعمله مخلوقاً مثله ويترك أن يعمله لله. ورجل يبخل بماله وربه يستقرضه منه فلا يقرضه منه شيئاً. ورجل يرغب في صحبة المخلوقين ومودتهم، والله يدعوه إلى صحبته ومودته.

(فائدة جليلة)

قال سهل بن عبد الله[1]: ترك الأمر عند الله أعظم من ارتكاب النهي، لأن آدم نهي عن أكل الشجرة فأكل منها فتاب عليه، وإبليس أمر أن يسجد لآدم فلم يسجد فلم يتب عليه.

قلت: هذه مسألة عظيمة لها شأن وهي أن ترك الأوامر أعظم عند الله من ارتكاب المناهي. وذلك من وجوه عديدة.

(أحدها): ما ذكره سهل من شأن آدم وعدو الله إبليس.

(الثاني): أن ذنب ارتكاب النهي مصدره في الغالب الشهوة والحاجة. وذنب ترك الأمر مصدره في الغالب الكبر والعزة. ولا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر. ويدخلها من مات على التوحيد وإن زنى وسرق.

(الثالث) إن فعل المأمور أحب إلى الله من ترك المنهي. كما دل على ذلك

(١) سهل بن عبد الله بن يونس التستري، - ابو محمد - أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الأخلاص والرياضيات، له كتاب في «التفسير» مختصر وكتاب «رقائق المجين» توفي سنة (٢٨٣ هـ - ٨٩٦ م).

النصوص، كقوله ﷺ: «**أحب الأعمال إلى الله الصلاة على وقتها**»[1] وقوله: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: ذكر الله**» وقوله: «**واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة**»[2] وغير ذلك من النصوص، وترك المناهي عمل فإنه كف النفس عن الفعل، ولهذا علق سبحانه المحبة بفعل الأوامر كقوله: ﴿**إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً**﴾[3] ﴿**والله يحب المحسنين**﴾[4] وقوله: ﴿**وأقسطوا ان الله يحب المقسطين**﴾[5] - ﴿**والله يحب الصابرين**﴾[6].

وأما في جانب المناهي فأكثر ما جاء النفي للمحبة كقوله: ﴿**والله لا يحب الفساد**﴾[7] وقوله: ﴿**والله لا يحب كل مختال فخور**﴾[8] وقوله: ﴿**ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين**﴾[9] وقوله: ﴿**لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم**﴾[10] وقوله: ﴿**إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً**﴾[11] ونظائره. وأخبر في موضع آخر أنه كيرهها ويسخطها كقوله: ﴿**كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً**﴾[12] وقوله: ﴿**ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله**﴾[13].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان.
(٢) رواه الترمذي في الدعوات. ورواه ابن ماجة في كتاب الأدب.
(٣) سورة الصف الآية ٤.
(٤) سورة آل عمران الآية ١٣٤ .
(٥) سورة الحجرات الآية ٩.
(٦) سورة آل عمران الآية ١٤٦.
(٧) سورة البقرة الآية ٢٠٥.
(٨) سورة الحديد الآية ٢٣.
(٩) سورة البقرة الآية ١٩٠.
(١٠) سورة النساء الآية ١٤٨.
(١١) سورة النساء الآية ٣٦.
(١٢) سورة الاسراء الآية ٣٨.
(١٣) سورة محمد الآية ٢٨.

إذا عرف هذا ففعل ما يحبه سبحانه مقصود بالذات. ولهذا يقدر ما يكرهه ويسخطه لإفضائه إلى ما يحب، كما قدر المعاصي والكفر والفسوق لما ترتب على تقديرها مما يحبه من لوازمها من الجهاد واتخاذ الشهداء. وحصول التوبة من العبد والتضرع إليه والاستكانة وإظهار عدله وعفوه وانتقامه وعزه، وحصول الموالاة والمعاداة لأجله وغير ذلك من الآثار التي وجودها بسبب تقديره ما يكره أحب إليه عن ارتفاعه بارتفاع أسبابها، وهو سبحانه لا يقدر ما يحب لإفضائه إلى حصول ما يكرهه ويسخطه كما يقدر ما يكرهه لافضائه إلى ما يحبه، فعلم أن فعل ما يحبه أحب إليه مما يكرهه.

يوضحه (الوجه الرابع) أن فعل المأمور مقصود لذاته، وترك المنهي مقصود لتكميل فعل المأمور، فهو منهي عنه لأجل كونه يخل بفعل المأمور أو يضعفه وينقصه، كما نبه سبحانه على ذلك في النهي عن الخمر والميسر بكونهما يصدان عن ذكر الله وعن الصلاة، فالمنهيات قواطع وموانع صادة عن فعل المأمورات أو عن كمالها، فالنهي عنها من باب المقصود لغيره، والأمر بالواجبات من باب المقصود لنفسه.

يوضحه (الوجه الخامس) ان فعل المأمورات من باب حفظ قوة الإيمان وبقائها، وترك المنهيات من باب الحمية عما يشوش قوة الايمان ويخرجها عن الاعتدال. وحفظ القوة مقدم على الحمية، فإن القوة كلما قويت دفعت المواد الفاسدة، وإذا ضعفت غلبت المواد الفاسدة، فالحمية مرادة لغيرها وهو حفظ القوة وزيادتها وبقاؤها. ولهذا كلما قويت قوة الايمان دفعت المواد الرديئة ومنعت من غلبتها وكثرتها بحسب القوة وضعفها. وإذا ضعفت غلبت المواد الفاسدة. فتأمل هذا الوجه.

(الوجه السادس): أن فعل المأمورات حياة القلب وغذاؤه وزينته وسروره وقرة عينه ولذته ونعيمه، وترك المنهيات بدون ذلك لا يحصل له شيئاً من ذلك فإنه لو ترك جميع المنهيات ولم يأت بالإيمان والأعمال المأمور بها لم ينفعه ذلك الترك شيئاً وكان خالداً مخلداً في النار.

وهذا يتبين (**بالوجه السابع**) أن من فعل المأمورات والمنهيات فهو إما ناج مطلقاً إن غلبت حسناته سيئاته وإما ناج بعد أن يؤخذ منه الحق ويعاقب على سيئاته فمآله إلى النجاة وذلك بفعل المأمور.

ومن ترك المأمورات والمنهيات فهو هالك غير ناج ولا ينجو إلا بفعل المأمور وهو التوحيد.

(فإن قيل) فهو إنما هلك بارتكاب المحظور وهو الشرك قيل يكفي في الهلاك ترك نفس التوحيد المأمور به وإن لم يأت بضد وجودي من الشرك، بل متى خلا قلبه من التوحيد رأساً فلم يوحد الله فهو هالك وان لم يعبد معه غيره، فإذا انضاف إليه عبادة غيره عذب على ترك التوحيد المأمور به، وفعل الشرك المنهي عنه.

يوضحه(**الوجه الثامن**) أن المدعو إلى الايمان إذا قال لا أصدق ولا أكذب ولا أحب ولا أبغض ولا أعبده ولا أعبد غيره. كان كافراً بمجرد الترك والاعراض، بخلاف ما إذا قال أنا أصدق الرسول وأحبه وأومن به وأفعل ما أمرني، ولكن شهوتي وإرادتي وطبعي حاكمة عليَّ لا تدعني أترك ما نهاني عنه، وأنا أعلم أنه قد نهاني وكره لي فعل المنهي، ولكن لا صبر لي عنه، فهذا لا يعد كافراً بذلك ولا حكمه حكم الأول، فإن هذا مطيع من وجه، وتارك المأمور جملة لا يعد مطيعاً بوجه.

يوضحه (**الوجه التاسع**) أن الطاعة والمعصية إنما تتعلق بالأمر أصلاً وبالنهي تبعاً، فالمطيع ممتثل المأمور والعاصي تارك المأمور. قال تعالى: ﴿**لا يعصون الله ما أمرهم**﴾[1] وقال موسى لأخيه: ﴿**ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألّا تتبعْنِ أفعصيت أمري**﴾[2] وقال عمرو بن العاص عند موته: أنا الذي أمرتني فعصيت، ولكن لا إله إلا أنت. وقال الشاعر: أمرتك أمراً جازماً فعصيتني.

والمقصود من إرسال الرسل طاعة المرسل، ولا تحصل إلا بامتثال أوامره،

---

(١) سورة التحريم الآية ٦.
(٢) سورة طه الآية ٩٢ - ٩٣.

واجتناب المناهي من تمام امتثال الأوامر ولوازمه، ولهذا لو اجتنب المناهي ولم يفعل ما أمر به لم يكن مطيعاً وكان عاصياً، بخلاف ما لو أتى بالمأمورات وارتكب المناهي فإنه وان عد عاصياً مذنباً فإنه مطيع بامتثال الأمر، عاص بارتكاب النهي، بخلاف تارك الأمر فإنه لا يعد مطيعاً باجتناب المنهيات خاصة.

(الوجه العاشر): أن امتثال الأمر عبودية وتقرب وخدمة، وتلك العبادة التي خلق لأجلها الخلق كما قال تعالى: **﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾**(١) فأخبر سبحانه أنه إنما خلقهم للعبادة، وكذلك إنما أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ليعبدوه، فالعبادة هي الغاية التي خلقوا لها ولم يخلقوا لمجرد الترك. فإنه أمر عدمي لا كمال فيه من حيث هو عدم، بخلاف امتثال المأمور فانه أمر وجودي مطلوب الحصول.

وهذا يتبين **(بالوجه الحادي عشر)** وهو أن المطلوب بالنهي عدم الفعل. وهو أمر عدمي والمطلوب بالأمر إيجاد فعل وهو أمر وجودي، فمتعلق الأمر الايجاد ومتعلق النهي الاعدام أو العدم، وهو أمر لا كمال فيه إلا إذا تضمن أمراً وجودياً، فان العدم من حيث هو عدم لا كمال فيه ولا مصلحة إلا إذا تضمن أمراً وجودياً مطلقاً وذلك الأمر الوجودي مطلوب مأمور به، فعادت حقيقة النهي إلى الأمر وأن المطلوب به ما في ضمن النهي من الأمر الوجودي المطلوب به.

وهذا يتضح **(بالوجه الثاني عشر)** وهو أن الناس اختلفوا في المطلوب بالنهي على أقوال: أحدها أن المطلوب به كف النفس عن الفعل وحبسها عنه وهو أمر وجودي. قالوا لأن التكليف إنما يتعلق بالمقدور، والعدم المحض غير مقدور. وهذا قول الجمهور.

وقال أبو هاشم وغيره: بل المطلوب عدم الفعل ولهذا يحصل المقصود من بقائه على العدم وان لم يخطر بباله الفعل، فضلاً أن يقصد الكف عنه. ولو كان

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٦.

المطلوب الكف لكان عاصياً إذا لم يأت به. ولأن الناس يمدحون بعدم فعل القبيح من لم يخطر بباله فعله والكف عنه. وهذا أحد قولي القاضي أبي بكر ولأجله التزم أن عدم الفعل مقدور للعبد وداخل تحت الكسب قال والمقصود بالنهي الابقاء على العدم الأصلي وهو مقدور.

وقالت طائفة المطلوب بالنهي فعل الضد فإنه هو المقدور وهو المقصود للناهي، فإنه إنما نهاه عن الفاحشة طلباً للعفة وهي المأمور بها، ونهاه عن الظلم طلباً للعدل المأمور به، وعن الكذب طلباً للصدق المأمور به، وهكذا جميع المنهيات، فعند هؤلاء أن حقيقة النهي الطلب لضد المنهي عنه، فعاد الأمر إلى أن الطلب إنما تعلق بفعل المأمور.

والتحقيق أن المطلوب نوعان: مطلوب لنفسه وهو المأمور به، ومطلوب إعدامه لمضادته المأمور به وهو المنهي عنه لما فيه من المفسدة المضادة للمأمور به، فإذا لم يخطر ببال المكلف ولا دعته نفسه إليه بل استمر على العدم الأصلي لم يثب على تركه وان خطر بباله وكف نفسه عنه لله وتركه اختياراً أثيب على كف نفسه وامتناعه فإنه فعل وجودي، والثواب إنما يقع على الأمر الوجودي دون العدم المحض. وان تركه مع عزمه الجازم على فعله لكن تركه عجزاً فهذا وان لم يعاقب عقوبة الفاعل لكن يعاقب على عزمه وإرادته الجازمة التي إنما تخلف مرادها عجزاً. وقد دلت على ذلك النصوص الكثيرة فلا يلتفت إلى ما خالفها كقوله تعالى: ﴿**وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء**﴾[1] وقوله في كاتم الشهادة ﴿**فانه آثم قلبه**﴾[2] وقوله: ﴿**ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم**﴾[3] وقوله: ﴿**يوم تبلى السرائر**﴾[4] وقوله ﷺ: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: أنه أراد قتل صاحبه»[5] وقوله في الحديث الآخر: «ورجل قال لو أن لي مالاً لعملت بعمل

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٤.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٣.

(٣) سورة البقرة الاية ٢٢٥

(٤) سورة الطارق الآية ٩.

(٥) رواه البخاري ومسلم.

فلان فهو بنيته وهما في الوزر سواء» .

وقول من قال: ان المطلوب بالنهي فعل الضد، ليس كذلك، فان المقصود عدم الفعل والتلبس بالضدين، فان ما لا يتم الواجب إلا به فهو غير مقصود بالقصد الأول، وان كان المقصود بالقصد الأول المأمور الذي نهى عما يمنعه ويضعفه، فالمنهي عنه مطلوب إعدامه طلب الوسائل والذرائع، والمأمور به مطلوب إيجاده طلب المقاصد والغايات.

وقول أبي هاشم ان تارك القبائح يحمد وان لم يخطر بباله كف النفس. فان أراد بحمده أنه لا يذم فصحيح، وان أراد أنه يثني عليه بذلك ويجب عليه واستحق الثواب فغير صحيح، فان الناس لا يحمدون المجبوب[1] على ترك الزنا. ولا الأخرس على عدم الغيبة والسب، وإنما يحمدون القادر الممتنع عن قدرة وداع إلى الفعل.

وقول القاضي الابقاء على العدم الأصلي مقدور. فان أراد به كف النفس ومنعها فصحيح. وان أراد مجرد العدم فليس كذلك.

وهذا يتبين **(بالوجه الثالث عشر)** وهو أن الأمر بالشيء نهي عن ضده من طريق اللزوم العقلي لا القصد الطلبي، فإن الأمر إنما مقصوده فعل المأمور. فإذا كان من لوازمه ترك الضد صار تركه مقصوداً لغيره وهذا هو الصواب في مسألة الأمر بالشيء هل هو نهي عن ضده أم لا؟ فهو نهي عنه من جهة اللزوم لا من جهة القصد والطلب، وكذلك النهي عن الشيء مقصود الناهي بالقصد الأول الانتهاء عن المنهي عنه وكونه مشتغلاً بضده جاء من جهة اللزوم العقلي، لكن إنما نهي عما يضاد ما أمر به كما تقدم، فكأن المأمور به هو المقصود بالقصد الأول في الموضعين ـ وحرف المسألة إن طلب الشيء طلب له بالذات ولما هو من ضرورته باللزوم، والنهي عن الشيء طلب لتركه بالذات ولفعل ما هو من ضرورة الترك باللزوم، والمطلوب في الموضعين فعل وكف وكلاهما أمر وجودي.

---

(١) المجبوب: مقطوع الذكر.

(الوجه الرابع عشر): إن الأمر والنهي في باب الطلب نظير النفي والاثبات في باب الخبر والمدح والثناء لا يحصلان بالنفي المحض ان لم يتضمن ثبوتاً، فان النفي كاسمه عدم لا كمال فيه ولا مدح، فإذا تضمن ثبوتاً صح المدح به كنفي النسيان المستلزم لكمال العلم وبيانه. ونفي اللغوب والاعياء والتعب المستلزم لكمال القوة والقدرة. ونفي السنة والنوم المستلزم لكمال الحياة والقيومية. ونفي الولد والصاحبة المستلزم لكمال الغنى والملك والربوبية ونفي الشريك والولي والشفيع بدون الاذن المستلزم لكمال التوحيد والتفرد بالكمال والالهية والملك. ونفي الظلم المتضمن لكمال العدل، ونفي ادراك الابصار له المتضمن لعظمته وأنه أجل من أن يدرك وان رأته الأبصار، وإلاّ فليس في كونه لا يرى مدح بوجه من الوجوه، فان العدم المحض كذلك.

وإذا عرف هذا فالمنهي عنه ان لم يتضمن أمراً وجودياً ثبوتياً لم يمدح بتركه ولم يستحق الثواب والثناء بمجرد الترك كما لا يستحق المدح والثناء بمجرد الوصف العدمي.

(الوجه الخامس عشر): ان الله سبحانه جعل جزاء المأمورات عشرة أمثال فعلها وجزاء المنهيات مثل واحد. وهذا يدل على أن فعل ما أمر به أحب إليه من ترك ما نهى عنه. ولو كان الأمر بالعكس لكانت السيئة بعشرة. والحسنة بواحدة أو تساويا.

(الوجه السادس عشر): ان المنهي عنه المقصود إعدامه وأن لا يدخل في الوجود سواء نوى ذلك أو لم ينوه. وسواء خطر بباله أو لم يخطر فالمقصود أن لا يكون. وأما المأمور به فالمقصود كونه وإيجاده والتقرب به نية وفعلاً.

(وسر المسألة) أن وجود ما طلب إيجاده أحب إليه من عدم ما طلب إعدامه. وعدم ما أحبه أكره إليه من وجود ما يبغضه فمحبته لفعل ما أمر به أعظم من كراهته لفعل ما نهى عنه.

يوضحه (الوجه السابع عشر) إن فعل ما يحبه والاعانة عليه وجزاؤه وما

يترتب عليه من المدح والثناء من رحمته. وفعل ما يكرهه وجزاؤه وما يترتب عليه من الذم والألم والعقاب من غضبه. ورحمته سابقة على غضبه غالبة له. وكل ما كان من صفة الرحمة فهو غالب لما كان من صفة الغضب. فانه سبحانه لا يكون إلا رحيماً ورحمته من لوازم ذاته كعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره وإحسانه. فيستحيل أن يكون على خلاف ذلك. وليس كذلك غضبه فإنه ليس من لوازم ذاته ولا يكون غضبان دائماً غضباً لا يتصور انفكاكه، بل يقول رسوله وأعلم الخلق به يوم القيامة: «إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله»[1] ورحمته وسعت كل شيء وغضبه لم يسع كل شيء. وهو سبحانه كتب على نفسه الرحمة ولم يكتب على نفسه الغضب. ووسع كل شيء رحمة وعلماً. ولم يسع كل شيء غضباً وانتقاماً.

فالرحمة وما كان بها ولوازمها وآثارها غالبة على الغضب وما كان منه وآثاره فوجود ما كان بالرحمة أحب إليه من وجود ما كان من لوازم الغضب. ولهذا كانت الرحمة أحب إليه من العذاب. والعفو أحب إليه من الانتقام. فوجود محبوبه أحب إليه من فوات مكروهه. ولا سيما إذا كان في فوات مكروهه فوات ما يحبه من لوازمه. فانه يكره فوات تلك اللوازم المحبوبة كما يكره وجود ذلك الملزوم المكروه.

(الوجه الثامن عشر) ان آثار ما يكرهه وهو المنهيات أسرع زوالاً بما يحبه من زوال آثار ما يحبه بما يكرهه، فآثار كراهته سريعة الزوال. وقد يزيلها سبحانه بالعفو والتجاوز، وتزول بالتوبة والاستغفار والأعمال الصالحة والمصائب المكفرة والشفاعة والحسنات يذهبن السيئات، ولو بلغت ذنوب العبد عنان السماء ثم استغفره غفر له، ولو لقيه بقراب الأرض خطايا ثم لقيه لا يشرك به شيئاً لأتاه بقرابها مغفرة. وهو سبحانه يغفر الذنوب وإن تعاظمت ولا يبالي، فيبطلها ويبطل آثارها، بأدنى سعي من العبد، وتوبة نصوح وندم على ما فعل، وما ذاك إلا لوجود ما يحبه من توبة العبد وطاعته وتوحيده فدل على أن وجود ذلك أحب إليه وأرضى له.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء ومسلم في كتاب الإيمان..

يوضحه (**الوجه التاسع عشر**) وهو أنه سبحانه قدر ما يبغضه ويكرهه من المنهيات لما يترتب عليها مما يحبه ويفرح به من المأمورات فانه سبحانه أفرح بتوبة عبده من الفاقد الواجد والعقيم الوالد والظمآن الوارد، وقد ضرب رسول الله ﷺ لفرحته بتوبة العبد مثلاً ليس في المفروح به أبلغ منه. وهذا الفرح إنما كان بفعل المأمور به وهو التوبة، فقدر الذنب لما يترتب عليه من هذا الفرح العظم الذي وجوده أحب إليه من فواته، ووجوده بدون لازمه ممتنع، فدل على أن وجود ما يحب أحب إليه من فوات ما يكره، وليس المراد بذلك أن كل فرد من أفراد ما يحبه أحب إليه من فوات كل فرد مما يكره حتى تكون ركعتا الضحى أحب إليه من فوات قتل المسلم، وإنما المراد أن جنس فعل المأمورات أفضل من جنس ترك المحظورات، كما إذا فضل الذكر على الأنثى، والأنسي على الملك فالمراد الجنس لا عموم الأعيان.

والمقصود أن هذا الفرح الذي لا فرح يشبهه بفعل مأمور التوبة يدل على أن هذا المأمور أحب إليه من فوات المحظور الذي تفوت به التوبة وأثرها ومقتضاها.

(فإن قيل) إنما فرح بالتوبة لأنها ترك للمنهي فكان الفرح بالترك. قيل ليس كذلك فإن الترك المحض لا يوجب هذا الفرح بل ولا الثواب ولا المدح. وليست التوبة تركاً. وإن كان الترك من لوازمها، وإنما هي فعل وجودي يتضمن إقبال التائب على ربه وإنابته إليه والتزام طاعته. ومن لوازم ذلك ترك ما نهى عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿**وان استغفروا ربكم ثم توبوا إليه**﴾[1] فالتوبة رجوع مما يكره إلى ما يحب، وليست مجرد الترك، فان من ترك الذنب تركاً مجرداً ولم يرجع منه إلى ما يحبه الرب تعالى لم يكن تائباً، فالتوبة رجوع وإقبال وإنابة لا ترك محض.

(**الوجه العشرون**) ان المأمور به إذا فات فاتت الحياة المطلوبة للعبد. وهي التي قال تعالى فيها: ﴿**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم**﴾[2] وقال: ﴿**أوَ من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس**

---

(١) سورة هود الآية ٣.

(٢) سورة الانفال الآية ٢٤.

كمن مثله في الظلمات﴾[1] وقال في حق الكفار ﴿أمواتٌ غير أحياء﴾[2] وقال: ﴿انك لا تسمع الموتى﴾[3] وأما المنهي عنه فإذا وجد فغايته أن يوجد المرض. وحياة مع السقم خير من موت.

(فإن قيل) ومن المنهي عنه ما يوجب الهلاك وهو الشرك. قيل الهلاك إنما حصل بعدم التوحيد المأمور به الذي به الحياة، فلما فقد حصل الهلاك، فما هلك إلا من عدم إتيانه بالمأمور به.

وهذا وجه (حاد وعشرون) في المسألة وهو أن في المأمورات ما يوجب فواته الهلاك والشقاء الدائم، وليس في المنهيات ما يقتضي ذلك.

(الوجه الثاني والعشرون) ان فعل المأمور يقتضي ترك المنهي عنه إذا فعل على وجهه من الاخلاص والمتابعة والنصح لله فيه، قال تعالى: ﴿ان الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر﴾[4] ومجرد ترك المنهي لا يقتضي فعل المأمور ولا يستلزمه.

(الوجه الثالث والعشرون) ان ما يحبه من المأمورات فهو متعلق بصفاته وما يكرهه من المنهيات فمتعلق بمفعولاته، وهذا وجه دقيق يحتاج إلى بيان فنقول:

المنهيات شرور وتفضي إلى الشرور والمأمورات خير وتفضي إلى الخيرات والخير بيديه سبحانه وتعالى والشر ليس إليه، فان الشر لا يدخل في صفاته، ولا في أفعاله ولا في أسمائه. وإنما هو في المفعولات مع أنه شر بالاضافة والنسبة إلى العبد، وإلا من حيث إضافته إلى الخالق سبحانه فليس بشر من هذه الجهة، فغلبة ارتكاب المنهي أن يوجب شراً بالاضافة إلى العبد، مع أنه في نفسه ليس بشر، وأما فوات المأمور فيفوت به الخير الذي بفواته يحصل ضده من الشر، وكلما كان المأمور أحب إلى الله سبحانه كان الشر الحاصل بفواته أعظم كالتوحيد والايمان.

وسر هذه الوجوه أن المأمور محبوبه والمنهي مكروهه، ووقوع محبوبه أحب إليه من فوات مكروهه، وفوات محبوبه أكره إليه من وقوع مكروهه والله أعلم.

---

(١) سورة الانعام الآية ١٢٢.
(٢) سورة النحل الآية ٢١.
(٣) سورة النمل الآية ٨٠.
(٤) سورة العنكبوت الآية ٤٥.

مبنى الدين على قاعدتين: الذكر والشكر قال تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾[1] وقال النبي ﷺ لمعاذ: «والله إني لأحبك فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان بل الذكر القلبي واللساني. وذكره يتضمن ذكر أسمائه وصفاته. وذكر أمره ونهيه، وذكره بكلامه، وذلك يستلزم معرفته والايمان به وبصفات كماله ونعوت جلاله، والثناء عليه بأنواع المدح وذلك لا يتم إلا بتوحيده، فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله. ويستلزم ذكر نعمة وآلائه وإحسانه إلى خلقه.

وأما الشكر فهو القيام له بطاعته والتقرب إليه بأنواع محابه ظاهراً وباطناً وهذان الأمران هما جماع الدين، فذكره مستلزم لمعرفته، وشكره متضمن لطاعته، وهذان هما الغاية التي خلق لأجلها الجن والانس والسموات والأرض ووضع لأجلها الثواب والعقاب، وأنزل الكتب وأرسل الرسل، وهي الحق الذي به خلقت السموات والأرض وما بينهما، وضدها هو الباطل والعبث الذي يتعالى ويتقدس عنه وهو ظن أعدائه به. قال تعالى: ﴿وما خلقنا السَّماءَ والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا﴾[2] وقال: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين، ما خلقناهما إلا بالحق﴾[3] وقال: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وان الساعة لآتية﴾[4] وقال بعد ذكر آياته في أول سورة يونس: ﴿ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾[5] وقال: ﴿أيحسب الانسان أن يترك سدى﴾[6] وقال: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾[7] وقال: ﴿وما

(١) سورة البقرة الآية ١٥٢.
(٢) سورة ص الآية ٢٧.
(٣) سورة الدخان الآية ٣٨ - ٣٩.
(٤) سورة الحجر الآية ٨٥.
(٥) سورة يونس الآية ٥.
(٦) سورة القيامة الآية ٣٦.
(٧) سورة المؤمنون الآية ١١٥.

خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾[1] ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وان الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾[2] وقال: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد، ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم﴾[3].

فثبت بما ذكر أن غاية الخلق والأمر أن يذكر وأن يشكر، يذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر، وهو سبحانه ذاكر لمن ذكره، شاكر لمن شكره. فذكره سبب لذكره، وشكره سبب لزيادته من فضله.

فالذكر للقلب واللسان، والشكر للقلب محبة وإنابة، وللسان ثناء وحمد وللجوارح طاعة وخدمة.

من سار على درب الهداية يسر الله له سبلها

تكرر في القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والاضلال، فيقوم بالقلب والجوارح أعمال تقتضي الهدى اقتضاء السبب لمسببه والمؤثر لأثره وكذلك الضلال. فأعمال البر تثمر وكلما ازداد منها ازداد هدى، وأعمال الفجور بالضد، وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر فيجازي عليها بالهدى والفلاح، ويبغض أعمال الفجور ويجازي عليها بالضلال والشقاء.

وأيضاً فإنه البر ويحب أهل البر فيقرب قلوبهم منه بحسب ما قاموا به من البر ويبغض الفجور وأهله فيبعد قلوبهم منه بحسب ما اتصفوا به من الفجور. فمن الأصل الأول قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾[4] وهذا يتضمن أمرين:

أحدهما: أنه يهدي به من اتقى مساخطه قبل نزول الكتاب، فإن الناس على

---

(1) سورة الذاريات الآية ٥٦.

(2) سورة الطلاق الآية ١٢.

(3) سورة المائدة الآية ٩٧.

(4) سورة البقرة الآية (١ ـ ٢).

اختلاف مللهم ونحلهم قد استقر عندهم أن الله سبحانه يكره الظلم والفواحش والفساد في الأرض، ويمقت فاعل ذلك، ويحب العدل والاحسان والجود والصدق والاصلاح في الأرض، ويحب فاعل ذلك، فلما نزل الكتاب أثاب سبحانه أهل البر بأن وفقهم للايمان به جزاء لهم على برهم وطاعتهم، وخذل أهل الفجور والفحش والظلم بأن حال بينهم وبين الاهتداء به.

والأمر الثاني أن العبد إذا آمن بالكتاب واهتدى به مجملاً وقبل أوامره وصدق بأخباره، كان ذلك سبباً لهداية أخرى تحصل له على التفصيل، فإن الهداية لا نهاية لها ولو بلغ العبد فيها ما بلغ، ففوق هدايته هداية أخرى، وفوق تلك الهداية هداية أخرى إلى غير غاية، فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى، فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى، وكلما فوت حظاً من التقوى فاته حظ من الهداية بحسبه، فكلما اتقى زاد هداه وكلما اهتدى زادت تقواه، قال تعالى: ﴿قَدْ جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾(١) وقال تعالى: ﴿الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾(٢) وقال تعالى: ﴿سيذكر من يخشى﴾(٣) وقال: ﴿وما يتذكر إلا من ينيب﴾(٤) وقال: ﴿ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم﴾(٥).

فهداهم أولاً للايمان، فلما آمنوا هداهم للايمان هداية بعد هداية، ونظير هذا قوله: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾(٦) وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾(٧) ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذي يفرقون به بين الحق والباطل والنصر والعز الذي يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل. فسر الفرقان بهذا وبهذا قال تعالى: ﴿ان في ذلك لآية لكل عبد منيب﴾(٨) وقال:

---

(١) سورة المائدة الآية (١٥ - ١٦).
(٢) سورة الشورى الآية ١٣.
(٣) سورة الأعلى الآية ١٠.
(٤) سورة غافر الآية ١٣.
(٥) سورة يونس الآية ٩.
(٦) سورة مريم الآية ٧٦.
(٧) سورة الانفال الآية ٢٩.
(٨) سورة سبأ الآية ٩.

﴿ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾[1] في سورة لقمان وسورة إبراهيم وسبأ والشورى.

فأخبر عن آياته المشهودة العيانية أنها إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر كما أخبر عن آياته الايمانية القرآنية أنها إنما ينتفع بها أهل التقوى والخشية والانابة ومن كان قصده اتباع رضوانه، وأنها إنما يتذكر بها من يخشاه سبحانه كما قال: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى﴾[2] وقال في الساعة: ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾[3].

وأما من لا يؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاها فلا تنفعه الآيات العيانية ولا القرآنية، ولهذا لما ذكر سبحانه في سورة هود عقوبات الأمم المكذبين للرسل وما حل بهم في الدنيا من الخزي قال بعد ذلك: ﴿إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة﴾[4] فأخبر أن في عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف عذاب الآخرة، وأما من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها فلا يكون ذلك عبرة وآية في حقه، وإذا سمع ذلك قال: لم يزل في الدهر الخير والشر، والنعيم والبؤس والسعادة والشقاوة، وربما أحال ذلك على أسباب فلكية وقوى نفسانية، وإنما كان الصبر والشكر سبباً لانتفاع صاحبهما بالآيات، لأن الايمان ينبني على الصبر والشكر، فنصفه صبر ونصفه شكر، فعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه، وآيات الله إنما ينتفع بها من آمن بالله وآياته، ولا يتم له الايمان إلا بالصبر والشكر، فإن رأس الشكر التوحيد ورأس الصبر ترك إجابة داعي الهوى، فإذا كان مشركاً متبعاً هواه لم يكن صابراً ولا شكوراً، فلا تكون الآيات نافعة له ولا مؤثرة فيه إيماناً.

وأما الأصل الثاني وهو اقتضاء الفجور والكبر والكذب للضلال فكثير أيضاً

---

(١) سورة ابراهيم الآية ٥ ـ سورة لقمان الآية ٣١ ـ سورة سبأ الآية ١٩ ـ وسورة الشورى الآية ٣٣.

(٢) سورة طه الآية (١ ـ ٣).

(٣) سورة النازعات الآية ٤٥.

(٤) سورة هود الآية ١٠٣.

في القرآن، كقوله تعالى: ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، أولئك هم الخاسرون﴾[1] وقال تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة. ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾[2] وقال تعالى: ﴿فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا﴾[3] وقال تعالى: ﴿وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون﴾[4] وقال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾[5].

فأخبر أنه عاقبهم على تخلفهم عن الإيمان لما جاءهم وعرفوه وأعرضوا عنه بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم وحال بينهم وبين الايمان كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾[6] فأمرهم بالاستجابة له ولرسوله حين يدعوهم إلى ما فيه حياتهم ثم حذرهم من التخلف والتأخير عن الاستجابة الذي يكون سبباً لأن يحول بينهم وبين قلوبهم. قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[7] وقال تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾[8] فأخبر سبحانه ان كسبهم غطى على قلوبهم وحال بينها وبين الايمان بآياته فقالوا أساطير الأولين. وقال تعالى في المنافقين: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾[9] فجازاهم على نسيانهم له أن نسيهم فلم يذكرهم بالهدى والرحمة، وأخبر أنه أنساهم أنفسهم فلم يطلبوا كمالها بالعلم النافع والعمل الصالح، وهما الهدى ودين الحق، فأنساهم طلب ذلك ومحبته ومعرفته والحرص عليه عقوبة لنسيانهم له. وقال تعالى في حقهم:

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٦ ـ ٢٧).
(٢) سورة إبراهيم الآية ٢٧.
(٣) سورة النساء الآية ٨٨.
(٤) سورة البقرة الآية ٨٨.
(٥) سورة الانعام الآية ١١٠.
(٦) سورة الانفال الآية ٢٤.
(٧) سورة الصف الآية ٥.
(٨) سورة المطففين الآية ١٤.
(٩) سورة التوبة الآية ٦٧.

﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم، والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾[1] فجمع لهم بين اتباع الهوى والضلال الذي هو ثمرته وموجبه، كما جمع للمهتدين بين التقوى والهدى.

(فصل)

وكما يقرن سبحانه بين الهدى والتقى، والضلال والغي فكذلك يقرن بين الهدى والرحمة والضلال والشقاء، فمن الأول قوله: ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾[2] وقال: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾[3] وقال عن المؤمنين: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب﴾[4] وقال أهل الكهف: ﴿ربنا آتِنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً﴾[5] وقال: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[6] وقال: ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[7] وقال: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾[8] وقال: ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾[9] ثم أعاد سبحانه ذكرهما فقال: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾[10]

وقد تنوعت عبارات السلف في تفسير الفضل والرحمة، والصحيح أنهما الهدى والنعمة ففضله هداه ورحمته نعمته. ولذلك يقرن بين الهدى والنعمة كقوله

---

(١) سورة محمد الآية (١٦ - ١٧).
(٢) سورة البقرة الآية ٥.
(٣) سورة البقرة الآية ١٥٧.
(٤) سورة آل عمران الآية ٨.
(٥) سورة الكهف الآية ١٠.
(٦) سورة يوسف الآية ١١١.
(٧) سورة النحل الآية ٦٤.
(٨) سورة النحل الآية ٨٩.
(٩) سورة يونس الآية ٥٧.
(١٠) سورة يونس الآية ٥٨.

في سورة الفاتحة: ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم﴾(١) ومن ذلك قوله لنبيه يذكره بنعمه عليه: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى﴾(٢) فجمع له بين هدايته له وإنعامه عليه بإيوائه وإغنائه، ومن ذلك قول نوح: ﴿يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده﴾(٣) وقول شعيب: ﴿أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً﴾(٤) وقال عن الخضر: ﴿فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً﴾(٥) وقال لرسوله: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً، وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾(٦) وقال: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً﴾(٧) وقال: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾(٨) ففضله هدايته ورحمته إنعامه وإحسانه إليهم وبره بهم. وقال: ﴿فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾(٩) والهدى منعه من الضلال، والرحمة منعه من الشقاء، وهذا هو الذي ذكره في أول السورة في طوله: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾(١٠) فجمع له بين إنزال القرآن عليه ونفي الشقاء عنه كما قال في آخرها في حق أتباعه ﴿فلا يضل ولا يشقى﴾(١١).

فالهدى والفضل والنعمة والرحمة متلازمات لا ينفك بعضها عن بعض. كما أن الضلال والشقاء متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر. قال تعالى: ﴿إن المجرمين في ضلال وسعر﴾(١٢) والسعر جمع سعير وهو العذاب الذي هو غاية

---

(١) سورة الفاتحة الآية ٥و٦.
(٢) سورة الضحى الآية (٦ - ٨).
(٣) سورة هود الآية ٢٨.
(٤) سورة هود الآية ٨٨.
(٥) سورة الكهف الآية ٦٥.
(٦) سورة الفتح الآية (١ - ٣).
(٧) سورة النساء الآية ١١٣.
(٨) سورة النور الآية ٢١.
(٩) سورة طه الآية ١٢٣.
(١٠) سورة طه الآية ١ - ٢.
(١١) سورة طه الآية ١٢٣.
(١٢) سورة القمر الآية ٤٧.

الشقاء. وقال تعـالى: ﴿ولقد ذرأنـا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون﴾[1] وقال تعالى عنهم: ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾[2].

ومن هذا أنه سبحانه يجمع بين الهدى وانشراح الصدر والحياة الطيبة وبين الضلال وضيق الصدر والمعيشـة الضنك. قـال تعالى: ﴿فمن يـرد الله أن يهديـه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حـرجاً﴾[3] وقـال: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نـور من ربه﴾[4] وكـذلك يجمـع بين الهدى والإبانة وبين الضلال وقسوة القلب. قال تعالى: ﴿الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾[5] وقال تعالى: ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين﴾[6].

الهدى والرحمة من صفات العطاء

والهـدى والرحمـة وتوابعهـا من الفضـل والإنعـام كله من صفـة العـطاء. والاضلال والعذاب وتوابعهما من صفة المنع. وهو سبحانه يصرف خلقه بين عطائه ومنعه وذلك كله صادر عن حكمة بالغة وملك تام وحمد تام، فلا إله إلا الله.

التعلق في المطالب العليا

إذا رأيت النفوس المبطلة الفارغة من الارادة والطلـب لهذا الشأن قد تشبث بها هذا العالم السفلي وقد تشبثت به فكلها إليه فإنه اللائق بها لفساد تركيبهـا ولا تنفس عليها ذلك فانه سريع الانحلال عنها، ويبقى تشبثها به مـع انقطاعـه عنها عذاباً عليها بحسب ذلك التعلق، فتبقى شهوتها وإرادتها فيها وقد حيل بينها وبين ما تشتهي على وجه يئست معه من حصول شهوتها ولذتها، فلو تصور العاقل ما في

---

(١) سورة الاعراف الآية ١٧٩.
(٢) سورة الملك الآية ١٠.
(٣) سورة الأنعام الآية ١٢٥.
(٤) سورة الزمر الآية ٢٢.
(٥) سورة الشورى الآية ١٣.
(٦) سورة الزمر الآية ٢٢.

ذلك من الألم والحسرة لبادر إلى قطع هذا التعلق كما يبادر إلى حسم مواد الفساد، ومع هذا فانه ينال نصيبه من ذلك وقلبه وهمه متعلق بالمطلب الأعلى. والله المستعان.

الكذب مفسدة فابتعد عنها

إياك والكذب فانه يفسد عليك تصور المعلومات على ما هي عليه ويفسد عليك تصويرها وتعليمها للناس، فان الكاذب يصور المعدوم موجوداً، والموجود معدوماً، والحق باطلاً والباطل حقاً، والخير شراً والشر خيراً فيفسد عليه تصوره وعلمه عقوبة له ثم يصور ذلك في نفس المخاطب المغتر به الراكن إليه فيفسد عليه تصوره وعلمه. ونفس الكاذب معرضة عن الحقيقة الموجودة. نزاعة إلى العدم مؤثرة للباطل، وإذا فسدت عليه قوة تصوره وعلمه التي هي مبدأ كل فعل إرادي فسدت عليه تلك الأفعال وسرى حكم الكذب إليها فصار صدورها كصدور الكذب عن اللسان فلا ينتفع بلسانه ولا بأعماله. ولهذا كان الكذب أساس الفجور كما قال النبي ﷺ: «إن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار»(١) وأول ما يسري من الكذب من النفس إلى اللسان فيفسده، ثم يسري إلى الجوارح فيفسد عليها أعمالها كما أفسد على اللسان أقواله، فيعم الكذب أقواله وأعماله وأحواله فيستحكم عليه الفساد ويترامى داؤه إلى الهلكة إن لم يتداركه الله بدواء الصدق يقلع تلك المادة من أصلها.

ولهذا كان أصل أعمال القلوب كلها الصدق ـ وأضدادها من الرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والبطر والأشر والعجز والكسل والجبن والمهانة وغيرها أصلها الكذب فكل عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤه الصدق. وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب، والله تعالى يعاقب الكذاب بأن يقعده ويثبطه عن مصالحه ومنافعه، ويثيب الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته، فما استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق ولا مفاسدهما ومضارهما بمثل الكذب. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾(٢)

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) سورة التوبة الآية ١١٩.

وقال تعالى: ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾[1] وقال: ﴿فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم﴾[2] وقال: ﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾[3].

في ظلال الآية

﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾

في قوله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[4].

في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، وأن المحبوب قد يأتي بالمكروه ولم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه، أوجب له ذلك أموراً:

منها أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وان شق عليه في الابتداء، لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح وان كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع. وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهي وان هويته نفسه ومالت إليه. وأن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب، وخاصة العقل تحمل الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبه من الألم العظيم والشر الطويل، فنظر الجاهل لا يجاوز المبادىء إلى غايتها والعاقل الكيس ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة، فيرى المناهي كطعام لذيذ قد خلط فيه سم قاتل، فكلما دعته لذته إلى تناوله نهاه ما فيه من السم، ويرى الأوامر كدواء كريه المذاق مفض إلى العافية والشفاء. وكلما نهاه كراهة مذاقه عن تناوله أمره نفعه بالتناول. ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل

---

(1) سورة المائدة الآية ١١٩.
(2) سورة محمد الآية ٢١.
(3) سورة التوبة الآية ٩٠.
(4) سورة البقرة الآية ٢١٦.

مشقة للطريق لما يؤمل عند الغاية، فإذا فقد اليقين والصبر تعذر عليه ذلك، وإذا قـوى يقينه وصبـره هان عليـه كل مشقـة يتحملها في طلب الخـير الـدائم واللذة الدائمة.

ومن أسرار هذه الآية أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور والرضا بما يختاره له ويقضيه له. لما يرجو فيه من حسن العاقبة.

ومنها أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به علم. فلعل مضرته وهلاكه فيه وهو لا يعلم، فلا يختار على ربه شيئاً، بل يسأله حسن الاختيار له وأن يرضيه بما يختاره فلا أنفع له من ذلك (ومنها) أنه إذا فوض إلى ربه ورضي بما يختاره له أمده فيها يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر، وصرف عنـه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه. (ومنها) أن يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي يصعد منها في عقبة وينزل في أخرى. ومع هذا فلا خروج له عما قـدر عليه، فلو رضي بـاختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به فيه لأنه مع اختياره لنفسه، ومتى صح تفـويضه ورضـاه اكتنفه في المقدور العطف عليه واللطف به فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهون عليه ما قدره.

إذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه تحيله في رده فلا أنفع له من الاستسلام وإلقاء نفسه بين يدي القدر طريحاً كالميتة، فـإن السبع لا يـرضى بأكل الجيف.

شروط الانتفاع بالعلم

لا ينتفع بنعمة الله بالايمان والعلم إلا من عرف نفسه ووقف بها عند قدرها ولم يتجاوزه إلى ما ليس له، ولم يتعد طوره، ولم يقل هذا لي وتيقن أنه لله ومن الله وبالله. فهو المان به ابتداء وإدامة بلا سبب من العبد ولا استحقاق منه، فتذله نعم الله عليه وتكسره كسرة من لا يرى لنفسه ولا فيها خيراً البتة وان الخير الذي وصل

إليه فهو لله وبه ومنه، فتحدث له النعم ذلاً وانكساراً عجيباً لا يعبر عنه، فكلما جدد له نعمة ازداد له ذلاً وانكساراً وخشوعاً ومحبة وخوفاً ورجاء وهذا نتيجة علمين شريفين: علمه بربه وكماله وبره وغناه واحسانه ورحمته، وأن الخير كله في يديه، وهو ملكه يؤتي منه من يشاء ويمنع منه من يشاء. وله الحمد على هذا، وهذا أكمل حمد وأتمه، وعلمه بنفسه ووقوفه على حدها وقدرها ونقصها وظلمها وجهلها، وأنها لا خير فيها البتة ولا لها ولا بها ولا منها، وأنها ليس لها من ذاتها إلا العدم، فكذلك من صفاتها وكمالها ليس لها إلا العدم الذي لا شيء أحقر منه ولا أنقص، فما فيها من الخير تابع لوجودها الذي ليس إليها ولا بها، فإذا صار هذان العلمان صيغة لها لا صيغة على لسانها علمت حينئذ أن الحمد كله لله والأمر كله له والخير كله في يديه، وأنه هو المستحق للحمد والثناء والمدح دونها وأنها هي أولى بالذم والعيب واللوم، ومن فاته التحقق بهذين العلمين تلونت به أقواله وأعماله وأحواله وتخبطت عليه، ولم يهتد إلى الصراط المستقيم الموصل له إلى الله.

فإيصال العبد بتحقيق هاتين المعرفتين علماً وحالاً، وانقطاعه بفواتها، وهذا معنى قولهم من عرف نفسه عرف ربه، فإنه من عرف نفسه بالجهل والظلم والعيب والنقائص والحاجة والفقر والذل والمسكنة والعدم، عرف ربه بضد ذلك، فوقف بنفسه عند قدرها ولم يتعد بها طورها، وأثنى على ربه ببعض ما هو أهله، وانصرفت قوة حبه وخشيته ورجائه وإنابته وتوكله إليه وحده، وكان أحب شيء إليه وأخوف شيء عنده وأرجاه له وهذا هو حقيقة العبودية. والله المستعان.

ويحكى أن بعض الحكماء كتب على باب بيته: انه لن ينتفع بحكمتنا إلا من عرف نفسه ووقف بها عند قدرها، فمن كان كذلك فليدخل وإلا فليرجع حتى يكون بهذه الصفة.

الانطلاق في الشهوات يورث الحسرة والندم

ـ الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة، فإنها إما أن توجب ألماً وعقوبة واما أن تقطع لذة أكمل منها واما أن تضيع وقتاً اضاعته حسرة

وندامة واما أن تثلم عرضاً توفيره أنفع للعبد من ثلمه واما أن تذهب مالا بقاؤه خير له من ذهابه، واما أن تضع قدراً وجاهاً قيامه خير من وضعه، واما أن تسلب نعمة بقاؤها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة، واما أن تطرق لوضيع اليك طريقاً لم يكن يجدها قبل ذلك. واما أن تجلب هماً وغماً وحزناً وخرفاً لا يقارب لذة الشهوة، واما أن تنسي علماً ذكره ألذ من نيل الشهوة، واما أن تشمت عدواً وتحزن ولياً، واما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة. واما أن تحدث عيباً يبقى صفة لا تزول فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق.

حد الأخلاق

للأخلاق حد متى جاوزته صارت عدواناً، ومتى قصرت عنه كان نقصاً ومهانة، فللغضب حد وهو الشجاعة المحمودة والأنفة من الرذائل والنقائص. وهذا كماله، فإذا جاوز حده تعدى صاحبه وجار وإن نقص عنه جبن، ولم يأنف من الرذائل، وللحرص حد وهو الكفاية في أمور الدنيا وحصول البلاغ منها، فمتى نقص من ذلك كان مهانة وإضاعة، ومتى زاد عليه كان شرهاً ورغبة فيما لا تحمد الرغبة فيه.

وللحسد حد وهو المنافسة في طلب الكمال والأنفة أن يتقدم عليه نظيره. فمتى تعدى ذلك بغياً وظلماً يتمنى معه زوال النعمة عن المحسود ويحرص على إيذائه، ومتى نقص عن ذلك كان دناءة وضعف همة وصغر نفس. قال النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس»[(١)] فهذا حسد منافسة يطالب الحاسد به نفسه أن يكون مثل المحسود لا حسد مهانة يتمنى به زوال النعمة عن المحسود.

وللشهوة حد وهو راحة القلب والعقل من كد الطاعة واكتساب الفضائل والاستعانة بقضائها على ذلك، فمتى زادت على ذلك صارت نهمة وشبقاً والتحق

---

(١) رواه البخاري في باب التمني.

صاحبها بـدرجة الحيـوانات، ومتى نقصت عنـه ولم يكن فراغـا في طلب الكمال والفضل كانت ضعفـاً وعجزاً ومهـانة.

وللراحة حد وهو إجمام النفس والقوى المدركة والفعالة للاستعداد للطاعة واكتساب الفضائل وتوفرها على ذلك بحيث لا يضعفها الكد والتعب ويضعف أثرها، فمتى زاد على ذلك صار توانياً وكسلاً وإضاعة، وفات به أكثر مصالح العبد، ومتى نقص عنه صار مضراً بالقوى موهناً لها، وربما انقطع به كالمنبت الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

والجود له حد بين طرفين فمتى جاوز حده صار إسرافاً وتبذيـراً ومتى نقص عنه كان بخلاً وتقتيراً.

وللشجاعة حد متى جاوزته صارت تهوراً ومتى نقصت عنه صارت جبناً وخوراً، وحدها الإقدام في مواضع الاقدام، والاحجام في مواضع الاحجام، كما قال معاوية لعمرو بن العاص: أعياني أن أعرف أشجاعاً أنت أم جباناً: تقدم حتى أقول من أشجع الناس وتجبن حتى أقول من أجبن الناس. فقال:

شجـاع إذا مـا أمكنتني فـرصـة ... فـإن لم تـكن لي فـرصـة فـجبـان

الغيرة لها حد إذا جاوزته صارت تهمة وظناً سيئاً بالبريء، وإن قصرت عنه كانت تغافلاً ومبادىء دياثة.

وللتواضع حد إذا جاوزه كان ذلاً ومهانة. ومن قصر عنه انحرف إلى الكبر والفخر.

وللعز حد إذا جاوزه كان كبراً وخلقاً مذموماً، وإن قصر عنه انحرف إلى الذل والمهانة.

وضابط هذا كله العدل وهو الأخـذ بالـوسط الموضـوع بين طـرفي الافراط والتفريط، وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة، بل لا تقوم مصلحة البدن إلا به. فإنه متى خرج بعض أخلاطه عن العدل وجـاوزه أو نقص عنه ذهب من صحتـه

وقوته بحسب ذلك، وكذلك الأفعال الطبيعية كالنوم والسهر، والأكل والشرب، والجماع والحركة والرياضة والخلوة والمخالطة وغير ذلك إذا كانت وسطاً بين الطرفين المذمومين كانت عدلاً، وان انحرفت إلى أحدهما كانت نقصاً واثمرت نقصاً.

فمن أشرف العلوم وأنفعها علم الحدود، ولا سيما حدود المشروع المأمور والمنهي، فأعلم الناس أعلمهم بتلك الحدود حتى لا يدخل فيها ما ليس منها. ولا يخرج منها ما هو داخل فيها. قال تعالى: ﴿**الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألاّ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله**﴾[1] فأعدل الناس من قام بحدود الأخلاق والأعمال والمشروعات معرفة وفعلاً وبالله التوفيق.

(فصل)

قال أبو الدرداء رضي الله عنه[2] : يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم. كيف يغبنون به قيام الحمقى وصومهم، والذرة من صاحب تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين. وهذا من جواهر الكلام وأدله على كمال فقه الصحابة وتقدمهم على من بعدهم في كل خير رضي الله عنهم.

فاعلم أن العبد انما يقطع منازل السير الى الله بقلبه وهمته لا ببدنه، والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح. قال تعالى ﴿ **ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب** ﴾[3] وقال ﴿ **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم**﴾ [4] وقال النبي ﷺ: «التقوى ههنا، وأشار الى صدره»[5] فالكيس

---

(١) سورة التوبة الآية ٩٧.

(٢) هو عويمر بن مالك، صحابي جليل المعروف بـ «أبي الدرداء» من الحكماء الفرسان القضاة. كان قبل البعثة تاجراً في المدينة، ثم انقطع للعبادة. ولما ظهر الإسلام اشتهر بالشجاعة والنسك. قال ابن الجزري: كان من العلماء الحكماء. وهو أحد الذين جمعوا القرآن، حفظاً، على عهد النبي ﷺ بلا خلاف. توفي بالشام سنة (٣٢ هـ - ٦٥٢ م). روى عنه أهل الحديث ١٧٩ حديثاً.

(٣) سورة الحج الآية ٣٢.

(٤) سورة الحج الآية ٣٧.

(٥) رواه الترمذي والامام ابن حنبل.

يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة وتجريد القصد وصحة النية مع العمل القليل أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير ، والسفر الشاق ، فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتطيب السير . والتقدم والسبق الى الله سبحانه انما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه صاحب العمل الكثير بمراحل ، فإن ساواه في همته تقدم عليه بعمله . وهذا موضع يحتاج الى تفصيل يوافق فيه الاسلام الاحسان .

فأكمل الهدي هدي رسول الله ﷺ ، وكان موفيا كل واحد منهما حقه . فكان مع كماله وارادته وأحواله مع الله يقوم حتى ترم قدماه ، ويصوم حتى يقال لا يفطر ، ويجاهد في سبيل الله ويخالط أصحابه ولا يحتجب عنهم ، ولا يترك شيئا من النوافل والاوراد لتلك الواردات التي تعجز عن حملها قوى البشر ، والله تعالى أمر عباده أن يقوموا بشرائع الاسلام على ظواهرهم ، وحقائق الايمان على بواطنهم ، ولا يقبل واحدا منهما الا بصاحبه وقرينه . وفي المسند مرفوعا « الاسلام علانية والايمان في القلب » فكل اسلام ظاهر لا ينفذ صاحبه منه الى حقيقة الايمان الباطنة فليس بنافع حتى يكون معه شيء من الايمان الباطن ، وكل حقيقة باطنة لا يقوم صاحبها بشرائع الاسلام الظاهرة لا تنفع ولو كانت ما كانت ، فلو تمزق القلب بالمحبة والخوف ولم يتعبد بالأمر وظاهر الشرع لم ينجه ذلك من النار ، كما أنه لو قام بظواهر الاسلام وليس في باطنه حقيقة الايمان لم ينجه ذلك من النار .

وإذا عرف هذا فالصادقون السائرون الى الله والدار الآخرة قسمان :

قسم صرفوا ما فضل من أوقاتهم بعد الفرائض الى النوافل البدنية وجعلوها دأبهم من غير حرص منهم على تحقيق أعمال القلوب ومنازلها وأحكامها وان لم يكونوا خالين من أصلها ، ولكن هممهم مصروفة الى الاستكثار من الأعمال .

وقسم صرفوا ما فضل من الفرائض والسنن الى الاهتمام بصلاح قلوبهم وعكوفها على الله وحده ، والجمعية عليه وحفظ الخواطر والارادات معه . وجعلوا قوة تعبدهم بأعمال القلوب من تصحيح المحبة والخوف والرجاء والتوكل والانابة ورأوا أن أيسر نصيب من الواردات التي ترد على قلوبهم من الله أحب اليهم من

كثير من التطوعات البدنية ، فاذا حصل لأحدهم جمعية ووارد أنس أو حب أو اشتياق أو انكسار وذل لم يستبدل به شيئاً سواه البتة إلا أن يجيء الأمر فيبادر اليه بذلك الوارد ان أمكنه والا بادر الى الأمر ولو ذهب الوارد . فإذا جاءت النوافل فههنا معترك التردد ، فإن أمكن القيام اليها به فذاك والا نظر في الأرجح والأحب الى الله : هل هو القيام الى تلك النافلة ولو ذهب وارده كإغاثة الملهوف وارشاد ضال وجبر مكسور واستفادة ايمان ونحو ذلك ، فههنا ينبغي تقديم النافلة الراجحة ، ومتى قدمها لله رغبة فيه وتقربا اليه فانه يرد عليه ما فات من وارده أقوى مما كان في وقت آخر ، وان كان الوارد أرجح من النافلة فالحزم له الاستمرار في وارده حتى يتوارى عنه فإنه يفوت والنافلة لا تفوت .

وهذا فصل يحتاج الى فضل فقه في الطريق ، ومراتب الأعمال وتقديم الأهم منها فالأهم ، والله الموفق لذلك لا إله غيره ولا رب سواه .

الاخلاق الممدوحة والاخلاق المذمومة

أصل الأخلاق المذمومة كلها الكبر والمهانة والدناءة ، وأصل الاخلاق المحمودة كلها الخشوع وعلو الهمة ، فالفخر والبطر والأشر والعجب والحسد والبغي والخيلاء والظلم والقسوة والتجبر والاعراض واباء قبول النصيحة والاستئثار وطلب العلو وحب الجاه والرئاسة وأن يحمد بما لم يفعل وأمثال ذلك كلها ناشئة من الكبر ، وأما الكذب والخسة والخيانة والرياء والمكر والخديعة والطمع والفزع والجبن والبخل والعجز والكسل والذل لغير الله . واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير ونحو ذلك ، فإنها من المهانة والدناءة وصغر النفس .

وأما الأخلاق الفاضلة كالصبر والشجاعة والعدل والمروءة والعفة والصيانة والجود والحلم والعفو والصفح والاحتمال والايثار . وعزة النفس عن الدناءات والتواضع والقناعة والصدق والأخلاق ، والمكافأة على الاحسان بمثله أو أفضل والتغافل عن زلات الناس ، وترك الاشتغال بما لا يعنيه ، وسلامة القلب من تلك الاخلاق المذمومة ونحو ذلك ، فكلها ناشئة عن الخشوع وعلو الهمة ، والله

سبحانه أخبر عن الأرض بأنها تكون خاشعة ثم ينزل عليها الماء فتهتز وتربو وتأخذ زينتها وبهجتها ، فكذلك المخلوق منها إذا أصابه حظه من التوفيق .

وأما النار فطبعها العلو والافساد ثم تخمد فتصير أحقر شيء وأذله وكذلك المخلوق منها فهي دائما بين العلو اذا هاجت واضطربت وبين الخسة والدناءة اذا خمدت وسكنت .

والأخلاق المذمومة تابعة للنار والمخلوق منها ، والأخلاق الفاضلة تابعة للأرض والمخلوق منها فمن علت همته وخشعت نفسه اتصف بكل خلق جميل . ومن دنت همته وطغت نفسه اتصف بكل خلق رذيل .

المطلب الأعلى يحتاج الى همة عالية ونية صحيحة

المطلب الأعلى موقوف حصوله على همة عالية ونية صحيحة ، فمن فقدهما تعذر عليه الوصول اليه ، فإن الهمة اذا كانت عالية تعلقت به وحده دون غيره . واذا كانت النية صحيحة سلك العبد الطريق الموصل اليه ، فالنية تفرد له الطريق والهمة تفرد له المطلوب فإذا توحد مطلوبه والطريق الموصلة اليه كان الوصول غايته واذا كانت همته سافلة تعلقت بالسفليات ولم تتعلق بالمطلب الأعلى . واذا كانت النية غير صحيحة كانت طريقه غير موصلة اليه فمدار الشأن على همة العبد ونيته وهما مطلوبه وطريقه ولا يتم له الا بترك ثلاثة أشياء :

(١) العوائد والرسوم والأوضاع التي أحدثها الناس .

(٢) هجر العوائق التي تعوقه عن افراد مطلوبه وطريقه وقطعها .

(٣) قطع علائق القلب التي تحول بينه وبين تجريد التعلق بالمطلوب والفرق بينهما أن العوائق هي الحوادث الخارجية ، والعلائق هي التعلقات القلبية بالمباحات ونحوها ، وأصل ذلك ترك الفضول التي تشغل عن المقصود من الطعام والشراب والمنام والخلطة فيأخذ من ذلك ما يعينه على طلبه ، ويرفض منه ما يقطعه عنه أو يضعف طلبه والله المستعان .

(فصل)

من كلام عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال رجل عنده : ما أحب أن

أكون من أصحاب اليمين ، أحب أن أكون من المقربين ، فقال عبد الله : لكن ههنا رجل ود أنه إذا مات لم يبعث . يعني نفسه .

وخرج ذات يوم فاتبعه ناس فقال لهم : ألكم حاجة؟ قالوا: لا ولكن أردنا أن نمشي معك. قال: ارجعوا فإنه ذلة للتابع وفتنة المتبوع .

وقال: لو تعلمون مني ما أعلم من نفسي لحثوتم على رأسي التراب: وقال: حبذا المكروهان: الموت والفقر ، وأيم الله ان هو الا الغنى والفقر وما أبالي بأيهما بليت أرجو الله في كل واحد منهما ان كان الغنى ان فيه للعطف وان كان الفقر ان فيه للصبر .

وقال: انكم في ممر الليل والنهار في آجال منقوصة وأعمال محفوظة والموت يأتي بغتة فمن زرع خيراً فيوشك أن يحصد رغبة . ومن زرع شراً فيوشك أن يحصد ندامة . ولكل زارع مثل ما زرع لا يسبق بطيء بحظه ولا يدرك حريص ما لم يقدر له . من أعطى خيراً فالله أعطاه . ومن وقي شرا فالله وقاه . المتقون سادة والفقهاء قادة ومجالستهم زيادة ، انما هما اثنتان الهدى والكلام ، فأفضل الكلام كلام الله وأفضل الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة ، فلا يطولن عليكم الامد ولا يلهينكم الأمل ، فإن كل ما هو آت قريب ، ألا وان البعيد ما ليس آتياً ، ألا وان الشقي من شقي في بطن أمه ، وان السعيد من وعظ بغيره ، ألا وان قتال المسلم كفر وسبابه فسوق ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام حتى يسلم عليه اذا لقيه ويجيبه اذا دعاه ، ويعوده اذا مرض ، ألا وان شر الروايا روايا الكذب . ألا وان الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ، ولا أن يعد الرجل صبيه شيئاً ثم لا ينجزه ، ألا وان الكذب يهدي الى الفجور والفجور يهدي الى النار . والصدق يهدي الى البر والبر يهدي الى الجنة ، وأنه يقال للصادق صدق وبر . ويقال للكاذب كذب وفجر ، وأن محمداً ﷺ حدثنا أن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، ويكذب حتى يكتب عند الله كذاباً . ان أصدق الحديث كتاب الله وأوثق العرى كلمة التقى ، وخير الملة ملة ابراهيم ، وأحسن السنن سنة محمد ﷺ ، وخير الهدي هدي الأنبياء، وأشرف الحديث ذكر

الله . وخير القصص القرآن ، وخير الأمور عواقبها وشر الأمور محدثاتها، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، ونفس تنجيها خير من امارة لا تحصيها . وشر المعذرة حين يحضر الموت ، وشر الندامة ندامة يوم القيامة ، وشر الضلالة الضلالة بعد الهدى ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ، وخير ما ألقى في القلب اليقين ، والريب من الكفر ، وشر العمى عمى القلب ، والخمر جماع الاثم ، والنساء حبائل الشيطان ، والشباب شعبة من الجنون ، والنوح من عمل الجاهلية ومن الناس من لا يأتي الجمعة الا دبرا(١) ولا يذكر الله الا هجرا ، وأعظم الخطايا الكذب ، ومن يعف يعف الله عنه . ومن يكظم الغيظ يأجره الله . ومن يغفر يغفر الله له ، ومن يصبر على الرزية يعقبه الله(٢) وشر المكاسب كسب الربا . وشر المآكل مال اليتيم ، وانما يكفي أحدكم ما قنعت به نفسه وانما يصير الى أربعة أذرع والأمر الى آخره ، وملاك العمل خواتمه ، وأشرف الموت قتل الشهداء ، ومن يستكبر يضعه الله ، ومن يعص الله يطع الشيطان . ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله اذا الناس نائمون ، وبنهاره اذا الناس مفطرون ، وبحزنه اذا الناس يفرحون وببكائه اذا الناس يضحكون وبصمته إذا الناس يخوضون وبخشوعه اذا الناس يختالون.

وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكياً محزوناً حليما حكيما سكينا ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافياً ولا غافلا ولا صخاباً ولا صياحا ولا حديداً. من تطاول تعظماً حطه الله ، ومن تواضع تخشعاً رفعه الله ، وان للملك لمة وللشيطان لمة ، فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فإذا رأيتم ذلك فاحمدوا الله . ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، فإذا رأيتم ذلك فتعوذوا بالله . ان الناس قد أحسنوا القول فمن وافق قوله فعله فذاك الذي أصاب حظه ، ومن خالف قوله فعله فذاك انما يوبخ نفسه .

لا ألفين أحدكم جيفة ليل قطرب(٣) نهار . اني لأبغض الرجل أن أراه

---

(١) أي أن يأتي الصلاة حين يدبر وقتها.

(٢) أي يجعل الله العاقبة له.

(٣) القطرب : اللص والفأرة.

فارغا ليس في شيء من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة ومن لم تأمره الصلاة بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً .

من اليقين أن لا ترضي الناس بسخط الله ولا تحمد أحداً على رزق الله ولا تلوم أحداً على ما لم يؤتك الله ، فإن رزق الله لا يسوقه حرص حريص ولا يرده كراهة كاره ، وأن الله بقسطه وحلمه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط .

ما دمت في صلاة فأنت تقرع باب الملك ومن يقرع باب الملك يفتح له .

اني لأحسب الرجل ينسى العلم كان يعلمه بالخطيئة يعملها .

كونوا ينابيع العلم مصابيح الهدى أحلاس البيوت سرج الليل جدد القلوب خلقان الثياب تعرفون في السماء وتخفون على أهل الأرض .

إن للقلوب شهوة وادباراً فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها ودعوها عند فترتها وادبارها .

ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم بالخشية .

إنكم ترون الكافر من أصح الناس جسما وأمرضه قلباً ، وتلقون المؤمن من أصح الناس قلبا وأمرضه جسما ، وأيم الله لو مرضت قلوبكم وصحت أجسامكم لكنتم أهون على الله من الجعلان .

لا يبلغ العبد حقيقة الايمان حتى يحل بذروته ، ولا يحل بذروته حتى يكون الفقر أحب اليه من الغنى ، والتواضع أحب اليه من الشرف ، وحتى يكون حامده وذامه عنده سواء. وأن الرجل ليخرج من بيته ومعه دينه فيرجع وما معه منه شيء . يأتي الرجل ولا يملك له ولا لنفسه ضراً ولا نفعاً فيقسم له بالله أنك لذيت وذيت ، فيرجع وما حبي من حاجته بشيء ويسخط الله عليه .

لو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلبا .

الإثم حواز[1] القلوب .

---

(١) أي أنه يجمع القلوب ويغلب عليها.

ما كان من نظرة فإن للشيطان فيها مطمعا .

مع كل فرحة تـرحة ومـا ملىء بيت حيـرة[1] الاملىء عبـرة ـ وما منكم إلا ضيف وماله عارية ، فالضيف مرتحل والعارية مؤداة إلى أهلها .

يكون في آخر الزمان أقوام أفضل أعمالهم التلاوم بينهم يسمون الانتان[2] إذا أحب الرجل أن ينصف من نفسه فليأت الى الناس الذي يحب أن يؤتي اليه .

الحق ثقيل مريء ، والباطل خفيف وبيء ـ رب شهوة تورث حزنا طويلا .

ما على وجه الأرض شيء أحوج الى طول سجن من لسان .

اذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن بهلاكها .

من استطاع منكم أن يجعل كنزه في السماء حيث لا يأكله السوس ولا يناله السراق فليفعل فإن قلب الرجل مع كنزه .

لا يقلدن أحدكم دينه رجلا فإن آمن آمن ، وان كفر كفر ، وان كنتم لا بد مقتدين فاقتدوا بالميت فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة .

لا يكن أحدكم إمعة، قالوا: وما الإمعة ؟ قال : يقول أنا مع الناس إن اهتدوا اهتديت وإن ضلوا ضللت ، ألا ليوطن أحدكم نفسه على أنه إن كفر الناس لا يكفر

وقال له رجل: علمني كلمات جوامع نوافع ، فقال: آعبدالله لا تشرك به شيئاً وزل مع القرآن حيث زال ، ومن جاءك بالحق فاقبل منـه وإن كان بعيـداً بغيضاً ومن جاءك بالباطل فاردد عليه وان كان حبيباً قريباً . يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقال له أد أمانتك فيقول يـا رب من أين وقد ذهبت الـدنيا . فتمثـل على هيئتهـا يوم أخذها في قعر جهنم ، فينزل فيأخذها فيضعها على عاتقه فيصعد بها حتى اذا ظن أنه خارج بها هوت وهوى في أثرها أبد الآبدين .

---

(١) الحبرة النعمة وسعة العيش.

(٢) الانتان جمع نتن، وهو من كان به رائحة كريهة .

اطلب قلبك في ثلاثة مواطن : عند سماع القرآن وفي مجالس الذكر ، وفي أوقات الخلوة ، فإن لم تجده في هذه المواطن فسل الله أن يمن عليك بقلب فإنه لا قلب لك .

قال الجنيد : دخلت على شاب فسألني عن التوبة فأجبته ، فسألني عن حقيقتها فقلت : أن تنصب ذنبك بين عينيك حتى يأتيك الموت ، فقال لي : مه ما هذا حقيقة التوبة ! فقلت له : فما حقيقة التوبة عندك يا فتى؟ قال : أن تنسى ذنبك . وتركني ومضى ، فكيف هو عندك يا أبا القاسم ، فقلت : القول ما قال الفتى . قال : كيف ؟ قلت : اذا كنت معه في حال ثم نقلني من حال الجفا الى حال الوفا فذكري للجفا في حال الوفا جفا .

الاخلاص ومحبة المدح لا يجتمعان

لا يجتمع الاخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس الا كما يجتمع الماء والنار ، والضب والحوت ، فإذا حدثتك نفسك بطلب الاخلاص فاقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس ، واقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة ، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الاخلاص .

فإن قلت وما الذي يسهل عليّ ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح ؟ قلت : أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقينا أنه ليس من شيء يطمع فيه الا وبيد الله وحده خزائنه لا يملكها غيره ، ولا يؤتى العبد منها شيئا سواه ، وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين ، ويضر ذمه ويشين الا الله وحده ، كما قال ذلك الأعرابي للنبي ﷺ : ان مدحي زين وذمي شين ، فقال «**ذلك الله عز وجل**» فازهد في مدح من لا يزينك مدحه وفي ذم من لا يشينك ذمه ، وارغب في مدح من كل الزين في مدحه ، وكل الشين في ذمه ، ولن يقدر على ذلك الا بالصبر واليقين ، فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب . قال تعالى ﴿ **فاصبر ان وعد الله حق ولا**

يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾[1] وقال تعالى ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾[2] .

اشرف الناس من كانت لذته في معرفة الله تعالى ومحبته

لذة كل أحد على حسب قدره وهمته وشرف نفسه . فأشرف الناس نفساً وأعلاهم همة وأرفعهم قدراً من لذته في معرفة الله ومحبته والشوق الى لقائه والتودد اليه بما يحبه ويرضاه ، فلذته في اقباله عليه . وعكوف همته عليه ودون ذلك مراتب لا يحصيها الا الله حتى تنتهي الى من لذته في أخس الاشياء من القاذورات والفواحش في كل شيء من الكلام والفعال والاشغال ، فلو عرض عليه ما يلتذ به الأول لم تسمح نفسه بقبوله ولا الالتفات اليه ، وربما تألمت من ذلك كما أن الأول اذا عرض عليه ما يلتذ به هذا لم تسمح نفسه به ولم تلتفت اليه ونفرت نفسه منه .

وأكمل الناس لذة من جمع له بين لذة القلب والروح ولذة البدن فهو يتناول لذاته المباحة على وجه لا ينقص حظه من الدار الآخرة ولا يقطع عليه لذة المعرفة والمحبة والأنس بربه . فهذا ممن قال تعالى فيه ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾[3] .

وأبخسهم حظا من اللذة من تناولها على وجه يحول بينه وبين لذات الآخرة فيكون ممن يقال لهم يوم استيفاء اللذات ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾[4] فهؤلاء تمتعوا بالطيبات وافترقوا في وجه التمتع ، فأولئك تمتعوا بها على الوجه الذي أذن لهم فيه فجمع لهم بين لذة الدنيا والآخرة ، وهؤلاء تمتعوا بها على الوجه الذي دعاهم اليه الهوى والشهوة ، وسواء أذن لهم فيه أم لا ، فانقطعت عنهم لذة الدنيا وفاتتهم لذة الآخرة ، فلا لذة الدنيا دامت ولا لذة

---

(١) سورة الروم الآية ٦٠ .
(٢) سورة السجدة الآية ٢٤ .
(٣) سورة الاعراف الآية ٣٢ .
(٤) سورة الاحقاف الآية ٢٠ .

الآخرة حصلت لهم ، فمن أحب اللذة ودوامها والعيش الطيب فليجعل لذة الدنيا موصلا له الى لذة الآخرة بأن يستعين بها على فراغ قلبه لله وإرادته وعبادته فيتناولها بحكم الاستعانة والقوة على طلبه لا بحكم مجرد الشهوة والهوى ، وان كان ممن زويت عنه لذات الدنيا وطيباتها فليجعل ما نقص منها زيادة في لذة الآخرة ويجم نفسه ههنا بالترك ليستوفيها كاملة هناك ، فطيبات الدنيا ولذاتها نعم العون لمن صح طلبه لله والدار الآخرة وكانت همه لما هناك وبئس القاطع لمن كانت هي مقصوده وهمته ، وحولها يدندن . وفواتها في الدنيا نعم العون لطالب الله والدار الآخرة وبئس القاطع النازع من الله والدار الآخرة . فمن أخذ منافع الدنيا على وجه لا ينقص حظه من الآخرة ظفر بهما جميعا والا خسرهما جميعا .

سبحان الله رب العالمين . لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي الا اقامة المروءة وصون العرض وحفظ الجاه وصيانة المال الذي جعله الله قواما لمصالح الدنيا والآخرة ومحبة الخلق ، وجواز القول بينهم ، وصلاح المعاش وراحة البدن وقوة القلب وطيب النفس ونعيم القلب وانشراح الصدر والأمن من مخاوف الفساق والفجار ، وقلة الهم والحزن وعز النفس عن احتمال الذل وصون نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية وحصول المخرج له مما ضاق على الفساق والفجار وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب وتيسير ما عسر على أرباب الفسوق والمعاصي وتسهيل الطاعات عليه وتيسير العلم والثناء الحسن في الناس وكثرة الدعاء له . والحلاوة التي يكتسبها وجهه ، والمهابة التي تلقى له في قلوب الناس ، وانتصارهم وحميتهم له إذا أوذي وظلم ، وذبهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب ، وسرعة إجابة دعائه وزوال الوحشة بينه وبين الله وقرب الملائكة منه وبعد شياطين الانس والجن منه . وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه وخطبتهم لمودته وصحبته ، وعدم خوفه من الموت بل يفرح به لقدومه على ربه ولقائه له ومصيره اليه ، وصغر الدنيا في قلبه ، وكبر الآخرة عنده وحرصه على الملك الكبير والفوز العظيم فيها ، وذوق حلاوة الطاعة . ووجد حلاوة الايمان ، ودعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة له وفرح الكاتبين به ودعائهم له كل وقت ، والزيادة في عقله وفهمه وايمانه

ومعرفته . وحصول محبة الله له وإقباله عليه وفرحه بتوبته . وهكذا يجازيه بفرح وسرور لا نسبة له إلى فرحه وسروره بالمعصية بوجه من الوجوه .

فهذه بعض آثار ترك المعاصي في الدنيا ، فإذا مات تلقته الملائكة بالبشرى من ربه بالجنة ، وبأنه لا خوف عليه ولا حزن ، وينتقل من سجن الدنيا وضيقها الى روضة من رياض الجنة ينعم فيها الى يوم القيامة . فإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحر والعرق وهو في ظل العرش . فإذا انصرفوا من بين يدي الله أخذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين . و﴿**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾[1] .

مزايا الخليفة عمر بن عبد العزيز

ذكر ابن سعد في الطبقات[2] عن عمر بن عبد العزيز[3] أنه كان إذا خطب على المنبر فخاف على نفسه العجب قطعه . واذا كتب كتابا فخاف فيه العجب مزقه ويقول : اللهم اني أعوذ بك من شر نفسي .

اعلم أن العبد اذا شرع في قول أو عمل يبتغي به مرضاة الله مطالعا فيه منة الله عليه به وتوفيقه له فيه وانه بالله لا بنفسه ولا بمعرفته وفكره وحوله وقوته . بل هو بالذي أنشأ له اللسان والقلب والعين والأذن . فالذي منّ عليه بذلك هو الذي من عليه بالقول والفعل . فاذا لم يغب ذلك عن ملاحظته ونظر قلبه لم يحضره العجب الذي أصله رؤية نفسه وغيبته عن شهود منة ربه وتوفيقه واعانته . فاذا

---

(١) سورة الحديد الآية ٢١ .

(٢) هو محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري ـ أبو عبد الله ـ مؤرخ ثقة، من حفاظ الحديث. ولد في البصرة وسكن بغداد، وتوفي فيها سنة (٢٣٠ هـ ـ ٨٤٥ م). لازم الواقدي المؤرخ، وكتب له وروى عنه، وعرف بكاتب الواقدي. قال الخطيب في تاريخ بغداد: محمد بن سعد عندنا من أهل العدالة وحديثه يدل على صدقه فانه يتحرىٰ في كثير من رواياته. اشهر كتبه «طبقات الصحابة».

(٣) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي ـ أبو حفص ـ الخليفة الصالح، وربما قيل خامس الخلفاء الراشدين، تشبيهاً له بهم. ولي الخلافة سنة ٩٩ هـ. ولم تطل مدة خلافته «سنتان ونصف» توفي سنة (١٠١ هـ ـ ٧٢٠ م) ولابن الجوزي «سيرة عمر بن عبد العزيز».

غاب عن تلك الملاحظة وثبت النفس وقامت في مقام الدعوى ، فوقع العجب ففسد عليه القول والعمل ، فتارة يحال بينه وبين تمامه ويقطع عليه ويكون ذلك رحمة به حتى لا يغيب عن مشاهدة المنة والتوفيق . وتارة يتم له ولكن لا يكون له ثمرة ، وان أثمر أثمر ثمرة ضعيفة غير محصلة للمقصود. وتارة يكون ضرره عليه أعظم من انتفاعه ، ويتولد منه مفاسد شتى بحسب غيبته عن ملاحظة التوفيق والمنة ورؤية نفسه وان القول والفعل به .

ومن هذا الموضع يصلح الله سبحانه أقوال عبده وأعماله ويعظم له ثمرتها أو يفسدها عليه ويمنعه ثمرتها ، فلا شيء أفسد للأعمال من العجب ، فاذا أراد الله بعبده خيراً أشهده منته وتوفيقه واعانته له في كل ما يقوله ويفعله ، فلا يعجب به ، ثم أشهده تقصيره فيه وأنه لا يرضى لربه به فيتوب اليه منه ويستغفره ويستحيي أن يطلب عليه أجراً . واذا لم يشهده ذلك وغيبه عنه فرأى نفسه في العمل ورآه بعين الكمال والرضا لم يقع ذلك العمل منه موقع القبول والرضا والمحبة. فالعارف يعمل العمل لوجهه. مشاهداً فيه منته وفضله وتوفيقه، معتذراً منه اليه مستحييا منه اذ لم يوفه حقه. والجاهل يعمل العمل لحظه وهواه ناظرا فيه الى نفسه يمن به على ربه راضيا بعمله. فهذا لون وذاك لون آخر .

حكم ومواعظ

الوصول الى المطلوب موقوف على هجر العوائد وقطع العوائق. فالعوائد السكون الى الدعة والراحة وما ألفه الناس واعتادوه من الرسوم والأوضاع التي جعلوها بمنزلة الشرع المتبع بل هي عندهم أعظم من الشرع. فانهم ينكرون على من خرج عنها وخالفها ما لا ينكرون على من خالف صريح الشرع . وربما كفروه أو بدعوه وضللوه، أو هجروه وعاقبوه لمخالفة تلك الرسوم، وأماتوا لها السنن ونصبوها أندادا للرسول يوالون عليها ويعادون . فالمعروف عندهم ما وافقها والمنكر ما خالفها .

وهذه الأوضاع والرسوم قد استولت على طوائف بني آدم من الملوك والولاة

والفقهاء والصوفية والفقراء والمطوعين[1] والعامة . فربي فيها الصغير ونشأ عليها الكبير ، واتخذت سنناً بل هي أعظم عند أصحابها من السنن . الواقف معها محبوس ، والمتقيد بها منقطع ، عم بها المصاب ، وهجر لأجلها السنة والكتاب . من استنصر بها فهو عند الله مخذول ، ومن اقتدى بها دون كتاب الله وسنة رسوله فهو عند الله غير مقبول . وهذه أعظم الحجب والموانع بين العبد وبين النفوذ إلى الله ورسوله .

العوائق

وأما العوائق فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها ، فإنها تعوق القلب عن سيره الى الله وتقطع عليه طريقه وهي ثلاثة أمور : شرك وبدعة ومعصية ، فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد ، وعائق البدعة بتحقيق السنة . وعائق المعصية بتصحيح التوبة . وهذه العوائق لا تتبين للعبد حتى يأخذ في أهبة السفر ويتحقق بالسير الى الله والدار الآخرة ، فحينئذ تظهر له هذه العوائق ويحس بتعويقها له بحسب قوة سيره وتجرده للسفر ، والا فما دام قاعداً لا يظهر له كوامنها وقواطعها .

العلائق

وأما العلائق فهي كل ما تعلق به القلب دون الله ورسوله من ملاذ الدنيا وشهواتها ورياساتها وصحبة الناس والتعلق بهم ، ولا سبيل له الى قطع هذه الأمور الثلاثة ورفضها إلا بقوة التعلق بالمطلب الأعلى وإلا فقطعها عليه بدون تعلقه بمطلوبه ممتنع ، فإن النفس لا تترك مألوفها ومحبوبها إلا لمحبوب هو أحب اليها منه وآثر عندها منه ، وكلما قوى تعلقه بمطلوبه ضعف تعلقه بغيره وكذا بالعكس ، والتعلق بالمطلوب هو شدة الرغبة فيه وذلك على قدر معرفته به وشرفه وفضله على ما سواه .

---

(١) فئة موجودة في المملكة العربية السعودية، يقومون بحض الناس إلى الصلاة.

منزلة الرسول ﷺ

لما كمل الرسول ﷺ مقام الافتقار الى الله سبحانه أحوج الخلائق كلهم اليه في الدنيا والآخرة : أما حاجتهم اليه في الدنيا فأشد من حاجتهم الى الطعام والشراب والنفس الذي به حياة أبدانهم ، وأما حاجتهم اليه في الآخرة فإنهم يستشفعون بالرسل الى الله حتى يريحهم من ضيق مقامهم فكلهم يتأخر عن الشفاعة فيشفع لهم وهو الذي يستفتح لهم باب الجنة .

علامات السعادة والفلاح

من علامات السعادة والفلاح أن العبد كلما زيد في علمه زيد في تواضعه ورحمته ، وكلما زيد في عمله زيد في خوفه وحذره ، وكلما زيد في عمره نقص من حرصه ، وكلما زيد في ماله زيد في سخائه وبذله ، وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم .

وعلامات الشقاوة أنه كلما زيد في علمه زيد في كبره وتيهه . وكلما زيد في عمله زيد في فخره واحتقاره للناس ، وحسن ظنه بنفسه ، وكلما زيد في عمره زيد في حرصه ، وكلما زيد في ماله زيد في بخله وامساكه ، وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في كبره وتيهه ، وهذه الأمور ابتلاء من الله وامتحان يبتلى بها عباده ، فيسعد بها أقوام ويشقى بها أقوام ، وكذلك الكرامات امتحان وابتلاء كالملك والسلطان والمال ، قال تعالى عن نبيه سليمان لما رأى عرش بلقيس عنده ﴿ **هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر** ﴾[1] فالنعم ابتلاء من الله وامتحان يظهر بها شكر الشكور وكفر الكفور . كما أن المحن بلوى منه سبحانه فهو يبتلي بالنعم كما يبتلى بالمصائب ، قال تعالى ﴿ **فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن . وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن ، كلا** ﴾[2] أي ليس كل من وسعت عليه وأكرمته ونعمته يكون ذلك اكراماً مني له . ولا كل من ضيقت رزقه وابتليته يكون ذلك اهانة مني له .

---

(١) سورة النمل الآية ٤٠ .

(٢) سورة الفجر الآية (١٥ ـ ١٧) .

من أراد علو بنيانه فعليه بتوثيق أساسه واحكامه وشدة الاعتناء به . فإن علو البنيان على قدر توثيق الأساس واحكامه . فالأعمال والدرجات بنيان وأساسها الايمان . ومتى كان الأساس وثيقا حمل البنيان واعتلى عليه . واذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه ، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت ، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد ، فالعارف همته تصحيح الأساس وإحكامه ، والجاهل يرفع في البناء عن غير أساس ، فلا يلبث بنيانه أن يسقط قال تعالى ﴿ **أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوانٍ خير أمْ من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم** ﴾[1] .

فالأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الانسان ، فإذا كانت القوة قوية حملت البدن ودفعت عنه كثيراً من الآفات ، وإذا كانت القوة ضعيفة ضعف حملها للبدن ، وكانت الآفات اليه أسرع شيء ، فاحمل بنيانك على قوة أساس الايمان ، فإذا تشعث شيء من أعالي البناء وسطحه كان تداركه أسهل عليك من خراب الاساس وهذا الاساس أمران : صحة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته . والثاني تجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه ، فهذا أوثق أساس أسس العبد عليه بنيانه ، وبحسبه يعتلي البناء ما شاء ، فأحكم الاساس واحفظ القوة ودم على الحمية واستفرغ اذا زاد بك الخلط ، والقصد القصد وقد بلغت المراد ، والا فما دامت القوة ضعيفة والمادة الفاسدة موجودة والاستفراغ معدوما .

فاقرإ السلام على الحياة فإنها   قد آذنتك بسرعة التوديع

فاذا كمل البناء فبيضه بحسن الخلق والاحسان الى الناس ، ثم حطه بسور من الحذر لا يقتحمه عدو ، ولا تبدو منه العورة ، ثم ارخ الستور على أبوابه ثم اقفل الباب الاعظم بالسكوت عما تخشى عاقبته ، ثم ركب له مفتاحا من ذكر الله

---

(١) سورة التوبة الآية ١٠٩ .

به تفتحه وتغلقه ، فان فتحت فتحت بالمفتاح ، وان أغلقت البـاب أغلقته بـه ، فتكون حينئذ قد بنيت حصنا تحصنت فيه من أعدائك . اذا أطاف به العدو لم يجد منه مدخلا فييأس منك . ثم تعاهد بناء الحصن كل وقت فإن العدو اذا لم يطمع في الدخول من الباب نقب عليك النقوب من بعيد بمعاول الذنوب . فإن أهملت أمره وصل اليك النقب فـاذا العدو معـك في داخل الحصن فيصعب عليـك اخراجـه وتكون معه على ثلاث خلال : إما أن يغلبك على الحصن ويستولي عليه ، وإما أن يساكنك فيه ، وإما أن يشغلك بمقاتلته عن تمام مصلحتك وتعود الى سد النقب ولم شعث الحصن . وإذا دخل نقبه إليك نالك منه ثلاث آفات : إفسـاد الحصن ، والإغارة على حواصله وذخائره ، ودلالة السراق من بني جنسه على عورتـه ، فلا يزال يبلى منه بغارة بعد غارة حتى يضعفوا قواه ويوهنوا عزمه ، فيتخلى عن الحصن ويخلي بينهم وبينه .

وهذه حال أكثر النفوس مع هذا العدو ، ولهذا تراهم يسخطون ربهم برضا أنفسهم بـل برضـا مخلوق مثلهم لا يملك لهم ضراً ولا نفعـاً ، ويضيعـون كسب الدين بكسب الأموال . ويهلكون أنفسهم بما لا يبقى لهم ، ويحرصون على الدنيا وقد أدبرت عنهم ، ويـزهدون في الآخـرة وقد هجمت عليهم . ويخـالفون ربهم باتباع أهوائهم . ويتكلون على الحياة ولا يذكـرون الموت . ويـذكرون شهـواتهم وحظوظهم ، وينسون ما عهد الله اليهم ويهتمون بما ضمنه الله لهم ، ولا يهتمون بما أمرهم به ، ويفرحون بالدنيا ويحزنون على فوات حظهم منها ولا يحزنون عـلى فوات الجنة وما فيها ، ولا يفرحون بالايمان فرحهم بالدرهم والدينار ، ويفسدون حقهم بباطلهم ، وهداهم بضـلالهم . ومعـروفهم بمنكـرهم ويلبسـون إيمـانهم بظنونهم ، ويخلطون حلالهم بحرامهم ، ويتـرددون في حيرة آرائهم وأفكـارهم . ويتـركون هـدى الله الذي أهـداه اليهم . ومن العجب أن هذا العـدو يستعمـل صاحب الحصن في هدم حصنه بيديه .

الكفر وأركانه

أركان الكفر أربعة : الكبر ، والحسد ، والغضب ، والشهوة . فالكبر يمنعه

الانقياد ، والحسد يمنعه قبول النصيحة وبذلها . والغضب يمنعه العدل والشهوة تمنعه التفرغ للعبادة ، فإذا انهدم ركن الكبر سهل عليه الانقياد ، واذا انهدم ركن الحسد سهل عليه قبول النصح وبذله ، واذا انهدم ركن الغضب سهل عليه العدل والتواضع . واذاانهدم ركن الشهوة سهل عليه الصبر والعفاف والعادة ، وزوال الجبال عن أماكنها أيسر من زوال هذه الأربعة عمن بلي بها . ولا سيما اذا صارت هيئات راسخة وملكات وصفات ثابتة ، فإنه لا يستقيم له معها عمل البتة ، ولا تزكو نفسه مع قيامها بها ، وكلما اجتهد في العمل افسدته عليه هذه الأربعة ، وكل الآفات متولدة منها ، واذا استحكمت في القلب أرته الباطل في صورة الحق والحق في صورة الباطل . والمعروف في صورة المنكر ، والمنكر في صورة المعروف . وقربت منه الدنيا وبعدت منه الآخرة . واذا تأملت كفر الأمم رأيته ناشئا منها وعليها يقع العذاب . وتكون خفته وشدته بحسب خفتها وشدتها . فمن فتحها على نفسه فتح عليه أبواب الشرور كلها عاجلا وآجلا . ومن أغلقها على نفسه أغلق عنه أبواب الشرور فانها تمنع الانقياد والاخلاص والتوبة والانابة . وقبول الحق ونصيحة المسلمين والتواضع لله ولخلقه .

ومنشأ هذه الأربعة من جهله بربه وجهله بنفسه . فإنه لو عرف ربه بصفات الكمال ونعوت الجلال . وعرف نفسه بالنقائص والآفات لم يتكبر ولم يغضب لها ولم يحسد أحداً على ما آتاه الله . فإن الحسد في الحقيقة نوع من معاداة الله فإنه يكره نعمة الله على عبده وقد أحبها الله . ويحب زوالها عنه والله يكره ذلك فهو مضاد لله في قضائه وقدره ومحبته وكراهته . ولذلك كان ابليس عدوه حقيقة لأن ذنبه كان عن كبر وحسد فقلع هاتين الصفتين بمعرفة الله وتوحيده والرضا به وعنه والانابة اليه وقلع الغضب بمعرفة النفس وأنها لا تستحق أن يغضب لها وينتقم لها . فان ذلك ايثار لها بالرضا والغضب على خالقها وفاطرها وأعظم ما تدفع به هذه الآفة أن يعودها أن تغضب له سبحانه وترضى له . فكلما دخلها شيء من الغضب والرضا له خرج منها مقابله من الغضب والرضا لها وكذا بالعكس .

وأما الشهوة فدواها صحة العلم والمعرفة بأن اعطاءها شهواتها أعظم أسباب حرمانها إياها ومنعها منها . وحميتهـا أعظم أسبـاب اتصالهـا اليها . فكلما فتحت عليها باب الشهوات كنت ساعيا في حرمانها اياها وكلما أغلقت عنها ذلـك الباب كنت ساعيا في ايصالها اليها على أكمل الوجوه .

فالغضب مثل السبع إذا أفلته صاحبه بـدأ يأكله ، والشهـوة مثل النـار اذا أضرمها صاحبها بدأت بإحراقه ، والكبر بمنزلة منازعة الملك ملكه فإن لم يهلكك طردك عنه ، والحسد بمنزلة معاداة من هو أقدر منك ، والذي يغلب شهوته وغضبه يفرق الشيطان من ظله . ومن تغلبه شهوتـه وغضبه يفـرّق من خيالـه (يفرق : يخاف) .

(فصل عظيم النفع)

في وصف الجهال

الجهال بالله وأسمائه وصفاته ، المعطلون حقائقها يبغضون الله الى خلقه . ويقطعون عليهم طريق محبته والتودد اليه بـطاعته من حيث لا يعلمـون ، ونحن نذكر من ذلك أمثلة نحتذي عليها .

فمنها أنهم يقررون في نفوس الضعفاء أن الله سبحانه لا تنفع معه طاعة وان طال زمانها وبالغ العبد وأتى بها بظاهره وباطنه ، وأن العبد ليس على ثقة ولا أمن من مكره ، بل شأنه سبحانه أن يأخذ المطيع المتقي من المحراب الى الماخور ، ومن التـوحيد والمسبحـة الى الشرك والمـزمار . ويقلب قلبـه من الايمـان الخـالص الى الكفر. ويروون في ذلـك آثاراً صحيحـة لم يفهموهـا وباطلة لم يقلهـا المعصـوم ويزعمون أن هذا حقيقة التوحيد ويتلون على ذلك قوله تعالى﴿**لا يسأل عما يفعل**﴾[1] وقوله ﴿**أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون** ﴾[2] وقوله

---

(١) سورة الانبياء الآية ٢٣ . (٢) سورة الاعراف الآية ٩٩.

﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾[1] ويقيمون ابليس حجة لهم على هذه المعرفة وأنه كان طاووس الملائكة ، وأنه لم يترك في السماء رقعة ولا في الأرض بقعة الا وله فيها سجدة أو ركعة ، لكن جنى عليه جاني القدر ، وسطا عليه الحكم ، فقلب عينه الطيبة وجعلها أخبث شيء حتى قال بعض عارفيهم انك ينبغي أن تخاف الله كما تخاف الأسد الذي يثب عليك بغير جرم منك ولا ذنب أتيته اليه ، ويحتجون بقول النبي ﷺ : ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها » ويروون عن بعض السلف : أكبر الكبائر الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله .

وذكر الامام أحمد عن عون بن عبد الله[2] أو غيره أنه سمع رجلا يدعو : اللهم لا تؤمني مكرك ، فأنكر ذلك وقال : قل اللهم لا تجعلني ممن يأمن مكرك وبنوا هذا على أصلهم الباطل وهو انكار الحكمة والتعليل والأسباب ، وأن الله لا يفعل لحكمة ولا بسبب ، وانما يفعل بمشيئة مجردة من الحكمة والتعليل والسبب ، فلا يفعل لشيء ولا بشيء ، وأنه يجوز عليه أن يعذب أهل طاعته أشد العذاب ، وينعم أعداءه وأهل معصيته بجزيل الثواب ، وأن الأمرين بالنسبة اليه سواء ، ولا يعلم امتناع ذلك الا بخبر من الصادق أنه لا يفعله . فحينئذ يعلم امتناعه لوقوع الخبر بأنه لا يكون لا لأنه في نفسه باطل وظلم ، فإن الظلم في نفسه مستحيل ، فإنه غير ممكن . بل هو بمنزلة جعل الجسم الواحد في مكانين في آن واحد . والجمع بين الليل والنهار في ساعة واحدة . وجعل الشيء موجوداً ومعدوماً معاً في آن واحد . فهذا حقيقة الظلم عندهم . فاذا رجع العالم الى نفسه قال من لا يستقر

---

(١) سورة الانفال الآية ٢٤ .

(٢) هو عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهزلي ـ أبو عبد الله الكوفي ـ خطيب، راوية، ناسب، شاعر. كان من ادب أهل المدينة. وسكن الكوفة واشتهر بالعبادة والقراءة. وكان يقول بالارجاء، ثم رجع . توفي سنة (١١٥ هـ).
انظر البيان والتبيين [١ : ١٧٨]
تهذيب التهذيب [٨: ١٧١].

له أمر ولا يؤمن له مكر . كيف يوثق بالتقرب اليه . وكيف يعول على طاعته واتباع أمره . وليس لنا سوى هذه المدة اليسيرة فاذا هجرنا فيها اللذات وتركنا الشهوات وتكلفنا أثقال العبادات وكنا مع ذلك على غير ثقة منه أنه يقلب علينا الايمان كفراً والتوحيد شركاً والطاعة معصية والبر فجوراً ويديم علينا العقوبات كنا خاسرين في الدنيا والآخرة .

فإذا استحكم هذا الاعتقاد في قلوبهم وتخمر في نفوسهم صاروا اذا أمروا بالطاعات وهجر اللذات بمنزلة انسان جعل يقول لولده : معلمك ان كتبت وأحسنت وتأدبت ولم تعصه ربما أقام لك حجة وعاقبك . وان كسلت وبطلت وتعطلت وتركت ما أمرك به ربما قربك وأكرمك . فيودع بهذا القول قلب الصبي ما لا يثق بعده الى وعيد المعلم على الاساءة . ولا وعده على الاحسان وان كبر الصبي وصلح للمعاملات والمناصب قال له : هذا سلطان بلدنا يأخذ اللص من الحبس فيجعله وزيراً أميراً . ويأخذ الكيس المحسن لشغله فيخلده الحبس ويقتله ويصلبه . فإذا قال له ذلك أوحشه من سلطانه وجعله على غير ثقة من وعده ووعيده ، وأزال محبته من قلبه وجعله يخافه مخافة الظالم الذي يأخذ المحسن بالعقوبة والبريء بالعذاب فأفلس هذا المسكين من اعتقاد كون الأعمال نافعة أو ضارة ، فلا بفعل الخير يستأنس ولا بفعل الشر يستوحش . وهل في التنفير عن الله وتبغيضه إلى عباده أكثر من هذا ؟ ولو اجتهد الملاحدة على تبغيض الدين والتنفير عن الله لما أتوا بأكثر من هذا .

وصاحب هذه الطريقة يظن أنه يقرر التوحيد والقدر ويرد على أهل البدع وينصر الدين . ولعمر الله العدو العاقل أقل ضرراً من الصديق الجاهل . وكتب الله المنزلة كلها ورسله كلهم شاهدة بضد ذلك ولا سيما القرآن ، فلو سلك الدعاة المسلك الذي دعا الله ورسوله به الناس اليه لصلح العالم صلاحا لا فساد معه ، فالله سبحانه أخبر ـ وهو الصادق الوفي ـ أنه انما يعامل الناس بكسبهم ويجازيهم بأعمالهم ولا يخاف المحسن لديه ظلما ولا هضما ، ولا يخاف بخساً ولا رهقاً ، ولا يضيع عمل محسن أبداً ، ولا يضيع على العبد مثقال ذرة ولا يظلمها ، وان تك

حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما . وان كان مثقال حبة من خردل جازاه بها ولا يضيعها عليه ، وأنه يجزي بالسيئة مثلها ، ويحبطها بالتوبة والندم والاستغفار ، والحسنات والمصائب ، ويجزي بالحسنة عشر أمثالها ويضاعفها الى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة .

وهو الذي أصلح الفاسدين وأقبل بقلوب المعرضين وتاب على المذنبين . وهدى الضالين وأنقذ الهالكين ، وعلم الجاهلين وبصر المتحيرين ، وذكر الغافلين وآوى الشاردين ، وإذا أوقع عقابا أوقعه بعد شدة التمرد والعتو عليه ودعوة العبد إلى الرجوع اليه والاقرار بربوبيته وحقه مرة بعد مرة ، حتى اذا أيس من استجابته والاقرار بربوبيته ووحدانيته أخذه ببعض كفره وعتوه وتمرده بحيث يعذر العبد من نفسه ويعترف بأنه سبحانه لم يظلمه وأنه هو الظالم لنفسه كما قال تعالى عن أهل النار ﴿ **فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير** ﴾[١] وقال عمن أهلكهم في الدنيا أنهم لما رأوا آياته وأحسوا بعذابه قالوا ﴿ **يا ويلنا انا كنا ظالمين ، فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين** ﴾[٢] وقال أصحاب الجنة[٣] التي أفسدها عليهم لما رأوها قالوا ﴿ **سبحان ربنا انا كنا ظالمين** ﴾[٤] قال الحسن : لقد دخلوا النار وان حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه حجة ولا سبيلا . ولهذا قال تعالى ﴿ **فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** ﴾[٥] .

فهذه الجملة في موضع الحال . أي قطع دابرهم حال كونه سبحانه محموداً على ذلك ، فقطع دابرهم قطعاً مصاحباً لحمده فهو قطع واهلاك يحمد عليه الرب تعالى لكمال حكمته وعدله ووضعه العقوبة في موضعها الذي لا يليق به غيرها . فوضعها في الموضع الذي يقول من علم الحال لا تليق العقوبة الا بهذا المحل . ولا

---

(١) سورة الملك الآية ١١ .

(٢) سورة الأنبياء الآية (١٤ ـ ١٥) .

(٣) أي أصحاب البستان أو الحديقة . انظر قصتهم في سورة القلم الآيات ١٧ ـ ٣٣ .

(٤) سورة القلم الآية ٢٩ .

(٥) سورة الانعام الآية ٤٥ .

يليق به الا العقوبة . ولهذا قال عقيب إخباره عن الحكم بين عباده ومصير أهل السعادة الى الجنة وأهل الشقاء إلى النار ﴿ **وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾(١) فحذف فاعل القول اشعارا بالعموم وأن الكون كله قال الحمد لله رب العالمين ، لما شاهدوا من حكمه الحق وعدله وفضله ولهذا قال في حق أهل النار ﴿ **قيل ادخلوا أبواب جهنم** ﴾(٢) كأن الكون كله يقول ذلك حتى نقوله أعضاؤهم وأرواحهم وأرضهم وسماؤهم ، وهو سبحانه يخبر أنه اذا أهلك أعداءه أنجى أولياءه ، ولا يعمهم بالهلاك بمحض المشيئة .

ولما سأله نوح نجاة ابنه أخبر أنه يغرقه بسوء عمله وكفره ، ولم يقل اني أغرقه بمحض مشيئتي وارادتي بلا سبب ولا ذنب ، وقد ضمن سبحانه زيادة الهداية للمجاهدين في سبيله ، ولم يخبر أنه يضلهم ويبطل سعيهم . وكذلك ضمن زيادة الهداية للمتقين الذين يتبعون رضوانه ، وأخبر أنه لا يضل الا الفاسقين الذين ينقضون عهده من بعد ميثاقه ، وأنه انما يضل من آثر الضلال واختاره على الهدى فيطبع حينئذ على سمعه وقلبه . وأنه يقلب قلب من لم يرض بهداه اذا جاءه ولم يؤمن به ودفعه ورده فيقلب فؤاده وبصره عقوبة له على رده ودفعه لما تحققه وعرفه . وأنه سبحانه لو علم في تلك المحال التي حكم عليها بالضلال والشقاء خيرا لأفهمها وهداها ولكنها لا تصلح لنعمته ولا تليق بها كرامته .

وقد أزاح سبحانه العلل وأقام الحجج ، ومكن من أسباب الهداية وأنه لا يضل إلا الفاسقين والظالمين ولا يطبع إلا على قلوب المعتدين ولا يركس في الفتنة إلا المنافقين بكسبهم ، وأن الرين(٣) الذي غطى به قلوب الكفار هو عين كسبهم وأعمالهم كما قال ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾(٤) وقال عن

---

(١) سورة الزمر الآية ٧٥ .

(٢) سورة الزمر الآية ٧٢ .

(٣) الرين : من ران أي غطى وهنا ما يغطي القلب من الفساد .

(٤) سورة المطففين الآية ١٤ .

أعدائه من اليهود ﴿وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾[1] وأخبر أنه لا يضل من هداه حتى يبين له ما يتقى فيختار لشقوته وسوء طبيعته الضلال على الهدى والغي على الرشاد ، ويكون مع نفسه وشيطانه وعدو ربه عليه .

وأما المكر الذي وصف به نفسه فهو مجازاته للماكرين بأوليائه ورسله . فيقابل مكرهم السيء بمكره الحسن ، فيكون المكر منهم أقبح شيء ومنه أحسن شيء لأنه عدل ومجازاة ، وكذلك المخادعة منه جزاء على مخادعة رسله وأوليائه فلا أحسن من تلك المخادعة والمكر ، وأما كون الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب ، فإن هذا عمل أهل الجنة فيما يظهر للناس ، ولو كان عملا صالحا مقبولا للجنة قد أحبه الله ورضيه لم يبطله عليه . وقوله لم يبق بينه وبينها الا ذراع يشكل على هذا التأويل ، فيقال لما كان العمل بآخره وخاتمته لم يصبر هذا العامل على عمله حتى يتم له ، بل كان فيه آفة كامنة ونكتة خذل بها في آخر عمره . فخانته تلك الآفة والداهية الباطنة في وقت الحاجة ، فرجع الى موجبها وعملت عملها ، ولو لم يكن هناك غش وآفة لم يقلب الله إيمانه ، لقد أورده مع صدقه فيه واخلاصه بغير سبب منه يقتضي إفساده عليه ، والله يعلم من سرائر العباد ما لا يعلمه بعضهم من بعض .

وأما شأن إبليس فإن الله سبحانه قال للملائكة ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾[2] فالرب تعالى كان يعلم ما في قلب إبليس من الكفر والكبر والحسد ما لا يعلمه الملائكة ، فلما أمروا بالسجود ظهر ما في قلوبهم من الطاعة والمحبة والخشية والانقياد فبادروا الى الامتثال . وظهر ما في قلب عدوه من الكبر والغش والحسد فأبى واستكبر وكان من الكافرين .

وأما خوف أوليائه من مكره فحق ، فإنهم يخافون أن يخذلهم بذنوبهم وخطاياهم فيصيرون الى الشقاء ، فخوفهم من ذنوبهم ورجاؤهم لرحمته . وقوله

---

(١) سورة النساء الآية ١٥٥ . (٢) سورة البقرة الآية ٣٠ .

﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾[1] انما هو في حق الفجار والكفار ، ومعنى الآية فلا يعصي ويأمن مقابلة الله له على مكر السيئات بمكره به إلا القوم الخاسرون ، والذي يخافه العارفون بالله من مكره أن يؤخر عنهم عذاب الأفعال فيحصل منهم نوع اغترار فيأنسوا بالذنوب فيجيئهم العذاب على غرة وفترة .

وأمر آخر وهو أن يغفلوا عنه وينسوا ذكره فيتخلى عنهم اذا تخلوا عن ذكره وطاعته ، فيسرع اليهم البلاء والفتنة ، فيكون مكره بهم تخليه عنهم وأمر آخر أن يعلم من ذنوبهم وعيوبهم ما لا يعلمونه من نفوسهم فيأتيهم المكر من حيث لا يشعرون . وأمر آخر أن يمتحنهم ويبتليهم بما لا صبر لهم عليه فيفتنون به وذلك مكر .

التوحيد شجرة في القلب فروعها الاعمال

السنة شجرة والشهور فروعها والأيام أغصانها والساعات أوراقها والأنفاس ثمرها ، فمن كانت أنفاسه في طاعة فثمرة شجرته طيبة . ومن كانت في معصية فثمرته حنظل . وانما يكون الجداد (الحصاد) يوم المعاد فعند الجداد يتبين حلو الثمار من مرها .

والاخلاص والتوحيد شجرة في القلب فروعها الأعمال وثمرها طيب الحياة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة ، وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة فثمرة التوحيد والاخلاص في الدنيا كذلك ، والشرك والكذب والرياء شجرة في القلب ثمرها في الدنيا الخوف والهم والغم وضيق الصدر ، وظلمة القلب وثمرها في الآخرة الزقوم والعذاب المقيم ، وقد ذكر الله هاتين الشجرتين في سورة ابراهيم .

مراتب سعادة المرء

اذا بلغ العبد أعطى عهده الذي عهده اليه خالقه ومالكه فإذا أخذ عهده بقوة وقبول وعزم على تنفيذ ما فيه صلح للمراتب والمناصب التي يصلح لها الموفون

---

(١) سورة الاعراف الآية ٩٩.

بعهدوهم ، فإذا هز نفسه عند أخذ العهد وانتحاها وقال : قد أهلت لعهد ربي فمن أولى بقوله وفهمه وتنفيذه مني ، فحرص أولا على فهم عهده وتدبره وتعرفه وصايا سيده له ، ثم وطن نفسه على امتثال ما في عهده والعمل به وتنفيذه حسبما تضمنه عهده ، فأبصر بقلبه حقيقة العهد وما تضمنه ، فاستحدث همة أخرى وعزيمة غير العزيمة التي كان فيها وقت الصبا قبل وصول العهد ، فاستقال من ظلمة غرة الصبا والانقياد للعادة والمنشأ وصبر على شرف الهمة ، وهتك ستر الظلمة الى نور اليقين ، فأدرك بقدر صبره وصدق اجتهاده ما وهبه الله له من فضله .

فأول مراتب سعادته أن تكون له أذن واعية ، وقلب يعقل ما تعيه الأذن فإذا سمع وعقل واستبانت له الجادة ورأى عليها تلك الأعلام ، ورأى أكثر الناس منحرفين عنها يميناً وشمالاً ، فلزمها ولم ينحرف مع المنحرفين الذين كان سبب انحرافهم عدم قبول العهد أو قبلوه بكره ولم يأخذوه بقوة ولا عزيمة . ولا حدثوا أنفسهم بفهمه وتدبره ، والعمل بما فيه وتنفيذ وصاياه ، بل عرض عليهم العهد ومعهم صراوة الصبا ودين العادة وما ألفوا عليه الآباء والأمهات . فتلقوا العهد تلقي من هو مكتف بما وجد عليه آباءه وسلفه ، وعادتهم لا تكفي من يجمع همه وقلبه على فهم العهد والعمل به ، حتى كأن ذلك العهد أتاه وحده وقيل له : تأمل ما فيه ثم اعمل بموجبه ، فإذا لم يتلق عهده هذا التلقي أخلد الى سيرة القرابة وما استمرت عليه عادة أهله وأصحابه وجيرانه وأهل بلده ، فإن علت همته أخلد الى ما عليه سلفه ومن تقدمه من غير التفات إلى تدبر العهد وفهمه ، فرضي لنفسه أن يكون دينه دين العادة ، فإذا شامه الشيطان ورأى هذا مبلغ همته وعزيمته رماه بالعصبية والحمية للآباء وسلفه وزين له أن هذا هو الحق وما خالفه باطل ومثل له الهدى في صورة الضلال ، والضلال في صورة الهدى بتلك العصبية والحمية التي أسست على غير علم ، فرضاه أن يكون مع عشيرته وقومه ، له ما لهم وعليه ما عليهم . فخذل عن الهدى وولاه الله ما تولى فلو جاءه كل هدى يخالف قومه وعشيرته لم يره إلا ضلالة ، وإذا كانت همته أعلى من ذلك ، ونفسه أشرف ، وقدره أعلى ، أقبل على حفظ عهده وفهمه وتدبره ، وعلم أن لصاحب العهد شأنا

ليس كشأن غيره ، فأخذ نفسه بمعرفته من نفس العهد . فوجده قد تعرف اليه وعرفه نفسه وصفاته وأسماءه وأفعاله وأحكامه ، فعرف من ذلك العهد قيوماً بنفسه مقيما لغيره غنياً عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير اليه ، مستو على عرشه فوق جميع خلقه ، يرى ويسمع ويرضى ويغضب ويحب ويبغض ويدبر أمر مملكته وهو فوق عرشه متكلم آمر ناه ، يرسل رسله الى أقطار مملكته بكلامه الذي يسمعه من يشاء من خلقه ، وأنه قائم بالقسط مجاز بالإحسان والاساءة ، وأنه حليم غفور شكور جواد محسن ، موصوف بكل كمال منزه عن كل عيب ونقص وأنه لا مثل له . ويشهد حكمته في تدبير مملكته وكيف يقدر مقاديره بمشيئته غير مضادة لعدله وحكمته ، وتظاهر عنده العقل والشرع والفطرة فصدق كل منهما صاحبه ، وفهم عن الله سبحانه ما وصف به نفسه في كتابه من حقائق أسمائه التي بها نزل الكتاب وبها نطق ولها أثبت وحقق وبها تعرف الى عباده حتى أقرت به العقول وشهدت به الفطر .

فإذا عرف بقلبه وتيقن صفات صاحب العهد أشرقت أنوارها على قلبه فصارت له كالمعاينة ، فرأى حينئذ تعلقها بالخلق والأمر وارتباطها بها وسريان آثارها في العالم الحسي والعالم الروحي ، ورأى تصرفها في الخلائق كيف عمت وخصت وقربت وأبعدت وأعطت ومنعت . فشاهد بقلبه مواقع عدله سبحانه وقسطه وفضله ورحمته . واجتمع له الايمان بلزوم حجته مع نفوذ أقضيته وكمال قدرته مع كمال عدله وحكمته ، ونهاية علوه على جميع خلقه مع احاطته ومحبته وعظمته وجلاله وكبريائه وبطشه وانتقامه ، مع رحمته وبره ولطفه وجوده وعفوه وحلمه . ورأى لزوم الحجة مع قهر المقادير التي لا خروج لمخلوق عنها . وكيف اصطحاب الصفات وتوافقها وشهادة بعضها لبعض . وانعطاف الحكمة التي هي نهاية وغاية على المقادير التي هي أول وبداية ورجوع فروعها الى أصولها ومبادئها الى غاياتها . حتى كأنه مشاهد مبادىء الحكمة . وتأسيس القضايا على وفق الحكمة والعدل والمصلحة والرحمة والاحسان . لا تخرج قضية عن ذلك الى انقضاء الأكوان وانفصال الأحكام يوم الفصل بين العباد وظهور عدله وحكمته ، وصدق

رسهل وما أخبرت به عنه لجميع الخليقة إنسها وجنها مؤ منها وكافرها .

وحينئذ يتبين من صفات جلاله ونعوت كماله للخلق ما لم يكونوا يعرفـونه قبل ذلك ، حتى ان أعرف خلقه به في الدنيا يثنى عليه يومئذ من صفـات كمالـه ونعوت جلاله ما لم يكن يحسنه في الدنيا ، وكما يظهر ذلك لخلقه تظهر لهم الأسباب التي بها زاغ الزائغون وضل الضالون وانقطع المنقطعون ، فيكون الفرق بين العلم يومئذ بحقائق الأسماء والصفات ، والعلم بها في الدنيا ، كالفرق بين العلم بالجنة والنار ومشاهدتها . وأعظم من ذلك .

وكـذلك يفهم من العهـد كيف اقتضت أسماؤ ه وصفـاتـه لـوجـود النبـوة والشرائع وأن لا يترك خلقه سدى وكيف اقتضت وقوع الثواب والعقاب والمعاد وأن ذلك من موجبات أسمائه وصفاته بحيث ينزه عما زعم أعداؤ ه من إنكار ذلك ويرى شمول القدرة وإحاطتها بجميع الكائنات حتى لا يشذ عنها مثقال ذرة ، ويرى أنـه لو كـان معه إلـه آخر لفسـد هذا العـالم ، فكانت تفسـد السموات والأرض ومن فيهن ، وأنه سبحانه لو جاز عليه النوم أو الموت لتدكدك هذا العالم بأسره ولم يثبت طرفة عين . ويرى مـع ذلك الاسـلام والايمان اللذين تعبـد الله بهما جميـع عباده كيف انبعـاثهما من الصفـات المقدسـة . وكيف اقتضيا الثواب والعقاب عاجلا وآجلا ، ويرى مع ذلك أنـه لا يستقيم قبول هـذا العهد والتزامه لمن جحد صفاته ، وأنكر علوه على خلقه وتكلمه بكتبه وعهوده ، كما لا يستقيم قبوله لمن أنكر حقيقة سمعه وبصره وحياته وإرادته وقدرته ، وأن هؤلاء هم الذين ردوا عهده وأبوا قبوله ، وأن من قبله منهم لم يقبله بجميع ما فيه وبالله التوفيق .

خلق بدن آدم من الأرض وروحه من ملكوت السماء

خلق بدن ابن آدم من الأرض وروحه من ملكوت السماء وقرن بينهما . فاذا أجاع بدنه وأسهره وأقامه في الخدمة وجدت روحه خفة وراحة فتاقت الى الموضع الذي خلقت منه . واشتاقت إلى عالمها العلوي ، وإذا أشبعه ونعمه ونومه واشتغل بخدمته وراحته أخلد البدن الى الموضع الذي خلق منه . فانجذبت الـروح معه

فصارت في السجن ، فلو لا أنها ألفت السجن لاستغاثت من ألم مفارقتها وانقطاعها عن عالمها الذي خلقت منه كما يستغيث المعذب .

بالجملة فكلما خف البدن لطفت الروح وخفت وطلبت عالمها العلوي . وكلما ثقل وأخلد الى الشهوات والراحة ثقلت الروح وهبطت من عالمها وصارت أرضية سفلية ، فترى الرجل روحه في الرفيق الأعلى وبدنه عندك ، فيكون نائماً على فراشه وروحه عند سدرة المنتهى تجول حول العرش . وآخر واقف في الخدمة ببدنه . وروحه في السفل تجول حول السفليات . فإذا فارقت الروح البدن التحقت برفيقها الأعلى أو الأدنى ، فعند الرفيق الأعلى كل قرة عين وكل نعيم وسرور وبهجة ولذة وحياة طيبة ، وعند الرفيق الأسفل كل هم وغم وضيق وحزن وحياة نكدة ومعيشة ضنك . قال تعالى ﴿ **ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا** ﴾[1].

فذكره كلامه الذي أنزله على رسوله ، والاعراض عنه ترك تدبره والعمل به . والمعيشة الضنك فأكثر ما جاء في التفسير أنها عذاب القبر . قاله ابن مسعود وأبو هريرة وأبو سعيد الخدري وابن عباس . وفيه حديث مرفوع .

وأصل الضنك في اللغة الضيق والشدة وكل ما ضاق فهو ضنك . يقال منزل ضنك وعيش ضنك . فهذه المعيشة الضنك في مقابلة التوسيع على النفس والبدن بالشهوات واللذات والراحة ، فإن النفس كلما وسعت عليها ضيقت على القلب حتى تصير معيشة ضنكا ، وكلما ضيقت عليها وسعت على القلب حتى ينشرح وينفسح ، فضنك المعيشة في الدنيا بموجب التقوى سعتها في البرزخ والآخرة وسعة المعيشة في الدنيا بحكم الهوى ضنكها في البرزخ والآخرة . فآثر أحسن المعيشتين وأطيبهما وأدومهما ، واشق البدن بنعيم الروح ، ولا تشق الروح بنعيم البدن ، فإن نعيم الروح وشقاءها أعظم وأدوم ، ونعيم البدن وشقاؤه أقصر وأهون . والله المستعان .

---

(١) سورة طه الآية ١٢٤ .

العارف لا يأمر الناس بترك الدنيا فإنهم لا يقدرون على تركها ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع إقامتهم على دنياهم ، فترك الدنيا فضيلة وترك الذنوب فريضة فكيف يؤمر بالفضيلة من لم يقم الفريضة ، فإن صعب عليهم ترك الذنوب فاجتهد أن تحبب الله اليهم بذكر آلائه وانعامه واحسانه ، وصفات كماله ونعوت جلاله ، فإن القلوب مفطورة على محبته ، فاذا تعلقت بحبه هان عليها ترك الذنوب والاستقلال منها والاصرار عليها ، وقد قال يحيى بن معاذ : طلب العاقل للدنيا خير من ترك الجاهل لها .

العارف يدعو الناس الى الله من دنياهم فتسهل عليهم الاجابة ، والزاهد يدعوهم الى الله بترك الدنيا فتشق عليهم الاجابة ، فإن الفطام عن الثدي الذي ما عقل الانسان نفسه الا وهو يرتضع منه شديد ، ولكن تخير من المرضعات أزكاهن وأفضلهن ، فإن للبن تأثيراً في طبيعة المرتضع ، ورضاع المرأة الحمقى يعود بحمق الولد ، وأنفع الرضاعة ما كان من المجاعة ، فإن قويت على مرارة الفطام والا فارتضع بقدر فان من البشم ما يقتل .

حكمة وموعظة

بين رعاية الحقوق مع الضر . ورعايتها مع العافية بون بعيد .

إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾[1] ليس للعجب من صحيح فارغ واقف مع الخدمة انما العجب من ضعيف سقيم تعتوره الاشغال وتختلف عليه الاحوال وقلبه واقف في الخدمة غير متخلف بما يقدر عليه .

معرفة الله تعالى

معرفة الله سبحانه نوعان :

معرفة إقرار ، وهي التي اشترك فيها الناس : البر والفاجر والمطيع والعاصي .

---

(١) سورة الانفال الآية ٤٥ .

والثاني معرفة توجب الحياء منه والمحبة له وتعلق القلب به والشوق الى لقائه وخشيته والانابة إليه ، والأنس به والفرار من الخلق اليه . وهذه هي المعرفة الخاصة الجارية على لسان القوم وتفاوتهم فيها لا يحصيه إلا الذي عرفهم بنفسه وكشف لقلوبهم من معرفته ما أخفاه عن سواهم ، وكل أشار إلى هذه المعرفة بحسب مقامه وما كشف له منها . وقد قال أعرف الخلق به « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » وأخبر أنه سبحانه يفتح عليه يوم القيامة من محامده بما لا يحسنه الآن .

ولهذه المعرفة بابان واسعان : باب التفكر والتأمل في آيات القرآن كلها والفهم الخاص عن الله ورسوله ، والباب الثاني التفكر في آياته المشهودة وتأمل حكمته فيها وقدرته ولطفه وإحسانه وعدله وقيامه بالقسط على خلقه . وجماع ذلك الفقه في معاني أسمائه الحسنى وجلالها وكمالها وتفرده بذلك وتعلقها بالخلق والأمر ، فيكون فقيهاً في أوامره ونواهيه ، فقيهاً في قضائه وقدره . فقيهاً في أسمائه وصفاته فقيهاً في الحكم الديني الشرعي والحكم الكوني القدري و﴿ **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾[1] .

انواع الكسب

الدراهم أربعة : دراهم اكتسب بطاعة الله وأخرج في حق الله ، فذاك خير الدراهم . ودرهم اكتسب بمعصية الله وأخرج في معصية الله فذاك شر الدراهم ودرهم اكتسب بأذى مسلم وأخرج في أذى مسلم فهو كذلك . ودرهم اكتسب بمباح وأنفق في شهوة مباحة ، فذاك لا له ولا عليه .

هذه أصول الدراهم ويتفرع عليها دراهم أخر : منها درهم اكتسب بحق وأنفق في باطل ، ودرهم اكتسب بباطل وأنفق في حق ، فإنفاقه كفارته . ودرهم اكتسب من شبهة فكفارته أن ينفق في طاعة الله ، وكما يتعلق الثواب والعقاب والمدح والذم بإخراج الدرهم فكذلك يتعلق باكتسابه . وكذلك يسأل عن

(١) سورة الحديد الآية ٢١ .

مستخرجه ومصروفه من أين اكتسبه وفيها أنفقه .

مواساة المؤمنين

المواساة للمؤمنين أنواع : مواساة بالمال . ومواساة بالجاه . ومواساة بالبدن والخدمة . ومواساة بالنصيحة والارشاد ومواساة بالدعاء والاستغفار لهم ومواساة بالتوجع لهم . وعلى قدر الايمان تكون هذه المواساة . فكلما ضعف الايمان ضعفت المواساة ، وكلما قوى قويت . وكان رسول الله ﷺ أعظم الناس مواساة لأصحابه بذلك كله فلأتباعه من المواساة بحسب اتباعهم له .

ودخلوا على بشر الحافي في يوم شديد البرد وقد تجرد وهو ينتفض فقالوا: ما هذا يا أبا نصر؟ فقال: ذكرت الفقراء وبردهم وليس لي ما أواسيهم به فأحببت أن أواسيهم في بردهم .

الجهل بالطريق ووعورتها يورث التعب

الجهل بالطريق وآفاتها والمقصود يوجب التعب الكثير مع الفائدة القليلة فإن صاحبه إما أن يجتهد في نافلة مع اضاعة الفرض أو في عمل بالجوارح لم يواطئه عمل القلب ، أو عمل بالباطن والظاهر لم يتقيد بالاقتداء ، أو همة الى عمل لم ترق بصاحبها الى ملاحظة المقصود أو عمل لم يحترز من آفاته المفسدة له حال العمل وبعده أو عمل غفل فيه عن مشاهدة المنة فلم يتجرد من مشاركة النفس فيه ، أو عمل لم يشهد تقصيره فيه فيقوم بعده في مقام الاعتذار منه . أو عمل لم يوفه حقه من النصح والاحسان وهو يظن أنه وفاه ، فهذا كله مما ينقص الثمرة مع كثرة التعب والله الموفق .

الرحلة الى الله تعالى وما يكتنفها من عوائق

إذا عزم العبد على السفر الى الله تعالى وارادته عرضت له الخوادع والقواطع ، فينخدع أولاً بالشهوات والرياسات والملاذ والمناكح والملابس . فإن وقف معها انقطع ، وان رفضها ولم يقف معها وصدق في طلبه ابتلي بوطء عقبه ، وتقبيل يده والتوسعة له في المجلس ، والإشارة اليه بالدعاء ، ورجاء بركته ونحو

ذلك ، فإن وقف معه انقطع به عن الله وكان حظه منه ، وإن قطعه ولم يقف معه ابتلي بالكرامات والكشوفات ، فإن وقف معها انقطع بها عن الله وكانت حظه ، وإن لم يقف معها ابتلي بالتجريد والتخلي ولذة الجمعية وعزة الوحدة والفراغ من الدنيا ، فإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود . وإن لم يقف معه وسار ناظراً إلى مراد الله منه . وما يحبه منه بحيث يكون عبده الموقوف على محابه ومراضيه أين كانت وكيف كانت ، تعب بها أو استراح . تنعم أو تألم ، أخرجته الى الناس أو عزلته عنهم ، لا يختار لنفسه غير ما يختاره له وليه وسيده ، واقف مع أمره ينفذه بحسب الامكان ، ونفسه عنده أهون عليه أن قدم راحتها ولذتها على مرضاة سيده وأمره . فهذا هو العبد الذي قد وصل ونفذ ولم يقطعه عن سيده شيء البتة . وبالله التوفيق .

نعم الله تعالى وانواعها

النعم ثلاثة : نعمة حاصلة يعلم بها العبد ، ونعمة منتظرة يرجوها ونعمة هو فيها لا يشعر بها ، فإذا أراد الله اتمام نعمته على عبده عرفه نعمته الحاضرة وأعطاه من شكره قيداً يقيدها به حتى لا تشرد ، فإنها تشرد بالمعصية ، وتقيد بالشكر ، ووفقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة ، وبصره بالطرق التي تسدها وتقطع طريقها ، ووفقه لاجتنابها ، وإذا بها قد وافت اليه على أتم الوجوه . وعرفه النعمة التي هو فيها ولا يشعر بها .

ويحكى أن أعرابياً دخل على الرشيد ، فقال أمير المؤمنين ثبت الله عليك النعم التي أنت فيها بإدامة شكرها ، وحقق لك النعم التي ترجوها بحسن الظن به ودوام طاعته ، وعرفك النعم التي أنت فيها ولا تعرفها لتشكرها ، فأعجبه ذلك منه وقال : ما أحسن تقسيمه .

قاعدة جليلة

مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار ، فإنها توجب التصورات ، والتصورات تدعو الى الارادات ، والارادات تقتضي وقوع الفعل وكثرة تكراره تعطي العادة ، فصلاح الخواطر بأن تكون مراقبة لوليها وإلهها

صاعدة اليه دائرة على مرضاته ومحابه ، فإنه سبحانه به كل صلاح . ومن عنده كل هدى. ومن توفيقه كل رشد ، ومن توليه لعبده كل حفظ . ومن توليه واعراضه عنه كل ضلال وشقاء . فيظفر العبد بكل خير وهدى بقدر إثبات عين فكرته في آلائه ونعمه وتوحيده وطرق معرفته وطرق عبوديته وإنزاله إياه حاضراً معه مشاهداً له ناظراً اليه رقيباً عليه ، مطلعاً على خواطره وإرادته وهمته ، فحينئذ يستحيي منه ويجله أن يطلعه منه على عورة يكره أن يطلع عليها مخلوق مثله ، أو يرى في نفسه خاطراً يمقته عليه .

فمتى أنزله ربه هذه المنزلة منه ورفعه وقربه منه ، وأكرمه واجتباه ووالاه وبقدر ذلك يبعد عنه الأوساخ والدناءات ، والخواطر الرديئة والأفكار الدنيئة ، كما أنه كلما بعد منه وأعرض عنه قرب من الأوساخ والدناءات والأقذار ، ويقطع عن جميع الكمالات ويتصل بجميع النقائص ، فالانسان خير المخلوقات اذا تقرب من بارئه والتزم أوامره ونواهيه وعمل بمرضاته وآثره على هواه . وشر المخلوقات إذا تباعد عنه ولم يتحرك قلبه لقربه وطاعته وابتغاء مرضاته . فمتى اختار التقرب اليه وآثره على نفسه وهواه فقد حكم قلبه وعقله وايمانه على نفسه وشيطانه ، وحكم رشده على غيه وهداه على هواه ، ومتى اختار التباعد منه فقد حكم نفسه وهواه وشيطانه على عقله وقلبه ورشده .

واعلم أن الخطرات والوساوس تؤدي متعلقاتها الى الفكر فيأخذها الفكر فيؤديها الى التذكر . فيأخذها الذكر فيؤديها الى الارادة ، فتأخذها الارادة فتؤديها الى الجوارح والعمل ، فتستحكم فتصير عادة فردها من مبادئها أسهل من قطعها بعد قوتها وتمامها . ومعلوم أنه لم يعط الانسان اماتة الخواطر ولا القوة على قطعها فانها تهجم عليه هجوم النفس ، الا أن قوة الايمان والعقل تعينه على قبول أحسنها ورضاه به ومساكنته له . وعلى رفع أقبحها وكراهته له ونفرته منه كما قال الصحابة : « يا رسول الله ان أحدنا يجد في نفسه ما لئن يحترق حتى يصير حممة[1] أحب اليه

---

(١) الحممة : الفحمة وجمعها حمم .

أن يتكلم به، فقال: أو قد وجدتموه؟ قالوا: نعم قال: ذاك صريح الايمان » وفي لفظ « الحمد لله الذي رد كيده الى الوسوسة » وفيه قولان : أحدهما أن رده وكراهته صريح الايمان . والثاني أن وجوده والقاء الشيطان له في النفس صريح الايمان . فإنه انما ألقاه في النفس طلبا لمعارضة الايمان وإزالته به ، وقد خلق الله النفس شبيهة بالرحى الدائرة التي لا تسكن ولا بد لها من شيء تطحنه، فإن وضع فيها حب طحنته . وان وضع فيها تراب أو حصى طحنته .

فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحب الذي يوضع في الرحى، ولا تبقى تلك الرحى معطلة قط، بل لا بد لها من شيء يوضع فيها فمن الناس من تطحن رحاه حباً يخرج دقيقاً ينفع به نفسه وغيره وأكثرهم يطحن رملا وحصى وتبناً ونحو ذلك، فإذا جاء وقت العجن والخبز تبين له حقيقة طحينه.

فإذا دفعت الخاطر الوارد عليك اندفع عنك ما بعده ، وإن قبلته صار فكراً جوالاً فاستخدم الارادة فتساعدت هي والفكر على استخدام الجوارح فإن تعذر استخدامها رجعا الى القلب بالمنى والشهوة، وتوجهه الى جهة المراد . ومن المعلوم أن اصلاح الخواطر أسهل من اصلاح الأفكار واصلاح الأفكار أسهل من إصلاح الارادات ، واصلاح الارادات أسهل من تدارك فساد العمل وتداركه أسهل من قطع العوائد ، فأنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعنيك دون ما لا يعنيك ، فالفكر فيما لا يعني باب كل شر . ومن فكر فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه واشتغل عن أنفع الأشياء له بما لا منفعة له فيه ، فالفكر والخواطر والارادة والهمة أحق شيء باصلاحه من نفسك ، فإن هذه خاصتك وحقيقتك التي تبتعد بها أو تقرب من الهك ومعبودك الذي لا سعادة لك الا في قربه ورضاه عنك ، وكل الشقاء في بعدك عنه وسخطه عليك . ومن كان في خواطره ومجالات فكره دنيئاً خسيساً لم يكن في سائر أمره الا كذلك .

وإياك أن تمكن الشيطان من بيت أفكارك وارادتك فإنه يفسدها عليك فساداً يصعب تداركه . ويلقي اليك أنواع الوساوس والأفكار المضرة . ويحول بينك

وبين الفكر فيما ينفعك ، وأنت الذي أعنته على نفسك بتمكينه من قلبك وخواطرك فملكها عليك فمثالك معه مثال صاحب رحى يطحن فيها جيد الحبوب فأتاه شخص معه حمل تراب وبعر وفحم وغثاء ليطحنه في طاحونته ، فإن طرده ولم يمكنه من إلقاء ما معه في الطاحون استمر على طحن ما ينفعه ، وإن مكنه في القاء ذلك في الطاحون أفسد ما فيها من الحب وخرج الطحين كله فاسداً . والذي يلقيه الشيطان في النفس لا يخرج عن الفكر فيما كان ودخل في الوجود لو كان على خلاف ذلك وفيما لم يكن لو كان كيف كان يكون . أو فيما يملك الفكر فيه من أنواع الفواحش والحرام . أو في خيالات وهمية لا حقيقة لها . واما في باطن أو فيما لا سبيل الى ادراكه من أنواع ما طوي عنه علمه فيلقيه في تلك الخواطر التي لا يبلغ منها غاية ولا يقف منها على نهاية . فيجعل ذلك مجال فكره ومسرح وهمه .

وجماع اصلاح ذلك أن تشغل فكرك في باب العلوم والتصورات بمعرفة ما يلزمك من التوحيد وحقوقه وفي الموت وما بعده الى دخول الجنة والنار . وفي آفات الأعمال وطرق التحرز منها . وفي باب الارادات والعزوم أن تشغل نفسك بإرادة ما ينفعك ارادته وطرح ارادة ما يضرك ارادته وعند العارفين أن تمني الخيانة واشغال الفكر والقلب بها أضر على القلب من نفس الخيانة . ولا سيما اذا فرغ قلبه منها بعد مباشرتها ، فإن تمنيها يشغل القلب بها ويملؤه منها ويجعلها همه ومراده .

وأنت تجد في الشاهد أن الملك من البشر اذا كان في بعض حاشيته وخدمه من هو متمن لخيانته مشغول القلب والفكر بها ممتلىء منها ، وهو مع ذلك في خدمته وقضاء أشغاله ، فإذا اطلع على سره وقصده مقته غاية المقت وأبغضه وقابله بما يستحقه ، وكان أبغض اليه من رجل بعيد عنه جنى بعض الجنايات . وقلبه وسره مع الملك ، غير منطو على تمني الخيانة ومحبتها والحرص عليها . فالأول يتركها عجزاً واشتغالاً بما هو فيه ، وقلبه ممتلىء بها . والثاني يفعلها وقلبه كاره لها ليس فيه اضمار الخيانة ولا الاصرار عليها . فهذا أحسن حالا وأسلم عاقبة من الأول .

وبالجملة فالقلب لا يخلو قط من الفكر اما في واجب آخرته ومصالحها واما

في مصالح دنياه ومعاشه واما في الوساوس والاماني الباطلة والمقدرات المفروضة ، وقد تقدم أن النفس مثلها كمثل رحى تدور بما يلقى فيها، فإن ألقيت فيها حباً دارت به . وان ألقيت فيها زجاجا وحصى وبعراً دارت به . والله سبحانه هو قيم تلك الرحى ومالكها ومصرفها وقد أقام لها ملكاً يلقي فيها ما ينفعها فتدور به وشيطاناً يلقي فيها ما يضرها فتدور به ، فالملك يلم بها مرة . والشيطان يلم بها مرة . فالحب الذي يلقيه الملك ايعاد بالخير وتصديق بالوعد . والحب الذي يلقيه الشيطان ايعاد بالشر وتكذيب بالوعد . والطحين على قدر الحب ، وصاحب الحب المضر لا يتمكن من القائه الا اذا وجد الرحى فارغة من الحب النافع ، وقيّمها قد أهملها وأعرض عنها ، فحينئذ يبادر الى القاء ما معه فيها .

وبالجملة فقيم الرحى اذا تخلى عنها وعن اصلاحها والقاء الحب النافع فيها وجد العدو السبيل الى افسادها وادارتها بما معه وأصل صلاح هذه الرحى بالاشتغال بما يعنيك . وفسادها كله في الاشتغال بما لا يعنيك . وما أحسن ما قال بعض العقلاء : لما وجدت أنواع الذخائر منصوبة غرضا للمتالف . ورأيت الزوال حاكما عليها مدركا لها انصرفت عن جميعها الى ما لا ينازع فيه ذو الحجى أنه أنفع الذخائر وأفضل المكاسب وأربح المتاجر . والله المستعان .

* * *

قال شقيق بن ابراهيم (١) : أغلق باب التوفيق عن الخلق من ستة أشياء : اشتغالهم بالنعمة عن شكرها . ورغبتهم في العلم وتركهم العمل والمسارعة الى الذنب وتأخير التوبة ، والاغترار بصحبة الصالحين وترك الاقتداء بفعالهم . وادبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها واقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها .

---

(١) هو شقيق بن ابراهيم بن علي الأزدي، البلخي، ـ أبو علي ـ زاهد صوفي، من مشاهير المشايخ في خراسان، ولعله أول من تكلم في علوم الأحوال «الصوفية» بكور خراسان. وكان من كبار المجاهدين. استشهد في غزة كولان (بما وراء النهر) سنة (١٩٤ هـ ـ ٨١٠ م).
انظر: طبقات الصوفية [٦١ : ٦٦]
فوات الوفيات [١ : ١٨٧].

قلت : وأصل ذلك عدم الرغبة والرهبة ، وأصله ضعف اليقين وأصله ضعف البصيرة وأصله مهانة النفس ودناءتها واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير . والا فلو كانت النفس شريفة كبيرة لم ترض بالدون ، فأصل الخير كله بتوفيق الله ومشيئته وشرف النفس ونبلها وكبرها . وأصل الشر خستها ودناءتها وصغرها . قال تعالى ﴿ **قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** ﴾[1] أي أفلح من كبرها وكثرها ونماها بطاعة الله وخاب من صغرها وحقرها بمعاصي الله ، فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها كما يقع الذباب على الاقذار فالنفس الشريفة العلية لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش ولا بالسرقة والخيانة . لأنها أكبر من ذلك وأجل ، والنفس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضد من ذلك فكل نفس تميل الى ما يناسبها ويشاكلها . وهذا معنى قوله تعالى ﴿ **قل كل يعمل على شاكلته** ﴾[2] أي على ما يشاكله ويناسبه ، فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته ، وكل انسان يجري على طريقته ومذهبه وعادته التي ألفها وجبل عليها ، فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي . والاعراض عن النعم . والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر المنعم ومحبته والثناء عليه والتودد اليه والحياء منه والمراقبة له وتعظيمه واجلاله .

من لم يعرف نفسه لا يعرف خالقه

من لم يعرف نفسه كيف يعرف خالقه ، فاعلم أن الله تعالى خلق في صدرك بيتاً وهو القلب ، ووضع في صدره عرشا لمعرفته يستوي عليه المثل الأعلى فهو مستو على عرشه بذاته بائن من خلقه . والمثل الأعلى من معرفته ومحبته وتوحيده مستو على سرير القلب وعلى السرير بساط من الرضا ، ووضع عن يمينه وشماله مرافق شرائعه وأوامره . وفتح اليه بابا من جنة رحمته والأنس به والشوق الى

---

(١) سورة الشمس الآية (٩ ـ ١٠). (٢) سورة الاسراء الآية ٨٤.

لقائه . وأمطره من وابل كلامه ما أنبت فيه أصناف الرياحين والأشجار المثمرة من أنـواع الطاعـات . والتهليل والتسبيـح والتحميد والتقـديس . وجعـل في وسط البستـان شجرة معـرفة فهي تؤ تي أكلهـا كل حـين بإذن ربهـا من المحبة والانـابة والخشية والفرح به والابتهاج بقربه وأجرى الى تلك الشجرة ما يسقيها من تـدبر كلامه وفهمه والعمل بوصاياه وعلق في ذلك البيت قنديلا أسرجه بضياء معرفتـه والايمان به وتوحيده فهو يستمد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار . ثم أحاط عليه حـائطا يمنعـه من دخول الآفـات والمفسدين . ومن يؤذي البستان فلا يلحقه أذاهم . وأقام عليه حرسا من الملائكة يحفظونه في يقظته ومنامه . ثم أعلم صاحب البيت والبستان بالساكن فيه فهو دائما همه إصلاح السكن ولم شعثه ليرضاه الساكن منـزلا . وإذا أحس بأدنى شعث في السكن بـادر الى إصلاحـه وله خشيـة انتقال السـاكن منه ، فنعم السـاكن ونعم المسكن .

فسبحان الله رب العالمـين كم بين هـذا البيت وبيت استولى عليـه الخراب وصار مأوى للحشرات والهوام ، ومحلا لابقاء الانتـان والقاذورات فيـه فمن أراد التخلي وقضاء الحاجة وجد خربة لا ساكن فيها ولا حافظ لها. وهي معدة لقضاء الحاجة مظلمة الارجاء منتنة الرائحة ، قد عمها الخراب وملأتهـا القاذورات فـلا يأنس بها ولا ينزل فيها الا من يناسبه سكناها من الحشـرات والديـدان والهوام ، الشيطان جالس على سريرها . وعلى السرير بساط من الجهل وتخفق فيه الأهـواء وعن يمينـه وشمالـه مرافق الشهـوات ، وقد فتـح اليه بـاب من حقـل الخـذلان والوحشة والركون الى الدنيا والطمأنينة بها ، والزهد في الآخـرة وأمطر من وابـل الجهل والهوى ، والشرك والبدع ما أنبت فيه أصناف الشوك والحنـظل والاشجار المثمرة بأنواع المعاصي والمخـالفات من الـزوائد والتنـديبات والنـوادر والهزليـات والمضحكات ، والاشعار الغزليات والخمريات التي تهيج على ارتكاب المحرمـات وتزهد في الطاعات ، وجعل في وسط الحقل شجرة الجهل به والاعراض عنه فهي تؤ تي أكلها كل حين من الفسوق والمعاصي واللهو واللعب والمجون . والذهـاب

مع كل ريح واتباع كل شهوة .

ومن ثمرها الهموم والغموم والاحزان والآلام ، ولكنها متوارية باشتغال النفس بلهوها ولعبها فإذا أفاقت من سكرها أحضرت كل هم وغم وحزن وقلق ومعيشة ضنك وأجرى الى تلك الشجرة ما يسقيها من اتباع الهوى وطول الأمل والغرور ، ثم ترك ذلك البيت وظلمائه وخراب حيطانه بحيث لا يمنع منه مفسد ولا حيوان مؤذ ولا قذر ، فسبحان خالق هذا البيت وذلك البيت ، فمن عرف بيته وقدر الساكن فيه وقدر ما فيه من الكنوز والذخائر والآلات انتفع بحياته ونفسه ومن جهل ذلك جهل نفسه وأضاع سعادته . وبالله التوفيق .

سئل سهل التستري : الرجل يأكل في اليوم أكلة ، قال: أكل الصديقين ، قيل له : فأكلتين. قال:أكل المؤمنين . قيل له:فثلاث أكلات. فقال: قل لأهله يبنوا له معلفاً .

قال الاسود بن سالم: ركعتين أصليهما لله أحب إلي من الجنة بما فيها . فقيل له: هذا خطأ، فقال: دعونا من كلامكم : الجنة رضى نفسي والركعتان رضى ربي ورضى ربي أحب اليّ من رضى نفسي .

العارف في الأرض ريحانة من رياحين الجنة اذا شمها المريد اشتاقت نفسه الى الجنة .

قلب المحب موضوع بين جلال محبوبه وجماله ، فإذا لاحظ جلاله هابه وعظمه ، واذا لاحظ جماله أحبه واشتاق اليه .

معرفة الله تعالىٰ

من الناس من يعرف الله بالجرد والافضال والاحسان ، ومنهم من يعرفه بالعفو والحلم والتجاوز ، ومنهم من يعرفه بالبطش والانتقام ، ومنهم من يعرفه بالعلم والحكمة . ومنهم من يعرفه بالعزة والكبرياء ، ومنهم من يعرفه بالرحمة والبر واللطف ، ومنهم من يعرفه بالقهر والملك ، ومنهم من يعرفه بإجابة دعوته وإغاثة لهفته وقضاء حاجته .

وأعظم هؤلاء معرفة من عرفه من كلامه فإنه يعرف رباً قد اجتمعت له صفات الكمال ونعوت الجلال ، منزه عن المثال ، بريء من النقائص والعيوب له كل اسم حسن وكل وصف كمال . فعال لما يريد . فوق كل شيء ومع كل شيء . وقادر على كل شيء ومقيم لكل شيء . آمر ناه . متكلم بكلماته الدينية والكونية . أكبر من كل شيء وأجمل من كل شيء . أرحم الراحمين وأقدر القادرين وأحكم الحاكمين ، فالقرآن أنزل لتعريف عباده به وبصراطه الموصل اليه وبحال السالكين بعد الوصول اليه .

في ظلال الآية الكريمة
﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾

من الآفات الخفية العامة أن يكون العبد في نعمة أنعم الله بها عليه واختارها له فيملها ويطلب الانتقال منها إلى ما يزعم لجهله أنه خير له منها . وربه برحمته لا يخرجه من تلك النعمة ويعذره بجهله وسوء اختياره لنفسه ، حتى إذا ضاق ذرعا بتلك النعمة وسخطها وتبرم بها واستحكم ملكه لها ، سلبه الله إياها ، فإذا انتقل إلى ما طلبه ورأى التفاوت بين ما كان فيه وما صار اليه اشتد قلقه وندمه وطلب العودة إلى ما كان فيه ، فإذا أراد الله بعبده خيراً ورشداً أشهده أن ما هو فيه نعمة من نعمه عليه ورضاه به وأوزعه شكره عليه ، فإذا حدثته نفسه بالانتقال عنه استخار ربه استخارة جاهل بمصلحته، عاجز عنها ، مفوض الى الله طالب منه حسن اختياره له . وليس على العبد أضر من ملله لنعم الله ، فإنه لا يراها نعمة ولا يشكره عليها ولا يفرح بها بل يسخطها ويشكوها ويعدها مصيبة . هذا وهي من أعظم نعم الله عليه ، فأكثر الناس أعداء نعم الله عليهم ولا يشعرون بفتح الله عليهم نعمه وهم مجتهدون في دفعها وردها جهلاً وظلماً .

فكم سعت إلى أحدهم من نعمة وهو ساع في ردها بجهده ، وكم وصلت اليه وهو ساع في دفعها وزوالها بظلمه وجهله . قال تعالى ﴿ ذلك بأن الله لم يك

مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[1] وقال تعالى ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾**[2] فليس للنعم أعدى من نفس العبد ، فهو مع عدوه ظهير على نفسه ، فعدوه يطرح النار في نعمه وهو ينفخ فيها فهو الذي مكنه من طرح النار ثم أعانه بالنفخ ، فاذا اشتد ضرامها استغاث من الحريق وكان غايته معاتبة الأقدار .

وعاجز الرأي مضياع لفرصته   حتى اذا فات أمر عاتب القدرا

معرفة الله سبحانه وتعالىٰ بالجمال

من أعز أنواع المعرفة معرفة الرب سبحانه بالجمال ، وهي معرفة خواص الخلق ، وكلهم عرفه بصفة من صفاته ، وأتمهم معرفة من عرفه بكماله وجلاله وجماله سبحانه ، ليس كمثله شيء في سائر صفاته ، ولو فرضت الخلق كلهم على أجملهم صورة وكلهم على تلك الصورة ، ونسبت جمالهم الظاهر والباطن الى جمال الرب سبحانه لكان أقل من نسبة سراج ضعيف الى قرص الشمس . ويكفي في جماله أنه لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته[3] ما انتهى اليه بصره من خلقه . ويكفي في جماله أن كل جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة فمن آثار صنعته فما الظن بمن صدر عنه هذا الجمال .

ويكفي في جماله أنه له العزة جميعا والقوة جميعا والجود كله والاحسان كله والعلم كله والفضل كله . ولنور وجهه أشرقت الظلمات كما قال النبي ﷺ في دعاء الطائف « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة » وقال عبد الله بن مسعود : ليس عند ربكم ليل ولا نهار نور السموات والأرض من نور وجهه ، فهو سبحانه نور السموات والأرض ويوم القيامة اذا جاء لفصل القضاء تشرق الأرض بنوره ، ومن أسمائه الحسنى (الجميل) وفي الصحيح عنه ﷺ « ان الله جميل يحب الجمال »[4] .

---

(١) سورة الانفال الآية ٥٣ .
(٢) سورة الرعد الآية ١١ .
(٣) سبحات وجهة : انواره .
(٤) رواه مسلم .

وجماله سبحانه من أربع مراتب : جمال الذات ، وجمال الصفات ، وجمال الأفعال ، وجمال الأسماء . فأسماؤه كلها حسنى وصفاته كلها صفات كمال وأفعاله كلها حكمة ومصلحة وعدل ورحمة . وأما جمال الذات وما هو عليه فالأمر لا يدركه سواه . ولا يعلمه غيره . وليس عند المخلوقين منه إلا تعريفات تعرف بها الى من أكرمه من عباده ، فإن ذلك الجمال مصون عن الاغيار محجوب بستر الرداء والازار ، كما قال رسوله ﷺ فيما يحكى عنه « الكبرياء ردائي والعظمة إزاري » ولما كانت الكبرياء أعظم وأوسع كانت أحق باسم الرداء ، فإنه سبحانه الكبير المتعال ، فهو سبحانه العلي العظيم . قال ابن عباس : حجب الذات بالصفات وحجب الصفات بالأفعال ، فما ظنك بجمال حجب بأوصاف الكمال . وستر بنعوت العظمة والجلال .

ومن هذا المعنى يفهم بعض معاني جمال ذاته ، فإن العبد يترقى من معرفة الافعال الى معرفة الصفات ومن معرفة الصفات الى معرفة الذات ، فإذا شاهد شيئاً من جمال الأفعال استدل به على جمال الصفات ، ثم استدل بجمال الصفات على جمال الذات . ومن ههنا يتبين أنه سبحانه له الحمد كله ، وأن أحداً من خلقه لا يحصي ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وأنه يستحق أن يعبد لذاته . ويحب لذاته ، ويشكر لذاته ، وأنه سبحانه يحب نفسه ويثني على نفسه ويحمد نفسه ، وأن محبته لنفسه وحمده لنفسه وثناءه على نفسه وتوحيده لنفسه هو في الحقيقة الحمد والثناء والحب والتوحيد ، فهو سبحانه كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني به عليه خلقه ، وهو سبحانه كما يحب ذاته يحب صفاته وأفعاله ، فكل أفعاله حسن محبوب وإن كان في مفعولاته ما يبغضه ويكرهه ، فليس في أفعاله ما هو مكروه مسخوط ، وليس في الوجود ما يحب لذاته ويحمد لذاته إلا هو سبحانه وكل ما يحب سواه ، فإن كانت محبته تابعة لمحبته سبحانه بحيث يحب لأجله فمحبته صحيحة ، والا فهي محبة باطلة . وهذا هو حقيقة الإلهية ، فإن الإله الحق هو الذي يحب لذاته ويحمد لذاته . فكيف اذا انضاف الى ذلك احسانه وانعامه وحلمه وتجاوزه وعفوه وبره ورحمته ، فعلى العبد أن يعلم أنه لا إله إلاَّ الله فيحبه ويحمده

لذاته و... لا محسن على الحقيقة بأصناف النعم الظاهرة والباطنة الا هو فيحبه لاحسانه وانعامه . ويحمده على ذلك فيحبه من الوجهين جميعا . وكما أنه ليس كمثله شيء فليس كمحبته محبة ، والمحبة مع الخضوع هي العبودية التي خلق الخلق لأجلها ، فانها غاية الحب بغاية الذل ، ولا يصلح ذلك الا له سبحانه والاشراك به في هذا هو الشرك الذي لا يغفره الله ولا يقبل لصاحبه عملا .

وحمده يتضمن أصلين . الاخبار بمحامده وصفات كماله ، والمحبة له عليها فمن أخبر بمحاسن غيره من غير محبة له لم يكن حامداً. ومن أحبه من غير اخبار بمحاسنه لم يكن حامداً حتى يجمع الأمرين وهو سبحانه يحمد نفسه بنفسه ، ويحمد نفسه بما يجريه على ألسنة الحامدين له من ملائكته وأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين ، فهو الحامد لنفسه بهذا وهذا ، فان حمدهم له بمشيئته واذنه وتكوينه ، فإنه هو الذي جعل الحامد حامداً والمسلم مسلماً والمصلي مصلياً والتائب تائباً ، فمنه ابتدأت النعم واليه انتهت ، فابتدأت بحمده وانتهت الى حمده وهو الذي ألهم عبده التوبة وفرح بها أعظم فرح وهي من فضله وجوده وألهم عبده الطاعة وأعانه عليها ثم أثابه عليها ، وهي من فضله وجوده ، وهو سبحانه غني عن كل ما سواه بكل وجه ، وما سواه فقير اليه بكل وجه . والعبد مفتقر اليه لذاته في الأسباب والغايات ، فإن ما لا يكون به لا يكون وما لا يكون له لا ينفع .

ان الله جميل ويحب الجمال

وقوله في الحديث «ان الله جميل يحب الجمال» يتناول جمال الثياب المسؤول عنه في نفس الحديث . ويدخل فيه بطريق العموم الجمال من كل شيء كما في الحديث الآخر «ان الله نظيف يحب النظافة» وفي الصحيح «ان الله طيب لا يقبل الا طيبا» وفي السنن «ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» وفيها عن أبي الأحوص الجشمي قال: «رآني النبي ﷺ وعليَّ أطمار[1] فقال: هل لك من مال؟

(١) اطمار: ثياب رثة بالية.

قلت: نعم. قال: من أي المال؟ قلت: من كل ما آتى الله من الابل والشاء، قال: فلتر نعمته وكرامته عليك» فهو سبحانه يحب ظهور أثر نعمته على عبده فإنه من الجمال الذي يحبه. وذلك من شكره على نعمه. وهو جمال باطن. فيحب أن يرى على عبده الجمال الظاهر بالنعمة. والجمال الباطن بالشكر عليها. ولمحبته سبحانه للجمال أنزل على عباده لباسا وزينة تجمل ظواهرهم وتقوى تجمل بواطنهم فقال ﴿ **يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير** ﴾[1] وقال في أهل الجنة ﴿ **ولقاهم نضرة وسرورا وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا** ﴾[2] فجمل وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالسرور وأبدانهم بالحرير. وهو سبحانه كما يحب الجمال في الأقوال والأفعال واللباس والهيأة. يبغض القبيح من الأقوال والأفعال والثياب والهيأة. فيبغض القبيح وأهله ويحب الجمال وأهله.

ولكن ضل في هذا الموضوع فريقان: فريق قالوا كل ما خلقه جميل. فهو يحب كل ما خلقه ونحن نحب جميع ما خلقه فلا نبغض منه شيئا. قالوا ومن رأى الكائنات منه رآها كلها جميلة وأنشد منشدهم:

وإذا رأيت الكائنات بعينهم فجميع ما يحوي الوجود مليح

واحتجوا بقوله تعالى ﴿ **الذي أحسن كل شيء خلقه** ﴾[3] وقوله ﴿ **صنع الله الذي أتقن كل شيء** ﴾[2] وقوله ﴿ **ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت** ﴾[4] والعارف عندهم هو الذي يصرح بإطلاق الجمال ولا يرى في الوجود قبيحا. وهؤلاء قد عدمت الغيرة لله من قلوبهم والبغض في الله والمعاداة فيه وإنكار المنكر والجهاد في سبيله وإقامة حدوده. ويرى جمال الصور من الذكور والإناث من الجمال الذي يحبه الله فيتعبدون بفسقهم، وربما غلا بعضهم حتى يزعم أن معبوده يظهر في تلك الصورة ويحل فيها، وإن كان اتحادياً قال هي مظهر من مظاهر الحق، ويسميها المظاهر الجمالية.

---

(١) سورة الاعراف الآية ٢٦.
(٢) سورة الإنسان الآية (١١ - ١٢).
(٣) سورة السجدة الاية ٧.
(٤) سورة النمل الآية ٨٨.
(٥) سورة الملك الآية ٣.

وقابلهم الفريق الثاني فقالوا : قد ذم الله سبحانه جمال الصور وتمام القامة والخلقة فقال عن المنافقين ﴿ **وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم** ﴾[1] وقال ﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئيا** ﴾[2] أي أموالا ومناظر . قال الحسن هو الصور وفي صحيح مسلم عنه ﷺ « ان الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم وانما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » قالوا ومعلوم انه لم ينف نظر الادراك وانما نفى نظر المحبة . قالوا وقد حرم علينا لباس الحرير والذهب وآنية الذهب والفضة وذلك من أعظم جمال الدنيا وقال ﴿ **ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه** ﴾[3] وفي الحديث « البذاذة من الايمان » وقد ذم الله المسرفين ، والسرف كما يكون في الطعام والشراب يكون في اللباس .

وفصل النزاع أن يقال : الجمال في الصورة واللباس والهيئة ثلاثة أنواع : منه ما يحمد ومنه ما يذم ومنه ما لا يتعلق به مدح ولا ذم . فالمحمود منه ما كان لله وأعان على طاعة الله وتنفيذ أوامره والاستجابة له ، كما كان النبي ﷺ يتجمل للوفود ، وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال ، ولباس الحرير في الحرب والخيلاء فيه ، فإن ذلك محمود اذا تضمن اعلاء كلمة الله ونصر دينه وغيظ عدوه . والمذموم منه ما كان للدنيا والرياسة والفخر والخيلاء ، والتوسل الى الشهوات وأن يكون هو غاية العبد وأقصى مطلبه ، فإن كثيراً من النفوس ليس لها همة في سوى ذلك .

وأما ما لا يحمد ولا يذم هو ما خلا عن هذين القصدين وتجرد عن الوصفين .

والمقصود أن هذا الحديث الشريف مشتمل على أصلين عظيمين ، فأوله

---

(١) سورة المنافقون الآية ٤ .

(٢) سورة مريم الآية ٧٤ .

(٣) سورة طه الآية ١٣١ .

معرفة وآخره سلوك ، فيعرف الله سبحانه بالجمال الذي لا يماثله فيه شيء . ويعبد بالجمال الذي يحبه من الأقوال والأعمال والأخلاق ، فيحب من عبده أن يجمل لسانه بالصدق وقلبه بالاخلاص والمحبة والانابة والتوكل ، وجوارحه بالطاعة وبدنه بإظهار نعمه عليه في لباسه ، وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والأوساخ والشعور المكروهة ، والختان وتقليم الأظفار ، فيعرفه بصفات الجمال ويتعرف اليه بالأفعال والأقوال والأخلاق الجميلة ، فيعرفه بالجمال الذي هو وصفه : ويعبده بالجمال الذي هو شرعه ودينه ، فجمع الحديث قاعدتين : المعرفة والسلوك .

ليس أنفع من صدق العبد مع ربه

ليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربه في جميع أموره مع صدق العزيمة فيصدقه في عزمه وفي فعله ، قال تعالى ﴿ **فاذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم** ﴾(١) فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعل فصدق العزيمة جمعها وجزمها وعدم التردد فيها ، بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوم ، فاذا صدقت عزيمته بقي عليه صدق الفعل وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه . وأن لا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه، فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الارادة والهمة وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور . ومن صدق الله في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره . وهذا الصدق معنى يلتئم من صحة الاخلاص وصدق التوكل . فأصدق الناس من صح اخلاصه وتوكله .

(فائدة جليلة في القدر)

رب ذو إرادة أمر عبداً ذا إرادة ، فإن وفقه وأزاد من نفسه أن يعنه ويلهمه فعل ما أمر به وان خذله وخلاه وارادته ونفسه وهو من هذه الحيثية لا يختار الا ما تهواه نفسه وطبعه فهو من حيث هو انسان لا يريد الا ذلك . ولذلك ذمه الله في

---

(١) سورة محمد الآية ٢١ .

كتابه من هذه الحيثية ولم يمدحه الا بأمر زائد على تلك الحيثية وهو كونه مسلما ومؤمنا وصابرا ومحسنا وشكورا وتقيا وبرا ونحو ذلك وهذا أمر زائد على مجرد كونه انسانا . وارادته صالحة ولكن لا يكفي مجرد صلاحيتها ان لم تؤيد بقدر زائد على ذلك وهو التوفيق ، كما أنه لا يكفي في الرؤية مجرد صلاحية العين للادراك ان لم يحصل سبب آخر من النور المنفصل عنها .

اعظم الظلم ان تطلب التعظيم لنفسك وقلبك خال من تعظيم الله

من أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم والتوقير لك من الناس وقلبك خال من تعظيم الله وتوقيره فانك توقر المخلوق وتجله أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها ، قال تعالى ﴿ **ما لكم لا ترجون لله وقارا** ﴾[1] أي لا تعاملونه معاملة من توقرونه والتوقير العظمة ومنه قوله تعالى: ﴿**وتوقروهُ**﴾[2] قال الحسن ما لكم لا تعرفون لله حقا ولا تشكرونه . وقال مجاهد لا تبالون عظمة ربكم . وقال ابن زيد لا ترون لله طاعة . وقال ابن عباس لا تعرفون حق عظمته . وهذه الأقوال ترجع الى معنى واحد ، وهو أنهم لو عظموا الله وعرفوا حق عظمته وحدوه وأطاعوه وشكروه ، فطاعته سبحانه واجتناب معاصيه والحياء منه بحسب وقاره في القلب ، ولهذا قال بعض السلف : ليعظم وقار الله في قلب أحدكم أن يذكره عندما يستحي من ذكره فيقرن اسمه به كما تقول : قبح الله الكلب والخنزير والنتن ونحو ذلك ، فهذا من وقار الله ومن وقاره أن لا تعدل به شيئا من خلقه لا في اللفظ ، بحيث تقول : والله وحياتك ما لي الا الله وأنت ، وما شاء الله وشئت ، ولا في الحب والتعظيم والاجلال ولا في الطاعة ، فتطيع المخلوق في أمره ونهيه كما تطيع الله ، بل أعظم ، كما عليه أكثر الظلمة والفجرة ، ولا في الخوف والرجاء ويجعله أهون الناظرين اليه ، ولا يستهين بحقه ويقول هو مبني على المسامحة ، ولا يجعله على الفضلة ويقدم حق المخلوق عليه ، ولا يكون الله ورسوله في حد

---

(١) سورة نوح الآية ١٣ .   (٢) سورة الفتح الآية ٩ .

وناحية ، والناس في ناحية وحد ، فيكون في الحد والشق الـذي فيه النـاس دون الحد والشق الذي فيه الله ورسوله ، ولا يعطي المخلوق في مخـاطبته قلبـه ولبه . ويعطي الله في خدمته بدنه ولسانه دون قلبه وروحه . ولا يجعل مراد نفسه مقدماً على مراد ربه .

فهذا كله من عدم وقار الله في القلب، ومن كان كذلك فإن الله لا يلقى له في قلوب الناس وقـاراً ولا هيبة ، بل يسقط وقـاره وهيبته من قلوبهم وان وقـروه مخافة شره فذاك وقار بغض لا وقار حب وتعظيم . ومن وقار الله أن يستحيي من اطلاعه على سره وضميره فيرى فيه ما يكره ، ومن وقاره أن يستحيي منه في الخلوة أعظم مما يستحيي من أكابر الناس .

والمقصود أن من لا يوقر الله وكلامه وما آتاه من العلم والحكمة كيف يطلب من الناس توقيره .

القـرآن والعلم وكلام الـرسـول ﷺ صـلات من الحق وتنبيهـات وروادع وزواجر واردة اليك ، والشيب زاجر ورادع وموقظ قاتم بك ، فلا ما ورد اليـك وعظك ، ولا ما قام بك نصحك ، ومع هذا نطلب التوقير والتعظيم من غيرك ، فأنت كمصاب لم تؤثر فيه مصيبته وعظا وانزجاراً وهـو يطلب من غيـره أن يتعظ وينزجر بالنظر الى مصابه ، فالضرب لم يؤثر فيه زجراً وهو يريد الانزجار ممن نظر الى ضربه .

من سمع بالمثلات والعقوبات والآيات في حق غيره ليس كمن رآها عياناً في غيره ، فكيف بمن وجدها في نفسه ﴿ **سنريهم آياتنـا في الآفاق وفي أنفسهم** ﴾[١] فآياته في الآفاق مسموعة معلومة ، وآياته في النفس مشهودة مرئية فعياذاً بالله من الخذلان قال تعالى ﴿ **ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جـاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم** ﴾[٢] وقال ﴿ **ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم**

---

(١) سورة فصلت الآية ٥٣ . (٢) سورة يونس الآية (٩٦ - ٩٧) .

الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾[1] والعاقل المؤيد بالتوفيق يعتبر بدون هذا . ويتمم نقائص خلقته بفضائل أخلاقه وأعماله ، فكلما امتحى[2] من جثمانه أثر زاد ايمانه أثر ، وكلما نقص من قوى بدنه زاد في قوة ايمانه ويقينه ورغبته في الله والدار الآخرة ، وإن لم يكن هكذا فالموت خير له ، لأنه يقف على حد معين من الألم والفساد بخلاف العيوب والنقائص مع طول العمر فإنها زيادة في ألمه وهمه وغمه وحسرته وانما حسن طول العمر ونفع ليحصل التذكر والاستدراك واغتنام الفرص والتوبة النصوح كما قال تعالى ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾[3] فمن لم يورثه التعمير وطول البقاء اصلاح معائبه وتدارك فارطة واغتنام بقية أنفاسه فيعمل على حياة قلبه وحصول النعيم المقيم ، والا فلا خير له في حياته ، فإن العبد على جناح سفر اما الى الجنة واما الى النار ، فإذا طال عمره وحسن عمله كان طول سفره زيادة له في حصول النعيم واللذة فانه كلما طال السفر اليها كانت الصبابة أجل وأفضل ، وإذا طال عمره وساء عمله ، كان طول سفره زيادة في ألمه وعذابه ونزولا له الى أسفل ، فالمسافر إما صاعد واما نازل ، وفي الحديث المرفوع «خيركم من طال عمره وحسن علمه ، وشركم من طال عمره وقبح عمله»[4] .

فالطالب الصادق في طلبه كلما خرب شيء من ذاته جعله عمارة لقلبه وروحه وكلما نقص شيء من دنياه جعله زيادة في آخرته ، وكلما منع شيء من لذات دنياه جعله زيادة في لذات آخرته ، وكلما ناله هم أو حزن أو غم جعله أفراح آخرته ، فنقصان بدنه ودنياه ولذته وجاهه ورئاسته ان زاد في حصول ذلك وتوفيره عليه في معاده كان رحمة به وخيرا له ، والا كان حرمانا وعقوبة على ذنوب ظاهرة أو باطنة أو ترك واجب ظاهر أو باطن ، فإن حرمان خير الدنيا والآخرة مرتب على هذه الأربعة وبالله التوفيق .

---

(١) سورة الانعام الآية ١١١ .

(٢) امتحى : لم يعد له أثر.

(٣) سورة فاطر الآية ٣٧ .

(٤) رواه الترمذي والامام ابن حنبل .

مثل المرء في الحياة الدنيا كمثل المسافر

الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين ، وليس لهم حط عن رحالهم الا في الجنة أو في النار . والعاقل يعلم أن السفر مبني على المشقة وركوب الاخطار ومن المحال عادة أن يطلب فيه نعيم ولذة وراحة ، انما ذلك بعد انتهاء السفر . ومن المعلوم أن كل وطأة قدم ، أو آن من آنات السفر غير واقفة ولا المكلف واقف وقد ثبت أنه مسافر على الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل ، واذا نزل أو نام أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير .

(فائدة)

المشاهدة

عند العارفين أن الاشتغال بالمشاهدة عن الجد في السير في السر وقوف لأنه في زمن المشاهدة لو كان صاحب عمل ظاهر أو باطن أو ازدياد من معرفة وايمان مفصل كان أولى به ، فإن اللطيفة الانسانية تحشر على صورة عملها ومعرفتها وهمتها وإرادتها ، والبدن يحشر على صورة عمله الحسن أو القبيح . وإذا انتقلت من هذه الدار شاهدت حقيقة ذلك . وعلى قدر قرب قلبك من الله تبعد من الأنس بالناس ومساكنتهم ، وعلى قدر صيانتك لسرك وإرادتك يكون حفظه . وملاك ذلك صحة التوحيد ، ثم صحة العلم بالطريق ، ثم صحة الارادة ، ثم صحة العمل .

والحذر كل الحذر من قصد الناس لك وإقبالهم عليك ، وأن يعثروا على موضع غرضك فإنها الآفة العظمى .

(فائدة)

كل ذي لب يعلم أنه لا طريق للشيطان عليه الا من ثلاث جهات:

أحدها التزيد والاسراف فيزيد على قدر الحاجة فتصير فضلة وهي حظ الشيطان ومدخله الى القلب ، وطريق الخلاص منه الاحتراز من اعطاء النفس تمام مطلوبها من غذاء أو نوم أو لذة أو راحة ، فمتى أغلقت هذا الباب حصل الأمان

من دخول العدو منه .

الثانية : الغفلة فإن الذاكر في حصن الذكر فمتى غفل فتح باب الحصن فولجه العدو فيعسر عليه أو يصعب إخراجه .

الثالثة : تكلف ما لا يعنيه من جميع الأشياء .

(فائدة)

طالب النفوذ الى الله والدار الآخرة بل والى كل علم وصناعة ورئاسة بحيث يكون رأساً في ذلك مقتدى به فيه ، يحتاج أن يكون شجاعاً مقداماً حاكماً على وهمه ، غير مقهور تحت سلطان تخيله ، زاهداً في كل ما سوى مطلوبه ، عاشقاً لما توجه اليه ، عارفا بطريق الوصول اليه ، والطرق القواطع عنه ، مقدام الهمة ثابت الجأش لا يثنيه عن مطلوبه لوم لائم ولا عذل عاذل . كثير السكون دائم الفكر غير مائل مع لذة المدح ولا ألم الذم ، قائما بما يحتاج من أسباب معونته ، لا تستفزه المعارضات ، شعاره الصبر وراحته التعب ، محبا لمكارم الأخلاق حافظا لوقته ، لا يخالط الناس إلا على حذر كالطائر الذي يلتقط الحب بينهم ، قائما على نفسه بالرغبة والرهبة طامعا في نتائج الاختصاص على بني جنسه ، غير مرسل شيئا من حواسه عبثا ، ولا مسرحا خواطره في مراتب الكون .

وملاك ذلك هجر العوائد وقطع العلائق الحائلة بينك وبين المطلوب ، وعند العوام أن لزوم الأدب مع الحجاب خير من اطراح الأدب مع الكشف .

(فائدة)

من الذاكرين من يبتدىء بذكر اللسان وان كان على غفلة ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه فتواطآ على الذكر ومنهم من لا يرى ذلك ولا يبتدىء على غفلة بل يسكن حتى يحضر قلبه فيشرع في الذكر بقلبه ، فاذا قوي استتبع لسانه فتواطآ جميعا ، فالأول ينتقل الذكر من لسانه الى قلبه . والثاني ينتقل من قلبه الى لسانه من غير أن يخلو قلبه منه ، بل يسكن أولاً حتى يحس بظهور الناطق فيه ، فاذا أحس بذلك نطق قلبه ثم انتقل النطق القلبي الى الذكر اللساني ، ثم يستغرق

في ذلك حتى يجد كل شيء منه ذاكراً ، وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان ، وكان من الأذكار النبوية ، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده .

انفع الناس لك رجل مكنك من نفسه حتى تزرع فيه خيراً

أنفع الناس لك رجل مكنك من نفسه حتى تزرع فيه خيراً أو تصنع اليه معروفاً ، فإنه نعم العون لك على منفعتك وكمالك ، فانتفاعك به في الحقيقة مثل انتفاعه بك أو أكثر ، وأضر الناس عليك من مكن نفسه منك حتى تعصي الله فيه فإنه عون لك على مضرتك ونقصك .

اللذة المحرمة

اللذة المحرمة ممزوجة بالقبح حال تناولها مثمرة للألم بعد انقضائها فإذا اشتدت الداعية منك اليها ففكر في انقطاعها وبقاء قبحها وألمها ، ثم وازن بين الأمرين وانظر ما بينهما من التفاوت ، والتعب بالطاعة ممزوج بالحسن مثمر للذة والراحة ، فاذا ثقلت على النفس ففكر في انقطاع تعبها وبقاء حسنها ولذتها وسرورها ، ووازن بين الأمرين وآثر الراجح على المرجوح ، فإن تألمت بالسبب فانظر الى ما في المسبب من الفرحة والسرور واللذة يهن عليك مقاساته وان تألمت بترك اللذة المحرمة فانظر الى الالم الذي يعقبه ووازن بين الألمين ، وخاصية العقل تحصي أعظم المنفعتين بتفويت أدناهما ، واحتمال أصغر الالمين لدفع أعلاهما .

وهذا يحتاج الى علم بالأسباب ومقتضياتها ، والى عقل يختار به الأولى والانفع له منها ، فمن وفر قسمه من العقل والعلم اختار الأفضل وآثره ، ومن نقص حظه منهما أو من أحدهما اختار خلافه ، ومن فكر في الدنيا والآخرة علم أنه لا ينال واحداً منهما إلا بمشقة فليتحمل المشقة لخيرهما وابقاهما .

لله على العبد في كل عضو امر

لله على العبد في كل عضو من أعضائه أمر ، وله عليه فيه نهي ، وله فيه نعمة وله به منفعة ولذة ، فإن قام لله في ذلك العضو بأمره واجتنب فيه نهيه فقد أدى شكر نعمته عليه فيه ، وسعى في تكميل انتفاعه ولذته به ، وان عطل أمر الله

ونهيه فيه عطله الله من انتفاعه بذلك العضو ، وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرته . وله عليه في كل وقت من أوقاته عبودية تقدمه اليه وتقربه منه فإن شغل وقته بعبودية الوقت تقدم الى ربه . وان شغله بهوى أو راحة وبطالة تأخر . فالعبد لا يزال في تقدم أو تأخر ولا وقوف في الطريق البتة . قال تعالى ﴿ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾[1] .

فرقة في الجنة وأخرى في النار

أقام الله سبحانه هذا الخلق بين الأمر والنهي والعطاء والمنع . فافترقوا فرقتين : فرقة قابلت أمره بالترك ونهيه بالارتكاب وعطاءه بالغفلة عن الشكر ومنعه بالسخط . وهؤلاء أعداؤه ، وفيهم من العداوة بحسب ما فيهم من ذلك . وقسم قالوا انما نحن عبيدك فإن أمرتنا سارعنا الى الاجابة ، وان نهيتنا أمسكنا نفوسنا وكففناها عما نهيتنا عنه ، وان أعطيتنا حمدناك وشكرناك وان منعتنا تضرعنا اليك وذكرناك ، فليس بين هؤلاء وبين الجنة الا ستر الحياة الدنيا ، فإذا مزقه عليهم الموت صاروا الى النعيم المقيم وقرة الأعين . كما أن أولئك ليس بينهم وبين النار إلا ستر الحياة فإذا مزقه الموت صاروا إلى الحسرة والألم .

فإذا تصادمت جيوش الدنيا والآخرة في قلبك وأردت أن تعلم من أي الفريقين أنت ، فانظر مع من تميل منهما ومع من تقاتل ، إذ لا يمكنك الوقوف بين الجيشين فأنت مع أحدهما لا محالة ، فالفريق الأول استغشوا الهوى فخالفوه واستنصحوا العقل فشاوروه وفرغوا قلوبهم للفكر فيما خلقوا له . وجوارحهم للعمل بما أمروا به وأوقاتهم لعمارتها بما يعمر منازلهم في الآخرة واستظهروا على سرعة الأجل بالمبادرة الى الأعمال ، وسكنوا الدنيا وقلوبهم مسافرة عنها ، واستوطنوا الآخرة قبل انتقالهم اليها ، واهتموا بالله وطاعته على قدر حاجتهم اليه ، وتزودوا للآخرة على قدر مقامهم فيها ، فعجل لهم سبحانه من نعيم الجنة

---

(١) سورة المدثر الآية ٣٧.

وروحها أن آنسهم بنفسه وأقبل بقلوبهم اليه ، وجمعها على محبته وشوقهم الى لقائه ، ونعمهم بقربه وفرغ قلوبهم مما ملأ قلوب غيرهم من محبة الدنيا والهم والحزن على فوتها ، والغم من خوف ذهابها ، فاستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدانهم ، والملأ الأعلى بأرواحهم .

من صفات التوحيد

التوحيد ألطف شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه ، فأدنى شيء يخدشه ويدنسه ويؤثر فيه ، فهو كأبيض ثوب يكون يؤثر فيه أدنى أثر ، وكالمرآة الصافية جداً أدنى شيء يؤثر فيها . ولهذا تشوشه اللحظة واللفظة والشهوة الخفية . فإن بادر صاحبه وقلع ذلك الأثر بضده. والا استحكم وصار طبعاً يتعسر عليه قلعه .

وهذه الآثار والطبوع التي تحصل فيه منها ما يكون سريع الحصول سريع الزوال . ومنها ما يكون سريع الحصول بطيء الزوال ، ومنها ما يكون بطيء الحصول سريع الزوال . ومنها ما يكون بطيء الحصول بطيء الزوال . ولكن من الناس من يكون توحيده كبيراً عظيماً ينغمر فيه كثير من تلك الآثار . ويستحيل فيه بمنزلة الماء الكثير الذي يخالطه أدنى نجاسة أو وسخ فيغتر به صاحب التوحيد الذي هو دونه فيخلط توحيده الضعيف بما خلط به صاحب التوحيد العظيم الكثير توحيده ، فيظهر تأثيره فيه ما لم يظهر في التوحيد الكثير . وأيضاً فإن المحل الصافي جداً يظهر لصاحبه مما يدنسه ما لا يظهر في المحل الذي لم يبلغ في الصفاء مبلغه فيتداركه بالإزالة دون هذا فإنه لا يشعر به . وأيضاً فإن قوة الايمان والتوحيد اذا كانت قوية جداً أحالت المواد الرديئة وقهرتها بخلاف القوة الضعيفة . وأيضاً فإن صاحب المحاسن الكثيرة والغامرة للسيئات ليسامح بما لا يسامح به من أتى مثل تلك السيئات وليست له مثل تلك المحاسن كما قيل :

واذا الحبيب أتى بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

وأيضاً فإن صدق الطلب وقوة الارادة وكمال الانقياد يحيل تلك العوارض والغواشي الغريبة الى مقتضاه وموجبه ، كما أن الكذب وفساد القصد وضعف

الانقياد يحيل الاقوال والافعال الممدوحة الى مقتضاه وموبجه . كما يشاهد ذلك في الاخلاط الغالبة واحالتها لصالح الأغذية الى طبعها .

(فائدة)

ترك الشهوات طاعة لله

ترك الشهوات لله وان أنجى من عذاب الله وأوجب الفوز برحمته . فذخائر الله وكنوز البر ولذة الانس والشوق اليه والفرح والابتهاج به لا يحصل في قلب فيه غيره وان كان من أهل العبادة والزهد والعلم . فإن الله سبحانه أبى أن يجعل ذخائره في قلب فيه سواه . وهمته متعلقة بغيره . وانما يودع ذخائره في قلب يرى الفقر غنى مع الله . والغنى فقراً دون الله . والعز ذلا دونه. والذل عزاً معه . والنعيم عذابا دونه والعذاب نعيما معه، وبالجملة فلا يرى الحياة الا به ومعه ، والموت والألم والهم والغم والحزن اذا لم يكن معه . فهذا له جنتان : جنة في الدنيا معجلة ، وجنة يوم القيامة .

(فائدة)

الانابة

الإنابة هي عكوف القلب على الله عز وجل كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه ، وحقيقة ذلك عكوف القلب على محبته وذكره بالإجلال والتعظيم وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله ، ومن لم يعكف قلبه على الله وحده عكف على التماثيل المتنوعة ، كما قال إمام الحنفاء لقومه ﴿ **ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون** ﴾[1] فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف ، فكان حظ قومه العكوف على التماثيل . وكان حظه العكوف على الرب الجليل. (والتماثيل جمع تمثال ، وهي الصور الممثلة) فتعلق القلب بغير الله واشتغاله به والركون اليه عكوف منه على التماثيل التي قامت بقلبه وهو نظير العكوف على تماثيل الاصنام .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٥٢.

ولهذا كان شرك عباد الاصنام بالعكوف بقلوبهم وهممهم وارادتهم على تماثيلهم ، فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته بحيث يكون عاكفاً عليها فهو نظير عكوف الأصنام عليها . ولهذا سماه النبي ﷺ عبداً لها ودعا عليه بالتعس والنكس فقال « تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس وانتكس واذا شيك فلا افتقش » .

الناس في هذه الدار على جناح سفر كلهم ، وكل مسافر فهو ظاعن الى مقصده ونازل على من يسر بالنزول عليه ، وطالب الله والدار الآخرة انما هو ظاعن الى الله في حال سفره ، ونازل عليه عند القدوم عليه ، فهذه همته في سفره وفي انقضائه﴿**يا أيَّتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي**﴾(١) وقالت امرأة فرعون ﴿ **رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة** ﴾(٢) فطلبت كون البيت عنده قبل طلبها أن يكون في الجنة فإن الجار قبل الدار .

من كلام الشيخ علي

قيل لي في نوم كاليقظة أو يقظة كالنوم : لا تبدي فاقة الى غيري فأضاعفها عليك مكافأة لخروجك عن حدك في عبوديتك، ابتليتك بالفقر لتصير ذهبا خالصا فلا تزيفن بعد السبك ، حكمت لك بالفقر ولنفسي بالغنى ، فإن وصلتها بي وصلتك بالغنى، وإن وصلتها بغيري حسمت عنك مواد معونتي طرداً لك من بابي، لا تركن إلى شيء دوننا فإنه وبال عليك وقاتل لك ، إن ركنت الى العمل رددناه عليك ، وان ركنت الى المعرفة نكرناها عليك ، وان ركنت إلى الوجد استدرجناك فيه ، وإن ركنت الى العلم أوقفناك معه ، وإن ركنت الى المخلوقين وكلناك اليهم ، إرضنا لك رباً نرضاك لنا عبداً .

(فائدة)

الشهقة التي تعرض عند سماع القرآن أو غيره لها أسباب :

---

(١) سورة الفجر الآية (٢٧ ـ ٣٠). (٢) سورة التحريم الآية ١١ .

أحدها : أن يلوح له عند السماع درجة ليست له فيرتاح اليها فتحدث له الشهقة . فهذه شهقة شوق .

وثانيها : أنه يلوح له ذنب ارتكبه فيشهق خوفاً وحزناً على نفسه ، وهذه شهقة خشية .

وثالثها : أن يلوح له نقص فيه لا يقدر على دفعه عنه فيحدث له ذلك حزناً فيشهق شهقة حزن .

ورابعها : أن يلوح له كمال محبوبه ويرى الطريق اليه مسدودة عنه فيحدث ذلك شهقة أسف وحزن .

وخامسها : أن يكون قد توارى عنه محبوبه واشتغل بغيره فذكره السماع محبوبه ، فلاح له جماله ورأى الباب مفتوحا والطريق ظاهرة ، فشهق فرحا وسروراً بما لاح له .

وبكل حال فسبب الشهقة قوة الوارد وضعف المحل عن الاحتمال ، والقوة أن يعمل ذلك الوارد عمله داخلا ، ولا يظهر عليه ، وذلك أقوى له وأدوم فإنه اذا أظهره ضعف أثره وأوشك انقطاعه . هذا حكم الشهقة من الصادق . فإن الشاهق إما صادق وإما سارق وإما منافق .

(قاعدة نافعة)

الفكر مبدأ الارادة

أصل الخير والشر من قبل التفكير ، فإن الفكر مبدأ الإرادة والطلب في الزهد والترك والحب والبغض . وأنفع الفكر : الفكر في مصالح المعاد ، وفي طرق اجتلابها وفي دفع مفاسد المعاد وفي طرق اجتنابها ، فهذه أربعة أفكار هي أجل الأفكار ويليها أربعة : فكر في مصالح الدنيا وطرق تحصيلها وفكر في مفاسد الدنيا وطرق الاحتراز منها . فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء . ورأس القسم الأول الفكر في آلاء الله ونعمه وأمره ونهيه . وطرق العلم به

وبأسمائه وصفاته من كتابه وسنة نبيه ، وما والاهما . وهذا الفكـر يثمر لصـاحبه المحبـة والمعرفـة ، فإذا فكـر في الآخرة وشـرفها ودوامهـا . وفي الدنيـا وخستهـا وفنائها ، أثمر له ذلك الرغبة في الجد والاجتهاد . وبذل الوسع في اغتنام الوقت .

وهذه الأفكار تعلي همته وتحييها بعد موتها وسفولها ، وتجعله في واد والناس في واد ، وبإزاء هذه الأفكار : الأفكار الرديئة التي تجول في قلوب أكثر هذا الخلق كالفكر فيما لا يكلف الفكر فيه ولا أعطى الاحاطة به من فضول العلم الـذي لا ينفع ، كالفكر في كيفية ذات الرب وصفاته مما لا سبيل للعقول الى إدراكه ، ومنها الفكر في الصناعات الدقيقة التي لا تنفع بل تضر كالفكر في الشطرنج والموسيقى وأنواع الأشكال والتصاوير .

ومنها الفكر في العلوم التي لو كانت صحيحة لم يعط الفكر فيها النفس كمالاً ولا شرفا كالفكر في دقائق المنطق والعلم الرياضي والطبيعي وأكثر علوم الفلاسفة التي لو بلغ الانسان غايتها لم يكمل بذلك ولم يزك نفسه .

ومنها الفكر في الشهوات واللذات وطرق تحصيلها . هذا وإن كان للنفس فيه لذة لكن لا عاقبة له ومضرته في عاقبة الدنيا قبل الآخرة أضعاف مسرته . ومنها الفكر فيما لم يكن لو كان كيف كان يكون كالفكر فيما اذا صار ملكا أو وجد كنزاً أو ملك ضيعه ماذا يصنع وكيف يتصرف ويأخذ ويعطي وينتقم ونحو ذلك من أفكار السفل . ومنه الفكر في جزئيات أحوال الناس ومداخلهم ومخارجهم وتوابع ذلك من فكر النفوس المبطلة الفارغة من الله ورسوله والدار الآخرة . ومنها الفكـر في دقائق الحيل والمكر التي يتوصل بها الى أغراضه وهواه مباحة كانت أو محرمة .

ومنهـا الفكر في أنـواع الشعر وصـروفه وأنـانينه في المـدح والهجاء والغـزل والمراثي ونحوها ، فإنه يشغل الانسان عن الفكر فيما فيه سعادته وحياته الدائمة . ومنها الفكر في المقدرات الذهنية التي لا وجود لها في الخارج . ولا بالناس حـاجة اليها البتة ، وذلك موجود في كل علم حتى في علم الفقه والأصول والطب ، فكل هذه الأفكار مضرتها أرجح من منفعتها . ويكفي في مضرتها شغلها عن الفكر فيما

هو أولى به وأعود عليه بالنفع عاجلا وآجلا .

(قاعدة)

الطلب لقاح الايمان

الطلب لقاح الايمان ، فإذا اجتمع الايمان والطلب أثمر العمل الصالـح . وحسن الظن بالله لقاح الافتقار والاضطرار اليه فإذا اجتمعا أثمرا اجابـة الدعـاء والخشية لقاح المحبة فإذا اجتمعا أثمرا امتثال الأوامر واجتناب المناهي . والصبـر لقاح اليقين فإذا اجتمعا أورثا الامامة في الدين . قال تعالى ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** ﴾[1] وصحة الاقتداء بالرسول لقاح الاخلاص :ا اجتمعا أثمرا قبول العمل والاعتداد به . والعمل لقاح العلم فإذا اجتمعا كان الفلاح والسعادة وان انفرد أحدهمـا عن الآخر لم يفـد شيئا . والحلم لقـاح العلم فاذا اجتمعـا حصلت سيادة الـدنيا والآخـرة وحصل الانتفـاع بعلم العـالم . وانه انفرد أحـدهما عن صـاحبه فـات النفع والانتفـاع ، والعزيمـة لقاح البصيرة فاذا اجتمعا نال صاحبها خير الدنيا والآخرة ، وبلغت به همته من العلياء كل مكان .

فتخلف الكمالات إما من عدم البصيرة واما من عدم العزيمة .

وحسن القصد لقاح لصحة الذهن ، فاذا فقدا فقد الخير كله ، واذا اجتمعا أثمرا أنواع الخيرات . وصحة الرأي لقاح الشجاعة فاذا اجتمعا كان النصر والظفر وان قعدا فالخذلان والخيبة ، وان وجد الرأي بلا شجاعة فالجبن والعجـز ، وان حصلت الشجاعة بلا رأي فالتهور والعطب ، والصبر لقاح البصيرة فاذا اجتمعـا فالخير في اجتماعهما . قال الحسن : اذا شئت أن ترى بصيرا لا صبر لـه رأيته ، واذا شئت أن ترى صابراً لا بصيرة له رأيته ، فـإذا رأيت صابـرا بصيرا فـذاك ، والنصيحـة لقاح العقـل فكلما قويت النصيحـة قوى العقـل واستنار . والتـذكرة

---

(١) سورة السجدة الآية ٢٤ .

والتفكرة كل منهما لقاح الآخر اذا اجتمعا أنتجا الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والتقوى لقاح التوكل فإذا اجتمعا استقام القلب ، ولقاح أخذ أهبة الاستعداد للقاء قصر الأمل ، فإذا اجتمعا فالخير كله في اجتماعهما والشر في فرقتهما . ولقاح الهمة العليا النية الصحيحة فاذا اجتمعا بلغ العبد غاية المراد .

(قاعدة)

للعبد بين يدي الله موقفان : موقف بين يديه في الصلاة ، وموقف بين يديه يوم لقائه : فمن قام بحق الموقف الأول هون عليه في الموقف الآخر ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفه حقه شدد عليه ذلك الموقف .

قال تعالى ﴿ **ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً ، ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً** ﴾[1] .

(**قاعدة**) اللذة من حيث هي مطلوبة للانسان بل ولكل حي فلا تذم من جهة كونها لذة ، وانما تذم ويكون تركها خيراً من نيلها وأنفع إذا تضمنت فوات لذة أعظم منها وأكمل ، أو أعقبت ألما حصوله أعظم من ألم فواتها . فههنا يظهر الفرق بين العاقل الفطن والأحمق الجاهل ، فمتى عرف العقل التفاوت بين اللذتين والالمين وأنه لا نسبة لأحدهما الى الآخر هان عليه ترك أدنى اللذتين لتحصيل أعلاهما ، واحتمال أيسر الألمين لدفع أعلاهما . واذا تقررت هذه القاعدة ـ فلذة الآخرة أعظم وأدوم ولذة الدنيا أصغر وأقصر وكذلك ألم الآخرة وألم الدنيا . والمعول في ذلك على الايمان واليقين ، فاذا قوي اليقين وباشر القلب آثر الاعلى على الادنى في جانب اللذة واحتمل الالم الاسهل على الاصعب والله المستعان .

(**فائدة**) قوله تعالى ﴿ **وأيوب اذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الرحمين** ﴾[2] جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد ، وإظهار الفقر والفاقة الى ربه ، ووجود طعم المحبة في المتملق له ، والاقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم

---

(١) سورة الانسان الآية (٢٦ ـ ٢٧) . (٢) سورة الأنبياء الآية ٨٣ .

الراحمين ، والتوسل اليه بصفاته سبحانه وشدة حاجته هو وفقره ، ومتى وجد المبتلى هذا كشف عنه بلواه . وقد جرب أنه من قالها سبع مرات ولا سيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره .

(فائدة)

قوله تعالى عن يوسف نبيه أنه قال ﴿ **أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين** ﴾(1) جمعت هذه الدعوة الاقرار بالتوحيد والاستسلام للرب وإظهار الافتقار اليه والبراءة من موالاة غيره سبحانه . وكون الوفاة على الاسلام أجل غايات العبد وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء .

(فائدة)

قول الله تعالى ﴿ **وان من شيء الا عندنا خزائنه** ﴾(2) متضمن لكنز من الكنوز وهو أن كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه ومفاتيح تلك الخزائن بيديه . وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه . وقوله ﴿ **وان الى ربك المنتهى** ﴾(3) متضمن لكنز عظيم ، وهو أن كل مراد ان لم يرد لأجله ويتصل به وإلا فهو مضمحل منقطع ، فإنه ليس اليه المنتهى ، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت اليه الأمور كلها فانتهت الى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه ، فهو غاية كل مطلوب ، وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب ، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل ، وكل قلب لا يصل اليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه ، فاجتمع ما يراد منه كله في قوله ﴿ **وان من شيء إلا عندنا خزائنه** ﴾ واجتمع ما يراد له كله في قوله ﴿ **وان الى ربك المنتهى** ﴾ فليس وراءه سبحانه غاية تطلب ، وليس دونه غاية اليها المنتهى .

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد . وهو أن القلب لا يستقر ولا

---

(1) سورة يوسف الآية ١٠١ .

(2) سورة الحجر الآية ٢١ .

(3) سورة النجم الآية ٤٢ .

يطمئن ويسكن الا بالوصول اليه ، وكل ما سواه مما يحب ويراد فمراد لغيره . وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد اليه المنتهى . ويستحيل أن يكون المنتهى الى اثنين ، كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين ، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته الى غيره. بطل عليه ذلك وزال عنه وفارقه أحوج ما كان اليه . ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعيمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد .

العبد دائماً متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل ، فهو محتاج بل مضطر الى العون عند الأوامر ، والى اللطف عند النوازل ، وعلى قدر قيامه بالأوامر يحصل له من اللطف عند النوازل فان كمل القيام بالاوامر ظاهراً وباطناً ناله اللطف ظاهراً وباطناً ، وان قام بصورها دون حقائقها وبواطنها ناله اللطف في الظاهر وقل نصيبه من اللطف في الباطن .

فإن قلت وما اللطف الباطن قيل هو ما يحصل للقلب عند النوازل من السكينة والطمأنينة وزوال القلق والاضطراب والجزع فيستخذي بين يدي سيده ذليلا له مسكينا ناظراً اليه بقلبه ، ساكناً اليه بروحه وسره ، قد شغله مشاهدة لطفه به عن شدة ما هو فيه من الألم ، وقد غيبه عن شهود ذلك معرفته بحسن اختياره له ، وأنه عبد محض يجري عليه سيده أحكامه رَضِيَ أو سخط ، فإن رضي نال الرضا وان سخط فحظه السخط فهذا اللطف الباطن ثمرة تلك المعاملة الباطنة يزيد بزيادتها وينقص بنقصانها .

(فائدة جليلة)

محبة الله تعالىٰ

لا يزال العبد منقطعاً عن الله حتى تتصل ارادته ومحبته بوجه الاعلى . والمراد بهذا الاتصال أن تفضي المحبة اليه وتتعلق به وحده فلا يحجبها شيء دونه . وأن تتصل المعرفة بأسمائه وصفاته وأفعاله فلا يطمس نورها ظلمة التعطيل ، كما لا يطمس نور المحبة ظلمة الشرك ، وأن يتصل ذكره به سبحانه فيزول بين الذاكر

والمذكور حجاب الغفلة والتفاته في حال الذكر الى غير مذكوره . فحينئذ يتصل الذكر به ويتصل العمل بأوامره ونواهيه فيفعل الطاعة لأنه أمر بها وأحبها ، ويترك المناهي لكونه نهى عنها وأبغضها . فهذا معنى اتصال العمل بأمره ونهيه وحقيقة زوال العلل الباعثة على الفعل والترك من الاغراض والحظوظ العاجلة ، ويتصل التوكل والحب بحيث يصير واثقاً به سبحانه مطمئناً اليه . راضيا بحسن تدبيره له غير متهم له في حال من الأحوال ، ويتصل فقره وفاقته به سبحانه دون من سواه ، ويتصل خوفه ورجاؤه وفرحه وسروره وابتهاجه به وحده ، فلا يخاف غيره ولا يرجوه ولا يفرح به كل الفرح ولا يسر به غاية السرور . وان ناله بالمخلوق بعض الفرح والسرور فليس الفرح التام والسرور الكامل والابتهاج والنعيم وقرة العين وسكون القلب إلا به سبحانه ، وما سواه ان أعان على هذا المطلوب فرح به وسر به ، وان حجب عنه فهو بالحزن به والوحشة منه واضطراب القلب بحصوله أحق منه بأن يفرح به ، فلا فرحة ولا سرور الا به أو بما أوصل اليه وأعان على مرضاته . وقد أخبر سبحانه انه لا يحب الفرحين بالدنيا وزينتها ، وأمر بالفرح بفضله ورحمته وهو الإسلام والايمان والقرآن كما فسره الصحابة والتابعون .

والمقصود أن من اتصلت له هذه الأمور بالله سبحانه فقد وصل والا فهو مقطوع عن ربه متصل بحظه ونفسه ، ملبس عليه في معرفته وإرادته وسلوكه .

(قاعدة جليلة)

النعم كلها من عند الله تعالى

قد فكرت في هذا الأمر فإذا أصله أن تعلم أن النعم كلها من الله وحده: نعم الطاعات ونعم اللذات، فترغب اليه أن يلهمك ذكرها ويوزعك[1] شكرها قال تعالى ﴿ **وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون** ﴾[2] وقال ﴿ **فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون** ﴾[3] وقال ﴿ **واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه**

---

(١) أوزع: اغرى.

(٢) سورة النحل الآية ٥٣ .

(٣) سورة الاعراف الآية ٦٩ .

تعبدون ﴾[1] وكما أن تلك النعم منه ومن مجرد فضله فذكرها وشكرها لا ينال إلا بتوفيقه، والذنوب من خذلانه وتخليه عن عبده وتخليته بينه وبين نفسه ، وإن لم يكشف ذلك عن عبده فلا سبيل له الى كشفه عن نفسه ، فإذا هو مضطر الى التضرع والابتهال اليه أن يدفع عنه أسبابها حتى لا تصدر منه ، وإذا وقعت بحكم المقادير ومقتضى البشرية فهو مضطر الى التضرع والدعاء أن يدفع عنه موجباتها وعقوباتها فلا ينفك العبد عن ضرورته الى هذه الأصول الثلاثة ، ولا فلاح له الا بها : الشكر وطلب العافية والتوبة النصوح .

ثم فكرت فاذا مدار ذلك على الرغبة والرهبة ، وليسا بيد العبد بل بيد مقلب القلوب ومصرفها كيف يشاء ، فإن وفق عبده أقبل بقلبه اليه وملأه رغبة ورهبة ، وان خذله تركه ونفسه ولم يأخذ بقلبه اليه ولم يسأله ذلك ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

ثم فكرت هل للتوفيق والخذلان سبب أم هما بمجرد المشيئة لا سبب لهما؟ فاذا سببهما أهلية المحل وعدمها ، فهو سبحانه خالق المحال متفاوتة في الاستعداد والقبول أعظم تفاوت ، فالجمادات لا تقبل ما يقبله الحيوان ، وكذلك النوعان كل منهما متفاوت في القبول ، فالحيوان الناطق يقبل ما لا يقبله البهيم ، وهو متفاوت في القبول أعظم تفاوت . وكذلك الحيوان البهيم متفاوت في القبول لكن ليس بين النوع الواحد من التفاوت كما بين النوع الانساني ، فاذا كان المحل قابلا للنعمة بحيث يعرفها ويعرف قدرها وخطرها ، ويشكر المنعم بها ويثني عليه بها ، ويعظمه عليها ، ويعلم أنها من محض الجود وعين المنة، من غير أن يكون هو مستحقاً لها ولا هي له ولا به ، وانما هي لله وحده وبه وحده ، فوحده بنعمته إخلاصاً وصرفها في محبته شكراً ، وشهدها من محض جوده منة ، وعرف قصوره وتقصيره في شكرها عجزاً وضعفاً وتفريطاً ، وعلم أنه ان أدامها عليه فذلك محض صدقته وفضله واحسانه ، وان سلبه إياها فهو أهل لذلك مستحق له ، وكلما زاده من نعمه ازداد

(١) سورة النحل الآية ١١٤ .

ذلا له وانكسارا وخضوعا بين يديه وقياما بشكره وخشيته له سبحانه أن يسلبه اياها لعدم توفيته شكرها . كما سلب نعمته عمن لم يعرفها ولم يرعها حق رعايتها ، فإن لم يشكر نعمته وقابلها بضد ما يليق أن تقابل به سلبه إياها ولا بد . قال تعالى ﴿ **وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين** ﴾[1] وهم الذين عرفوا قدر النعمة وقبلوها وأحبوها وأثنوا على المنعم بها وأحبوه وقاموا بشكره . وقال تعالى ﴿ **وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾[2] .

(فصل)

وسبب الخذلان عدم صلاحية المحل وأهليته وقبوله للنعمة بحيث لو وافته النعم لقال هذا لي ، وإنما أوتيته لأني أهله ومستحقه كما قال تعالى ﴿ **قال انما أوتيته على علم عندي** ﴾[3] أي على علم علمه الله عندي أستحق به وأستوجبه وأستأهله . قال الفراء : أي على فضل عندي اني كنت أهله ومستحقاً له اذا أعطيته . وقال مقاتل : يقول على خير علمه الله عندي . وذكر عبد الله بن الحارث بن نوفل[4] : سليمان بن داود فيما أوتي من الملك ثم قرأ قوله تعالى ﴿ **هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر** ﴾[5] ولم يقل هذا من كرامتي . ثم ذكر قارون وقوله ﴿ **انما أوتيته على علم عندي** ﴾[6] يعني أن سليمان رأى ما أوتيه من

---

(١) سورة الانعام الآية ٥٣ .

(٢) سورة الانعام الآية ١٢٤ .

(٣) سورة القصص الآية ٧٨ .

(٤) عبد الله بن الحارث بن نوفل الهاشمي القرشي وال، من أشراف قريش. من أهل المدينة. أمه هند أخت معاوية. كانت ترقصه وتسميه بَبّه. وكان ورعاً ظاهر الصلاح. ولاه ابن الزبير على البصرة. ولما قامت فتنة ابن الاشعث، خرج الى عمان هارباً من الحجاج فتوفي فيها. سنة (٨٤ هـ - ٧٠٣ م).

(٥) سورة النمل الآية ٤٠ .

(٦) سورة القصص الآية ٧٨ .

فضل الله عليه ومنته ، وأنه ابتلي به (شكره) وقارون رأى ذلك من نفسه واستحقاقه . وكذلك قوله سبحانه ﴿ **ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي** ﴾[1] أي أنا أهله وحقيق به ، فاختصاصي به كاختصاص المالك بملكه ، والمؤمن يرى ذلك ملكا لربه وفضلا منه منَّ به على عبده من غير استحقاق منه بل صدقة تصدق بها على عبده . وله أن لا يتصدق بها ، فلو منعه إياها لم يكن قد منعه شيئا هو له يستحقه عليه ، فإذا لم يشهد ذلك رأى فيه أهلا ومستحقاً فأعجبته نفسه وطغت بالنعمة وعلت بها واستطالت على غيرها فكان حظها منها الفرح والفخر ، كما قال تعالى ﴿ **ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني انه لفرح فخور** ﴾[2].

فذمه باليأس والكفر عند الامتحان بالبلاء ، وبالفرح والفخر عند الابتلاء بالنعماء ، واستبدل بحمد الله وشكره والثناء عليه اذ كشف عنه البلاء قوله ﴿ **ذهب السيئات عني** ﴾ ولو انه قال أذهب الله السيئات عني برحمته ومنه لما ذم على ذلك، بل كان محموداً عليه ، ولكنه غفل عن المنعم بكشفها ونسب الذهاب اليها وفرح وافتخر .

فإذا علم الله سبحانه هذا من قلب عبد فذلك من أعظم أسباب خذلانه وتخليه عنه ، فإن محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة كما قال تعالى ﴿ **ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون** ﴾[3] فأخبر سبحانه أن محلهم غير قابل لنعمته . ومع عدم القبول ففيهم مانع آخر يمنع وصولها اليهم وهو توليهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحققوها .

ومما ينبغي أن يعلم أن أسباب الخذلان من بقاء النفس على ما خلقت عليه

---

(١) سورة فصلت الآية ٥٠ .

(٢) سورة هود الآية (٩ ـ ١٠) .

(٣) سورة الانفال الآية (٢٢ ـ ٢٣) .

في الأصل وإهمالها وتخليتها ، فأسباب الخذلان منها وفيها ، وأسباب التوفيق من جعل الله سبحانه لها قابلة للنعمة ، فأسباب التوفيق منه ومن فضله ، وهو الخالق لهذه وهذه ، كما خلق أجزاء الأرض هذه قابلة للنبات وهذه غير قابلة له . وخلق الشجر هذه تقبل الثمرة وهذه لا تقبلها ، وخلق النحلة قابلة لأن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، والزنبور غير قابل لذلك ، وخلق الارواح الطيبة قابلة لذكره وشكره وحجته واجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عباده . وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة لذلك بل لضده وهو الحكيم العليم .

قال شيخ الإسلام بحر العلوم مفتي الفرق أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله[1] :

في ظلال الآية
﴿ أحَسِبَ الناس أن يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾

قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين. أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون. من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم . ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ان الله لغني عن العالمين . والذينَ آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون . ووصينا الانسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم

(١) هو الامام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني الدمشقي الحنبلي - أبو العباس - تقي الدين ابن تيمية. الامام، شيخ الإسلام، ولد بحران سنة (٦٦١ هـ - ١٢٦٣ م) وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر وطلب الى مصر من اجل فتوىٰ أفتىٰ بها، فقصدها، فتعصب عليه جماعة من أهلها فسجن مدة، ونقل إلى الاسكندرية، ثم أطلق فسافر إلى دمشق سنة (٧١٢ هـ) واعتقل بها سنة (٧٢٠ هـ) وأطلق ثم أعيد، ومات معتقلاً بقلعة دمشق سنة (٧٢٨ هـ - ١٣٢٨ م) من أشهر مؤلفاته «منهاج السنة» و «الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان» و «الواسطة بين الحق والخلق» و «الصارم المسلول على شاتم الرسول» و «الايمان» وغيرها كثير.

تعملون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين . ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذِيَ في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين . وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾[1] وقال الله تعالى ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزُلزِلُوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب ﴾[2] وقال الله تعالى لما ذكر المرتد والمكره بقوله ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه ﴾[3] قال بعد ذلك ﴿ ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾[4] .

فالناس اذا أرسل اليهم الرسل بين أمرين : إما أن يقول أحدهم آمنا . واما أن لا يقول آمنا ، بل يستمر على عمل السيئات ، فمن قال آمنا امتحنه الرب عز وجل وابتلاه وألبسه الابتلاء والاختبار ليبين الصادق من الكاذب ومن لم يقل آمنا فلا يحسب أنه يسبق الرب لتجربته ، فإن أحداً لن يعجز الله تعالى . هذه سنته تعالى : يرسل الرسل الى الخلق فيكذبهم الناس ويؤذونهم قال تعالى ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيٍ عدواً شياطين الانس والجن ﴾[5] وقال تعالى ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون ﴾[6] وقال تعالى ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾[7] ومن آمن بالرسل وأطاعهم عادوه وآذوه فابتلي بما يؤلمه ، وان لم يؤمن بهم عوقب ، فحصل ما يؤلمه أعظم وأدوم ، فلا بد من حصول الألم لكل نفس سواء آمنت أم كفرت . لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة . والكافر تحصل له النعمة ابتداء ثم يصير في الألم .

---

(١) سورة العنكبوت الاية (١ ـ ١١) .
(٢) سورة البقرة الآية ٢١٤ .
(٣) سورة النحل الآية ١٠٦ .
(٤) سورة النحل الآية ١١٠ .
(٥) سورة الانعام الآية ١١٢ .
(٦) سورة الذاريات الآية ٥٢ .
(٧) سورة فصلت الآية ٤٣ .

سأل رجل الشافعي[١] فقال : يا أبا عبد الله أيما أفضل للرجل : أن يمكَّن أو يبتلى ؟ فقال الشافعي : لا يمكن حتى يبتلى ، فإن الله ابتلى نوحا وابراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فلما صبروا مكنهم ، فلا يظن أحد أنه يخلص من الألم البتة .

وهذا أصل عظيم فينبغي للعاقل أن يعرفه ، وهذا يحصل لكل أحد ، فإن الانسان مدني بالطبع ، لا بد له من أن يعيش مع الناس ، والناس لهم إرادات وتصورات يطلبون منه أن يوافقهم عليها وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب تارة منهم وتارة من غيرهم . ومن اختبر أحواله وأحوال الناس وجد من هذا شيئاً كثيراً ، كقوم يريدون الفواحش والظلم ولهم أقوال باطلة في الدين أو شرك ، فهم مرتكبون بعض ما ذكره الله من المحرمات في قوله تعالى ﴿ **قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾[٢] وهم في مكان مشترك كدار جامعة أو خان أو قيسرية أو مدرسة أو رباط أو قرية أو درب ، أو مدينة فيها غيرهم ، وهم لا يتمكنون مما يريدون الا بموافقة أولئك أو بسكوتهم عن الإنكار عليهم ، فيطلبون من أولئك الموافقة أو السكوت فإن وافقوهم أو سكتوا سلموا من شرهم في الابتلاء ، ثم قد يتسلطون هم أنفسهم على أولئك يهينونهم ويعاقبونهم أضعاف ما كان أولئك يخافونه ابتداء ، كمن يطلب منه شهادة الزور أو الكلام في الدين بالباطل اما في الخبر واما في الأمر أو المعاونة على الفاحشة والظلم ، فإن لم يجبهم آذوه وعادوه ، وان أجابهم فهم أنفسهم يتسلطون عليه

---

(١) الامام الشافعي هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي ـ أبو عبد الله ـ أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، وإليه نسبة الشافعية كافة . ولد في غزة (بفلسطين) وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين وزار بغداد وقصد مصر سنة (١٩٩) فتوفي بها سنة (٢٠٤ هـ ـ ٨٢٠ م) أشهر كتبه : «الأم» في الفقه ـ سبعة مجلدات ـ و «المسند» في الحديث و «احكام القرآن» و «السنن» وغيرها .

(٢) سورة الاعراف الآية ٣٣.

فيهينونه ويؤذونه أضعاف ما كان يخافه ، والا عـذب بغيرهم . فـالواجب مـا في حديث عائشة الذي بعثت به الى معاوية ويروى موقوفا ومرفوعا « من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس »[1] وفي لفظ « رضي الله عنـه وأرضى عنه الناس . ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئا » وفي لفظ « عاد حامده من الناس ذاماً » .

وهذا يجزي فيمن يعين الملوك والرؤساء على أغراضهم الفاسدة .

وفيمن يعين أهل البدع المنتسبين الى العلم والدين على بدعهم ، فمن هداه الله وأرشده امتنع من فعل المحرم وصبر على أذاهم وعداوتهم ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة ، كما جرى للرسل وأتباعهم مع من أذاهم وعاداهم مثل المهاجرين في هذه الأمة ومن ابتلي من علمائها وعبادها وتجارها وولاتها .

وقد يجوز في بعض الأمور اظهار الموافقة وابطان المخالفة كالمكره على الكفر كما هو مبسوط في غير هذا الموضع اذ المقصود هنا أنه لا بد من الابتلاء بما يؤذي الناس فلا خلاص لأحد مما يؤذيه البتة . ولهذا ذكر الله تعالى في غير موضع أنه لا بد أن يبتلى الناس ، والابتلاء يكون بالسراء والضراء ، ولا بد أن يبتلى الانسان بما يسره وما يسوؤه ، فهو محتاج الى أن يكون صابراً شكوراً قال تعالى ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا** ﴾[2] وقال تعالى ﴿ **وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون** ﴾[3] وقال تعالى ﴿ **فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾[4] وقال تعالى ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾[5] هذا في آل عمران ، وقد قال قبل ذلك في البقرة ، فان البقرة نزل أكثرها قبل آل عمران ﴿ **أم حسبتم أن**

(١) انظر باب الزهد (جامع الترمذي).
(٢) سورة الكهف الآية ٧.
(٣) سورة الاعراف الآية ١٦٨ .
(٤) سورة طه الآية ١٢٣ ـ ١٢٤ .
(٥) سورة آل عمران الآية ١٤٢ .

تـدخلوا الجنة ولما يأتكم مثـل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضـراء وزلـزلـوا حتى يقـول الـرسـول والـذين آمنـوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾[1] .

وذلك أن النفس لا تزكـو وتصلح حتى تمحص بالبـلاء كالـذهب الذي لا يخلص جيده من رديئه حتى يفتن في كير الامتحان اذ كـانت النفس جاهلة ظـالمة وهي منشأ كل شر يحصل للعبد ، فلا يحصل له شـر الا منها . قـال تعالى ﴿ مـا أصابك من حسنة فمن الله وما أصـابك من سيئة فمن نفسك ﴾[2] وقـال تعالى ﴿ أو لمـا أصـابتكم مصيبـة قـد أصبتم مثليهـا قلتم أنى هـذا قـل هـو من عنـد أنفسكم ﴾[3] وقـال ﴿ وما أصـابكم من مصيبة فبـما كسبت أيديكم ويعفـو عن كثير ﴾[4] وقال تعالى ﴿ ذلك بـأن الله لم يك مغيـرا نعمة أنعمهـا على قـوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[5] .

* * *

وقد ذكر عقوبات الأمم من آدم الى آخر وقت ، وفي كل ذلـك يقول انهم ظلموا أنفسهم فهم الظالمون لا المظلومون ، وأول من اعترف بذلك أبـواهم قالا ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنـا لنكونن من الخـاسرين ﴾[6] وقـال لإبليس ﴿ لأمـلأن جهنم منك وممن تبعـك منهم أجمعين ﴾[7] وإبليس انمـا اتبعه الغواة منهم كما قال ﴿ بمـا أغـويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعـين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾[8] وقال تعالى ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾[9] والغي اتباع هوى النفس ، وما زال السلف معترفون

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٤ .
(٢) سورة النساء الآية ٧٩.
(٣) سورة آل عمران الآية ١٦٥ .
(٤) سورة الشورى الآية ٣٠.
(٥) سورة الانفال الآية ٥٣ .
(٦) سورة الاعراف الآية ٢٣ .
(٧) سورة ص الآية ٨٥.
(٨) سورة الحجر الآية ٣٩ ـ ٤٠ .
(٩) سورة الحجر الآية ٤٢ .

بذلك كقول أبي بكر وعمر وابن مسعود : أقول فيها برأيي فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه .

وفي الحديث الالهي حديث أبي ذر الذي يرويه الرسول عن ربه عز وجل « يا عبادي انما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »(١) وفي الحديث الصحيح حديث « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت . أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي فاغفر لي انه لا يغفر الذنوب الا أنت ـ من قالها اذا أصبح موقنا بها فمات من يومه دخل الجنة ، ومن قالها إذا أمسى موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة»(٢) .

وفي حديث أبي بكر الصديق من طريق أبي هريرة وعبد الله بن عمر « أن رسول الله ﷺ علمه ما يقوله إذا أصبح واذا أمسى واذا أخذ مضجعه : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه . وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجرّه الى مسلم ، قله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك » .

وكان النبي ﷺ يقول في خطبته « الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا » وقد قال النبي ﷺ « اني آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تتهافتون تهافت الفراش »(٣) شبههم بالفراش لجهله وخفة حركته ، وهي صغيرة النفس فإنها جاهلة سريعة الحركة .

وفي الحديث « مثل القلب مثل ريشة ملقاة بأرض فلاة» وفي حديث آخر

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه الامام أحمد بلفظ مختلف.

«للقلب أشد تقلبا من القدر إذا استجمعت غليانا» ومعلوم سرعة حركة الريشة والقدر مع الجهل. ولهذا يقال لمن أطاع من يغويه أنه استخفه. قال عن فرعون انه استخف قومه فأطاعوه. وقال تعالى ﴿ **فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون** ﴾[1] فإن الخفيف لا يثبت بل يطيش، وصاحب اليقين ثابت. يقال أيقن إذا كان مستقرا، واليقين استقرار الايمان في القلب علما وعملا، فقد يكون علم العبد جيدا لكن نفسه لا تصبر عند المصائب بل تطيش. قال الحسن البصري[2]: اذا شئت أن ترى بصيرا لا صبر له رأيته، واذا شئت أن ترى صابرا لا بصيرة له رأيته، فاذا رأيت بصيرا صابرا فذاك قال تعالى ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** ﴾[3] ولهذا تشبه النفس بالنار في سرعة حركتها وافسادها، وغضبها وشهوتها من النار. والشيطان من النار.

وفي السنن عن النبي ﷺ أنه قال «الغضب من الشيطان. والشيطان من النار وانما تطفأ النار بالماء، فاذا غضب أحدكم فليتوضأ»[4] وفي الحديث الآخر «الغضب جمرة توقد في جوف ابن آدم» ألا ترى الى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه وهو غليان دم القلب لطلب الانتقام. وفي الحديث المتفق على صحته «ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»[5] وفي الصحيحين «أن رجلين استبا عند النبي ﷺ وقد اشتد غضب أحدهما فقال النبي ﷺ: اني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»[6]، وقد قال تعالى ﴿ **ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم، واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم** ﴾[7].

---

(١) سورة الروم الآية ٦٠.
(٢) هو الحسن بن يسار البصري - أبو سعيد -.
(٣) سورة السجدة الآية ٢٤.
(٤) رواه الامام أحمد في مسنده.
(٥) رواه البخاري في كتاب الأحكام.
(٦) رواه أحمد في مسنده.
(٧) سورة فصلت الآية (٣٤ - ٣٦).

(١) سورة الأعراف الآية (١٩٩ ـ ٢٠٠).

(٢) سورة المؤمنون الآية ٩٦ ـ ٩٨.

الفهرس

صفحة

المقدمة ٥
نبذة عن حياة المؤلف ٧
شروط الانتفاع بالقرآن الكريم ٩
أصول الايمان مجموعة في سورة ق ١١
براهين المعاد في القرآن الكريم ١٣
القيامة الكبرى والقيامة الصغرى ١٨
صفات أهل الجنة ٢١
منزلة أهل بدر ٢٤
نظرات في تفسير آية ﴿ هو الذي جعل الارض لكم ذلولا ﴾ ٢٦
في ظلال سورة الفاتحة ٢٨
طريقان لمعرفته تعالى ٢٩
معنى العبودية ٣٢
الفرق بين الحكم والقضاء ٣٤
أنزه الموجودات عرش الرحمن جل جلاله ٣٧
قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده ٣٩
قوله تعالى : ﴿ الهاكم التكاثر ﴾ ٤٠
طوبى لمن أنصف ربه ٤٤
الغيرة غيرتان ٤٤
اياك والمعاصي ٤٦
سلمان منا آل البيت (ع) ٤٧

من فقد أنسه بالله بين الناس ٥١
فتنة الدنيا ٥٣
وجعلنا لكل شيء سبباً ٦١
اللذة تابعة للمحبة ٦٢
حبسان منجيان ٦٣
تأثير الشهادة عند الموت في تكفير السيئات ٦٥
اتقوا الله واجملو في الطلب ٦٨
فضل الجهاد وأنواعه ٦٩
الغرور بالأماني ٧٣
مواعظ وحكم ٧٧
الله يتجلى لعباده ٨٠
لا تحزن إن الله معنا ٨٢
مواعظ وحكم ٨٦
أنواع هجر القرآن ٩٤
كمال النفس ٩٥
العلم والعمل ٩٧
الايمان ظاهر وباطن ٩٨
التوكل على الله ٩٨
الجاهل يشكو الله إلى الناس ٩٩
في ظلال آية ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا ﴾ ١٠٠
﴿ وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . . ﴾ ١٠٤
الرغبة بالآخرة تقتضي الزهد بالدنيا ١٠٧
الخير في مشيئة الله تعالى ١١٠
تقوى العالم وزهده في الدنيا أصل لقبول فتواه ١١٣
العلم والإيمان أفضل ما يكتسبه المرء ١١٧
الايمان معرفة وعلم واقرار ومحبة ١٢٠
المشقة في ترك المألوف إكراماً لله ١٢٢
عشرة ضائعة لا ينتفع بها ١٢٦

حق الله على عباده	١٢٧
توكلوا على الله حق توكله	١٢٨
رضا الله علامة صحة الإرادة	١٣٢
استعن بالله واجعل الله انسك	١٣٢
الذكر والشكر	١٤٤
من سار على درب الهداية يسر الله له سبلها	١٤٥
الهدى والرحمة من صفات العطاء	١٥١
التعلق في المطالب العليا	١٥١
الكذب مفسدة فابتعد عنها	١٥٢
شروط الانتفاع بالعلم	١٥٤
الانطلاق في الشهوات يورث الحسرة والندم	١٥٥
حد الأخلاق	١٥٦
الأخلاق الممدوحة والأخلاق المذمومة	١٦٠
المطلب الأعلى يحتاج إلى همة عالية ونية صحيحة	١٦١
الاخلاص ومحبة المدح لا يجتمعان	١٦٦
مزايا الخليفة عمر بن عبد العزيز	١٦٩
حكم ومواعظ	١٧٠
العوائق والعلائق	١٧١
منزلة الرسول	١٧٢
علامات السعادة والفلاح	١٧٢
الأعمال درجات وأساسها الايمان	١٧٣
الكفر وأركانه	١٧٤
في وصف الجهال	١٧٦
التوحيد شجرة من القلب فروعها الأعمال	١٨٢
انواع الكسب	١٨٨
مواساة المؤمنين	١٨٩
الجهل بالطريق ووعورتها يورث التعب	١٨٩
الرحلة الى الله تعالى وما يكتنفها من عوائق	١٨٩

نعم الله تعالى وأنواعها ١٩٠
من لم يعرف نفسه لا يعرف خالقه ١٩٥
معرفة الله تعالى ١٩٧
في ظلال الآية ﴿ ان الله لا يغير بقوم حتى... ﴾ ١٩٨
معرفة الله سبحانه وتعالى بالجمال ١٩٩
آراء في الجمال ٢٠٣
ليس أنفع من صدق العبد مع ربه ٢٠٤
اعظم الظلم ان تطلب التعظيم لنفسك ٢٠٥
مثل المرء في الحياة الدنيا كمثل المسافر ٢٠٨
المشاهدة ٢٠٨
اللذة المحرمة ٢١٠
لله على العبد في كل عضو أمر ٢١٠
فرقة في الجنة وأخرى في النار ٢١١
من صفات التوحيد ٢١٢
ترك الشهوات طاعة لله ٢١٣
الإنابة ٢١٣
الفكر مبدأ الإرادة ٢١٥
الطلب لقاح الإيمان ٢١٧
محبة الله تعالى ٢٢٠
النعم كلها من عند الله تعالى ٢٢١
في ظلال الآية : ﴿ أحسب الناس ان يتركوا أن يقولوا آمنا
وهم لا يفتنون ﴾ ٢٢٥
الفهرس ٢٣٣

منشورات
دار مكتبة الحياة
للطباعة والنشر - بيروت

كتب التراث العربي

اسم الكتاب	المؤلف
مجمع البيان في تفسير القرآن (مجلد) ١ ـ ٦	للشيخ أبو علي الطبرسي
شرح نهج البلاغة ١ ـ ٥ (مجلد)	ابن أبي الحديد
الأغاني (طبعة جديدة محققة)	لأبي الفرج الأصفهاني
محاضرات الأدباء١ ـ ٢ (مجلد)	للراغب الأصبهاني
عيون الأنباء في طبقات الأطباء (مجلد)	ابن أبي أصيبعة
مجمع الأمثال ١ ـ ٢ طبعة جديدة ومدققة (مجلد)	الميداني
صورة الأرض (مجلد)	ابن حوقل
أخبار النساء (غلاف)	ابن قيم الجوزية
أخبار النساء (مجلد)	ابن قيم الجوزية
ناريخ سني ملوك الأرض (مجلد)	حمزة الأصفهاني
طوق الحمامة (غلاف)	ابن حزم الأندلسي
طوق الحمامة (مجلد)	ابن حزم الأندلسي
لامية العرب	الشنفرى
ترتيب المدارك مع الفهرس ١ ـ ٣	القاضي عياض

اسم الكتاب	المؤلف
الساق على الساق (مجلد)	أحمد فارس الشدياق
الضوء اللامع ١ ـ ٦ (مجلد)	السخاوي
تاج العروس ١ ـ ١٠ (مجلد)	الزبيدي
معجم متن اللغة ١ ـ ٥ (مجلد)	الشيخ أحمد رضا
خاص الخاص (غلاف)	الثعالبي
خاص الخاص (مجلد)	الثعالبي
الادب المفرد (غلاف)	الامام الحافظ بن اسماعيل البخاري
الادب المفرد (مجلد)	الامام الحافظ بن اسماعيل البخاري
آثار ابن المقفع (غلاف)	ابن المقفع
آثار ابن المقفع (مجلد)	ابن المقفع
شرح شواهد المغني ١/ ٢ (مجلد)	السيوطي
رسائل أبي بكر الخوارزمي (غلاف) ...	تحقيق نسيب وهيبه الخازن
الامتاع والمؤانسة (غلاف)	أبو حيان التوحيدي
الامتاع والمؤانسة (مجلد)	أبو حيان التوحيدي
جامعة الجامعة (لإخوان الصفا)	تحقيق عارف تامر
القرامطة	تحقيق عارف تامر
أربع رسائل اسماعيلية	تحقيق عارف تامر
كليلة ودمنة (مجلد)	ابن المقفع
المقري وكتابه نفح الطيب (غلاف)	الدكتور محمد بن عبد الكريم
المقري وكتابه نفح الطيب (مجلد)	الدكتور محمد بن عبد الكريم
مقدمة في صناعة النظم والنثر (مجلد) ...	الدكتور محمد بن عبد الكريم
مخطوطات جزائرية في مكتبات استنبول	الدكتور محمد بن عبد الكريم
شرائع الإسلام (مجلد)	للمحقق الحلي
فقه اللغة (مجلد)	الثعالبي
تهذيب الاخلاق (مجلد)	لمسكويه
الفوائد المحصورة في شرح المقصورة (مجلد)	ابن هشام اللخمي (تحقيق أحمد عبد الغفور عطار)

طبع هذا الكتاب على مطابع
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت - شارع سوريا
تلفون ٢٣١٩٣٠ ص.ب ١٣٩٠

هذا الكتاب

يسر دار مكتبة الحياة التي تعودت أن تكون السباقة في نشر الذخائر وإظهار التراث العربي ، أن تضع بين يدي القارىء العربي كتاب الفوائد للإمام محمد بن قيم الجوزية . وذلك لما لهذا الكتاب من عميم الفائدة وعظيم النفع للعلماء والطلاب . سيما وأنه قد تمت خدمته وبيان غوامضه وتعريف أعلامه، وبيان الآيات القرآنية الوارد فيه ، مما يسهل للقارىء الكريم الاستفادة منه بيسر وسهولة .

والله ولي التوفيق

دار مكتبة الحياة

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان